

امیمل أو تربیتہ الطفل من الھند إلى الرشد

تألیف
جان جاکب رُوسو
نقلہ إلى العربیة
الدکتور نظیب لوقا

تقدیم
الاستاذ أحمد زکی محمد
رکبک وزیرية التربية والتعليم السامو



امیل أو تربیه الطفل من المهد إلى الرشد

تألیف
جان جاک رُوسُو
نقله إلى العربیة
الدکتور نظمتی لوقا

تقديم
الأستاذ أحمد زکی محمد
رکیت وزیة الترجمة والتعليم السائد



تقديم للاستاذ احمد زكى محمد رئيس وزارة التربية والتعليم المساعد

كان من السهل الى وقت قريب أن نرى أناسا يعيشون كما كان يعيش
أجدادهم من قبل — أناسا يتعلمون الحياة من الحياة نفسها فنرى أطفالهم
يشتغلون مع آبائهم ويتعلمون منهم حرفهم وأعمالهم بالمحاكاة والتجربة .

ولكن الحياة عندما تتغير وتتغير القيم وتتغير الاساليب والاتجاهات
يتغير معها كل شيء ، فقديما لم يشعر الناس بالحاجة الى التربية ولا
بالحاجة الى المدارس والتعليم المباشر ، ليس هذا فقط ، بل ان هذه المدارس
وهذا التعليم عندما وجد وانتشر كان من الضروري أن يتغير ويتشكل
حسب حاجات المجتمع وظروفه ومطالبه .

ففى القرنين السادس والسابع عشر مثلا نجد أن العالم فى اوروبا قد
تغير تغيرا كبيرا فقد غيرت العلوم الحديثة وغير اختراع البارود من وجهة
نظر الناس ومن طبيعة الحروب وأساليبها كما غيرت الطباعة كثيرا وساعدت
على نشر الكتب وذيوعها بين أكبر عدد من الناس ، كما أن ازدياد نفوذ
الملوك وقوتهم قضى على النزاع الذى كان سائدا بين أمراء الاقطاع وساعد
على تأسيس ممالك واسعة يحكمها ملك واحد قوى يستطيع أن يؤمن
الناس على حياتهم . كل هذا وغيره جعل الناس يفكرون فى التربية وفى
اللغات القديمة وفى الخطابة والفلسفة والمنطق ومدى صلاحيتها لاعداد

الافراد لمثل هذه الحياة الجديدة . نستطيع أن نتلمس كل هذا فى العصر الذى سبق العصر الذى عاش فيه جان جاك روسو حين اهتم الناس بالعلوم الطبيعية وعنوا باللغات جميعا ولكن اهتمامهم بها لم يكن لأهميتها فى ذاتها وانما كان لما اعتقدوه فى تعليمها من فائدة ومنفعة وقيمة نهائية فاهتموا بتعلم اللغات لأنها تقوى الذاكرة عند المتعلمين واهتموا بالعلوم الرياضية لأنها تقوى العقل وتشحذه . وقد أثر هذا التفكير فى التعليم وتأثرت به المدارس والمناهج وتأثرت به العملية التعليمية كلها سنين طويلة وزاد اهتمام الناس فى انجلترا فى هذا العصر بكل ما يتصل بالعقل والتفكير بفضل كتابات جون لوك كما قامت حركة مشابهة فى فرنسا تزعمها الفيلسوف فولتير قائد الحركة العقلية الكبرى . ومن الغريب أن الناس فى كل من فرنسا وانجلترا تأثروا تأثيرا كبيرا بهذا الاتجاه فظهر التكلف فى سلوكهم وبعدت تصرفاتهم عن الطبيعة وتحكم العقل فى تصرفاتهم فبعدوا عن العاطفة اعتقادا منهم أن العواطف تسبب الخطأ والالتواء ، كل هذا كان نتيجة لما ذاع وانتشر من الآراء التى كتبها المفكرون وبثوها فى قلوب الناس فتأثروا بها ايما تأثر فى العصر الذى سبق العصر الذى عاش فيه روسو وكان لابد من ثورة جامعة ، وكان لابد من رد فعل سريع لهذا التزم وهذا الجمود وكان لابد من الخروج على الحالة القائمة التى تبعد ما بين الناس وبين الطبيعة السمتة المرحة ، وكان لابد من نبذ كل نظام يقوم على الرياء والتكلف ، فجاءت الثورة الطبيعية التى تزعمها جان جاك روسو فقاد ثورة العاطفة وتمرد على العقل والتكلف واكتشف فى السياسة ما اكتشفه مارتن لوتر فى الدين .

كتب روسو كتبا أوضح فيها آراءه عن المجتمع والتربية والطبيعة كما فصل فيها تاريخ حياته ، ولا أريد أن أفصل تاريخ حياته ونشأته ولكنى

أريد أن أؤكد أن كتابات روسو كانت صوراً شتى من حياته الشخصية فكانت تنعكس فيها تربيته المضطربة — الخالية من كل نظام أو توجيه وكانت تصور لنا خبراته في الحياة سواء أكانت خبرات سامية أو غير سامية . وفي كتاباته جميعاً نرى مزاجه المعكوس ووجدانه المتسلط على عقله ، وروسو خير من يعبر عن الآمال والأمانى الجائشة في عصره وقد اختارته الظروف والاقدار ليكون خير داع وخير معبر عن المجتمع الذي عاش فيه وعن مرضه ونواحي الضعف فيه ، فكتاباته روسو قطعة من نفسه ، ولست أبالغ إذا قررت أن روسو الكبير كان يكتب عن روسو الصغير فهو في النصف الأخير من حياته كان يكتب عن روسو في النصف الأول منها . والكتاب الذي أريد أن أقدمه إلى القراء هو كتاب (اميل) الذي يعتبر فاصلاً بين عصرين في التربية : التربية القديمة والتربية الحديثة .

وهذا الكتاب قسمه روسو إلى خمسة كتب ، كل منها يتحدث عن مرحلة من المراحل ، وقد بدأ روسو كتابته في هذا القسم بالمطالبة بجعل وظيفة التربية من البداية مقصورة على إزالة الصعوبات وكل ما يعوق الطبيعة البشرية الخيرة عن النمو الطبيعي وهذا ما يطلق عليه روسو بالتربية السلبية وهو يتحدث عن عوامل التربية ويقول أنها ثلاثة : طبيعة الطفل ، ثم المعلم ثم الحياة نفسها ، فطبيعة الطفل هي التي تساعد على نموه الجسمي وعلى نمو حواسه وقواه العقلية ، أما المعلم فهو الذي يرشد ويوجه الطفل إلى ما ينبغي أن يستخدم فيه ذلك النمو الطبيعي ، وأما الحياة فهي التي تربينا بما فيها من التجارب والخبرات .

وفي الكتاب الأول من (اميل) يتحدث إلينا روسو عن تربية الطفل حتى سن الخامسة ويحدثنا عن أهمية العناية بالجسم وضرورة اهتمام الأم

بنفسها وأهمية منح الطفل الحرية منذ ولادته ، فهو لا يريد اللقائف ولا
الاربطة التي تقيد الطفل وتشل حركاته وانما هو يريد أن يترك الطفل
حرا حتى يجسو وأن يترك يجبو كيف يشاء . وروسو يذكرنا هنا
بأن اميل يتيم بلا أب وبلا ام . وهو يربى على يد مرب يريه بعيدا عن
المدن وصخبها وضوضائها وعبث اهلها ، يريد أن يريه بين الفلاحين حيث
الطبيعة وفي القرى الهادئة حيث لا يهتدى بالانوار الصناعية التي تزجج
الانسان فى المدن وانما يهتدى بالانوار الطبيعية : بالقمر والنجوم .

ويحدثنا روسو عن ضرورة عدم التعجل فى تعلم انطق النطق والمشى
وينتهى هذا الطور من أطوار حياة اميل متى عرف كيف يأكل ومتى تعلم
النطق والكلام وأتقن المشى بمفرده وبلا مساعدة أحد .

أما الكتاب الثانى من اميل فهو الذى يشرح لنا فيه روسو حياة
اميل من الخامسة الى الثانية عشرة وهذا يعرف الطفل آلام الحياة ولذا
يجب أن يترك مستقلا . وعليه أن يتعلم الطاعة على انها واجب طبيعى
وروسو لا يريد أن يناقش الطفل فى الاخلاق وانما يرى علينا أن نبعده
عن الشر ونرشده الى العمل الصحيح والتصرف السليم والنزاهة فى
العمل . وروسو يريد ألا يتعلم الطفل أى لغة حتى سن الخامسة عشرة
الا لغة واحدة والا يدرس الجغرافية وهو عدو « لدود » للمصورات
الجغرافية والكرة الارضية ولا يريد اميل أن يتعلم التاريخ ولا الادب أو
أن يطالع الكتب . ويقول دع اميل يوازن بين الاشياء ويقسمها ويعدها
ولا يطالع الا كتابا واحدا هو كتاب الطبيعة . لأن الكتب كما يقول
روسو عذاب للطفولة وألم لها .

أما الكتاب الثالث فيتحدث فيه روسو عن تربية الطفل فى دور المراهقة
من سن الثانية عشرة الى الخامسة عشرة . فهو يريد أن يشغل اميل بالدرس

وانتصـيل ، يريد منه أن يدرس الطـبيعه وان نعتمد على رغبته وحاجته الملحة الى المعرفة والاستزادة من العلم ، يريد روسو أن توجه نظرا ميل الى الطـبيعه وأن نشجعه على البحث والاعتماد على النفس في التعليم ، يريد أن يسأل اميل عما يريد وان يتعلم الفلك والهندسة والجغرافية ولكنه يريد أن يعتمد اميل في هذه الدراسة على ملاحظة النجوم والكواكب وأن يدرس الجغرافية عن طريق البيئة المحلية .

ويلجـ روسو في أن يقرأ اميل كتابا في هذه المرحلة ولكنه لا يريد أن يقرأ غير هذا الكتاب وهو قصة روبنسون كروسو الذي حى حياة طـبيعية واعتمد على نفسه وتعلم الحياة بالحياة فاشتغل وعمل وهو أى روسو يريد أن يتعلم اميل الحرف والصناعات ولكنه يريد منه أن يتقن حرفة التجارة بنوع خاص .

الى هنا لم يتعلم اميل كثيرا وهو لا يعرف الصلات الخلقية التى تربط الناس بعضهم ببعض ولكنه ميال الى العمل معتدل فى مزاجه ، صبور ثابت العزيمة كله شجاعة وكله اقدام .

وفى الكتاب الرابع يصف روسو تربية الطفل ما بين الخامسة عشرة والعشرين . وفى هذه الفترة يريد روسو أن يحب اميل وأن يكون حبه شاملا لجميع الناس حتى أعداء الانسانية ولا ينتمى الى طائفة دون أخرى . وفى هذه المرحلة يريد روسو أن يفحص اميل آراء الناس وأفكارهم وأن يحترم الناس جميعا وأن يتعرف عليهم من دراسة التاريخ وهو يريد أن يتعلم اميل الدين وأن يختار لنفسه ديننا معينا لا يفرض عليه . وفى هذه المرحلة يريد اميل أن يكثر من المطالعة وقراءة كتب التاريخ والأدب وأن يذهب الى مشاهدة الروايات التمثيلية .

وفى الكتاب الاخير يحدثننا روسو عن تربية البنات (صوفى) وهو يريد أن تكون امرأة صالحة لخدمة الرجل وارضائه وكسب محبته وتربية الأطفال وأن تكون زوجة تهتم بالأُمور المنزلية وأن تكون حسنة الهندام جميلة المنظر .

هذا هو ملخص كتاب اميل أعرضه على القراء ، وأرجو ألا أكون قد مسخته أو أقللت من قيمه . فالكتاب كما يراه الكثيرون قصة شائقة لاتخلو من دروس ، فهي كما قدمت لك تعرض علينا فى تفصيل غير ممل نظرية روسو فى التربية . وهى تعرض علينا صورة طفل سليم متوسط الذكاء ربى فى الريف وحيدا وليس فى صحبته سوى مدرسه الخاص ، وفى هذا الوسط الذى يربى فيه الطفل لن تفسد طباعه الطبيعية وانما تنمو وتتقدم .

وقد ذاع صيت اميل وأقبل الناس على قراءته لأن روسو نادى فيه بالنسواة بين الأفراد وامتدح الرجل العادى ورفع من شأنه واعتمد على اثاره خيال الناس وعواطفهم التى كان لا يعبأ بها الكتاب من قبل . وأهم أثر لقصة اميل انها نبهت الاذهان الى التربية وجعلت الكثيرين يهتمون بها ويقبلون على آراء روسو مع ما فيها من غلو وتناقض .

وفى اميل يتحدث روسو عن أهمية تدريب الحواس ، فعن طريق الحواس نحصل على معلوماتنا عن العالم ولذلك يجب أن تقوم الحواس بعملها على أحسن وجه .

وفى الحق أن كتاب اميل يعتبر فتحا جديدا فى التربية فكان له أثر كبير فى توجيه نظرياتنا واساليبها واستحق أن يطلق على العصر الذى ظهر فيه

« عصر الطفل » للاهتمام البالغ بالطفولة ، ومطالبته بأن يكون الطفل هو مركز العناية والاهتمام لا المادة كما كان الحال من قبل .

واميل يعتبر في نظر بعض الكتاب قصة شعبية ، فقد أقبل على قراءتها عامة الشعب وغالبيتهم لا طبقة المفكرين وحدهم ، ذلك لان روسو جعل من التربية موضوعا شعبيا يتحدث فيه الجادون والهازلون من الناس جميعا . وكتاب اميل هو الذي وجه الانظار الى التربية وجعل الحكومات والشعوب جميعا يعتبرونها عملية قومية يجب أن تكون موضع العناية والرعاية لا من الحكومات وحدها بل من الشعب أيضا .

أحمد زكي محمد

يوليو ١٩٥٨



التربية

عند جان جاك روسو

« عللنا التي نعانيها قابلة للشفاء ،
والطبيعة التي يسرتنا للخير منذ
مولدنا ، قميئة أن تعيننا على الشفاء
متى نشدناه » .

سنيكا

هذا كتاب لا يكتبه الا عبقرى ، فهو ناطق بصورة صاحبه الذاتية في
صدق كثير ، وحماسة متدفقة ، واخلاص مستعر . ولكن في كثير أيضا
من الاندفاع الذي يتسم به اثنان لا ثالث لهما : عبقرى أو جهول !
فى الكتاب تحليل جبار فى سماء الفكر ، ونظرات ثاقبة فى اغوار
النفس والفطرة البشرية لا يؤتاها مثقف من حيث هو تتاج علوم
عصره ، وانما يؤتاها موهوب الحس والذهن . ولكن فى الكتاب
أيضا سذاجة كثيرة ، تكاد تبلغ مرتبة الجهالة أو الغرارة المضحكة .
وما أشبه ذلك بروسو فى حياته ، وفى سلوكه ، وفى أدبه كله .
وان الانسان ليحار بعد ذلك أيرفض اميل أم يقبله . أيجبه أم يكرهه .
ولكنه لا يتردد فى التأثر به ، والاهتزاز لما فيه ، من آفاق وسبحات .
ونظرية روسو فى التربية قائمة على ذلك المبدأ الذى اعتنقه بروح
الفنان ، ودعا اليه فى حماسة المؤمن المندفع .
« ان الطبيعة خيرة . وليس لنا أن نقاومها أو نعارضها فى تقديمها
الفطرى » .

ولهذا نراه يترك اميل لتنمو فيه جميع الميول الطبيعية التى ولد بها ،
موقنا ان نمو تلك الميول فيه هو سبيله السوى الى الفضيلة .
وانه ليتطرف فى هذا الصدد تطرف الدعاة المتعصبين لمبادئهم دائما ،
حتى يأبى ان يحصن تلميذه ضد الامراض ، ايماننا منه بأز الطبيعة ستتولى
تحصينه منها ! .

وما نظن التربية الاخلاقية ترضى كثيرا عن ترك الجبل على الغارب
لكل ميل فطرى ، فما كانت الآداب الانسانية كلها الا كفاحا دائما لالجام
الميول الفطرية بالكوابح والضوابط حتى تأمن جماحها . فمن شأن
الدوافع أن تكون قوية مندفعة . وذلك لا يعيها من حيث هى دوافع
ونوازع . وانما تطلب الضوابط والكوابح عند وظيفة اخرى ترسم
حدود الفعل ، واهدافه ، وتفرض ذلك على الطبيعة البشرية بسلطان ، هو
سلطان الفضيلة ، الذى يعلو بغير شك على سلطان الفطرة الزاغة . لأن
الفضيلة لو كانت فطرية فى النفس ما عارضت دوافعها ولا وقفت بها دون
مداها ، وانه لمدى لا يدرك له منتهى .

فليس يسعنا اذن أن نتقبل المبدأ الذى اعتنقه روسو وأسس عليه
نظريته فى التربية ، لأنه مبدأ أشد سذاجة من أن يصلح لحياة الناس التى
تدين بخصوبتها لما فيها من تنوع وتعقد ، قد ينكره روسو الفنان ، الا
انه لا ينفك حقيقة لا مناص منها .

ثم ما ظنك بتلميذ من أبناء السراة ، لا حاجة به للتكسب ، فرغ
لتعليمه مؤدبه الخاص . أى نموذج هذا للتلاميذ ؟ وأى تربية هذه التى
تتم فى معزل عن المجتمع . والتكيف به ؟ ان الطبيعة لا تعرف الانسان الفرد
المنعزل ، ولكنها تعرف النوع والجماعة . وما تربية فرد ما الا تشكيله
بآداب مجتمعه ما ، وظروف ذلك المجتمع ، وقيمه . أما تربية الفرد المنعزل ،
المجرد عن ظروف الزمان والمكان ، فوهم لو فرضنا تحققه لأخرج لنا

مسخا لا يصلح لشيء .. وذلك هو عكس المقصود بالتربية .
ولا ننسى ان هذا الشاعر روسو قد انساق مع حلمه الخيالى فجعل
تلميذه يكتسب جميع المعارف العلمية باكتشافها ابتداء . وقد استلزم
ذلك الكشف آلاف العبقریات فى آلاف من السنين . فان قيضت لأميل
فسحة العمر كآلخالدين ، فهل تتاح له حصيلة العبقریات كلها التى قسمت
حظوظها فى العباقرة أجمعين ؟ وان استجاب الخالق لروسو فخلق
له ذلك التلميذ ، فكم اميلا على هذا الفرار يخلقه الله ؟ وهل تصلح
المعجزات أو الامانى أساسا لمنهج عام فى التعليم ؟ .

انى لأرى المبدأ جميلا . ولكن الامكان لايسمح بتطبيقه كما هو .
ولا شك ان الطفل ينبغى أن يوجه للملاحظة والكشف عن اسرار
الطبيعة . ولكن المعلومات التى جباها لنا العلماء كافة لا بد ان تيسر
للتلميذ ، ومن أقرب السبل ، وفى أرقى أطوارها ، لأنه لن يستطيع المرور
بجميع مراحل الكشف العلمى بمفرده .

ولنتصور اميلا يتعلم نظريات الراديو . أى اخراج يحتاج اليه معلمه
كى يتقوده من ظاهرة الى كشف قانونها ، ثم الى ظاهرة أرقى وكشف
قانونها ، وهكذا دواليك حتى يصل به الى المذيع ، والتلفزيون .. وكم
من السنين يحتاج اليها كى يتم تلك الكشوف ، ويعيد من جديد اختراع
كل ما اخترعه الأولون ؟ .

خيال شاعر هذا ولا مرأ ..

ولكن أين كنا نمسى لولا خيال الشعراء ؟ .

ان هذه الحماسة المندفعة التى لا تبالى ، ولا تصلح أحلامها للتطبيق
بحذفها ، عنصر دافع لا غنى عنه لأفكارنا وتقدمها . فما أشبه تلك
الومضات بثورات البراكين التى تكشف لنا عن أسرار طبقات الارض ،
وتخرج لنا من جوفها كوامن المعادن والكنوز .

أجل هو خيال شاعر. ولكنه لهذا السبب كان ثورة كاملة في التربية. ثورة قوضت المبادئ العتيقة ، ولفتت الأنظار الى مبدأ جديد . مبدأ أساء صاحبه استعماله ، أجل ! ولكن حسن استعماله ما كان ليتاح لنا لو لم يقدمه إلينا ، ولو لم ينبهنا إليه بتلك الهزة القوية التي ربما صدمتنا، إلا أنها أيقظتنا . وذلك حسبها من فضل ، وحسبها من مبرر للخلود .

طالما تنكر المربون للطفل وتجاهلوا فطرته . فكان لابد من هزة عنيفة تلفت الناس الى تلك الفطرة . ولئن كان روسو قد قدس تلك الفطرة تقديسا يكاد يعزلها ويجمدها ، فبيدنا نحن أن نزيل عنها الجمود . وقد فعلنا . فما من نظرية عصرية في التربية تجسر ان تقوم على أساس غير مراعاة طبيعة الطفل وظروفه وسعادته . لكنها تشفع ذلك بمراعاة الهدف الذي من أجله شرعت كل تربية ، وهو الاعداد لمجتمع معين ، وحياة معينة، لها قيمها وظروفها ، وبحيث تكون حياة الطفل في غده أفضل من حياة جيل آباءه .

ومن المفارقات الطريفة حقا ان روسو الشاعر صاحب أنجيل الحرية في التربية والسياسة ، يرتد سلفيا ، محافظا ، بل رجعيا حين يتحدث عن المرأة . فهو لا يرى لها حقا في تربية كثرية الفتى ، وانما تربي الفتاة لتكون خادمة للفتى ، تسمح على آلامه ، وتهيب له حاجته من ملبسه وطعامه .

ولعل قائل يقول ان روسو قد أستلهم الطبيعة كما يراها في ذلك الرأي ، ولكنه في الحق رأى فطير وقسوة لا مبرر لها . بل وجهالة كان ينبغي ان يتنزه عنها نبى الحرية ولسانها الممين ، وأحسبه لو عاش في زماننا كان حريا أن يعدل عن ذلك الرأي .

هل قلت « لو عاش في زماننا » ؟

ياله من فرض مضحك ! فان زماننا ما كان ليوحد على هذه الصورة

لولا أن روسو قد مهد له ، وبذر بتعاليمه وأحلامه وصرخات نفسه
الشاعرة بذور الحرية الفكرية والحرية التربوية التي حددت معالم عصرنا
الحديث .

لا تثريب على روسو .فما كان ليطلب بأكثر مما فعل ،وهو ان يكون
صوتا صارخا في البرية : أعدوا طريق التربية مستقيمة ! احترموا الطبيعة
في الطفل ! احترموا فطرته وميوله ! لاتتجاهلوا الطبيعة ولاتمسخوها !
ذاك هو روسو .قرين يوحنا المعمد . صوت صارخ في البرية . نذير
وبشير . نور ساطع في غياهب المستقبل .وهو بهذا الاعتبار ، قد أدى
مهمته أمجد الأداء ، بما استرعى من أسماع ، وما أوعى من قلوب ،
وما هدى من سبيل ...

بهذا وحده ،وما هو وحده بقليل ، خلد روسو ،وخلد اميل .

دكتور نظمي لوقا

يوليو سنة ١٩٥٨



مقدمة المؤلف

هذه المجموعة من الأفكار المتناثرة . ضئيلة الحظ من التنظيم والاتصال . فقد بدأتها بقصد ادخال السرور على أم فاضلة مستقلة التفكير . وكانت نيتي الأولى أن أجعل منها مقالة لا يتجاوز طولها بضع صفحات . فاذا بالموضوع يجرفنى . وما أدري الاومقالتي قد باتت كتاباً أضخم بكثير من المادة التي يتضمنها ، وان يكن أضال بكثير من جلال الموضوع الذي يتصدى له .

وترددت طويلاً فى نشره على الناس . وكثيراً ما راودنى الشعور وأنا مشغول بكتابته ، انه شتان بين نشر كتيبات معدودات وتأليف كتاب بمعنى الكلمة . وبذلت جهوداً غير ذات جدوى فى تكميله من نقص . ثم جمعت أمري حين رأيت من واجبي أن أنشره على الناس كما اتفق لى . وأعتقد أن انتباه الجماهير ينبغي أن يسترعى الى هذا الموضوع . ولئن كانت أفكارى بصدده ربما جانبت الصواب ، فما أرانى أضعت ما أتفقت من وقت هباء اذا قيض لى أن أستنفر همه سواى لصوغ أفكار تنسم بالصواب فى هذا الباب .

وان فرداً منفرداً مثلى يلقى الى الجمهور بكتاباته من غير داعية يدعوا لها أو يعلن عنها ، ومن غير حزب من النصارى متأهب للذود عنها ، بل وهو لا يعلم ماذا عسى أن يظن بتلك الكتابات أو يقال فيها ، لهو حقيق بالراحة من احدى المقلقات على الأقل ، فانه ان يكن مخطئاً فيما كتب ، فلن يأخذ أحد أخطائه مأخذ التنزيل أو الانجيل ! .

ولن أطيل الكلام عن قيمة التربية الصالحة ، ولن ألتكأ لأثبت أن التربية

السائدة الآن فاسدة . فقد سبقني الى ذلك ألف انسان . ولست أحب ان أحشو كتابا بأمور يعلمها الناس كافة . وحسبى أن أشير هنا الى تلك الصحية التى طالما ترددت فى الاسماع منددة بطريقة التربية القائمة ، بيد أن أحدا لم يجشم نفسه عناء الدعوة الى ما هو خير منها ! .

ان ما لجيلنا من أدب ومعرفة يجنحان كثيرا الى الهدم دون البناء . فالنقد يتيح للنقاد أن يتخذ لهجة الاستاذ . اما التوجيه أو الاقتراح فلهجتهما لاتباع الكثير من زهو الفلسفة واستعلائها .

وعلى كثرة تلك الكتب التى تزعم هدفها الأوحد النفع العام ، نجد أشد الفنون جميعها منقعة للناس ، ألا وهو فن تكوين الرجال ، لم يزل رهين الاهمال . وحتى بعد أن كتب لوك كتابه فى الموضوع ، تركت المسألة فلم يمسسها أحد تقريبا . وانى لأخشى ان يذر كتابى هذا الأمر حيث أستقبله .

اننا لا نعرف شيئا عن الطفولة . ولضلال أفكارنا عنها نزداد بالمضى فى أمرها ضلالا على ضلال . وأحكم الكتاب يوجهون أنفسهم الى ما ينبغى للرجل أن يعرفه ، من غير اعتبار لما يستطيع الطفل أن يتعلم . ذلك انهم ينشدون الرجل دائما فى الطفل ، من غير ان يراعوا ماذا يكون الطفل فعلا قبل أن يغدو رجلا .

والى هذه الدراسة وجهت أكثر عنايتى . فلئن ثبت ان منهجى متخبط غير قوي ، فلن تنفك ملاحظاتى ذات نفع وغناء . وقد أخطئ كثيرا فيما ينبغى أن يكون ويصنع ، ولكن أخالنى أحسنت تصور المادة التى ينصب عليها العمل والصنع .

ابداً اذن باحسان دراسة تلاميذك . فأنت يقينا لاتعرفهم اطلاقا ، فان أنت قرأت هذا الكتاب بهذه النية ، فلا أظنك تعدم من وراء قراءته شيئا من الجدوى .

أما من حيث ما يسمونه الجانب المنهجي من المسألة ،فليس هذا الجانب هنا الا تيار الفطرة .وهذا ما قد يضل فيه القارىء ،وهو أيضا الجانب الذى سأعرض منه للهجوم بغير شك .وربما كان ذلك عن حق .فما أحراهم ان يجدوا مسحة الخواطر التى سنحت للتأمل فى التريبة أو حالهم بها ،وقد غلبت على مسحة الدراسة .ولكن ماذا عسيت أن أصنع؟ فلست عن آراء سوى أكتب بل عن آرائى .ولست أرى ما يراه الناس وذلك شئ عيب على منذ أمد طويل .وهل فى وسعى أن أعير نفسى عيون الناس أنظر بها ،أو أنحل نفسى آراءهم ؟ .

حاشا ! ان فى وسعى حقا ألا أفنتن بآرائى ،وآلا أظن بنفسى التفرد بالحكمة دون العالمين . ولكن ليس فى وسعى ان أجرد نفسى من رأى ، وان وسعنى ان أرتاب فيه .هذا كل ما أستطيعه . وهذا ما أفعله . ولئن اتخذت أحيانا أسلوب التقرير .فليس ذلك لرغبة منى فى الاملاء على القارىء ، بل لأتخذ لأحدثه بما أعتقد . اذكيف أحدثه بلهجة الشك عن شئ لا شك فيه عندى بتاتا ؟ الا أنى أقول الشئ كما يتراءى فى فكرى بغير تحريف .

ولأننى أبسط رأى بصراحة وحرية ، لا أرتجى أن أجد له على الناس سلطانا . ولذا أشفعه دائما ببيان أسبابه وأسائده ،حتى يتسنى للناس أن يزفوها ثم يحكموا لى أو على .

بيد ان عزوفى عن الدفاع عن آرائى لا يلزمنى بكتمانها عن الناس . لأن المبادئ التى أخالف فيها الناس ليست عندى من الهيئات . بل هى مما ينبغى أن يميز الناس فيه الحق من الباطل ،ومما ينبى عليه هناء النوع البشرى أو شقوته .

ولطالما قيل لى اطلب من الناس ما يستطيع .وما أشبه هذا بأن يقال لى اطلب من الناس أن يفعلوا ما هم فاعلون . أو أن يفعلوا ذلك الخير الذى يتفق وما هم آخذون فيه من شر !

الا أن مطلباً كهذا فى بعض الأمور لهو أمعن فى الخطأ من مطلبى .
فان الخير حين يصهر الى الشر ، يمسح ، ويبقى الشر دون علاج .

ولأن أسير فى جميع الأمور على النهج المطروق ، أحب الى نفسى من
متابعة النهج الصالح متابعة منقوصة . فذلك انفى للتناقض . فما يستطيع
الانسان ان يتغيا غايتين متقابلتين فى وقت معا .

أيها الآباء والامهات . ما أردتم أن يكون فهو الممكن . فهل لى أن
أترجم عن ارادتك ؟ .

وهناك أمران يجب اعتبارهما فى كل شريعة نهم بها ، أولهما ما لذلك
المشروع من صلاح مطلق . وثانيهما ما فى تنفيذه من يسر .

والنظرة الأولى كافية لاقتناعنا بأن ما فى طبيعة هذا الموضوع من خير
كفيل له بيسر العمل والتطبيق . أى أن التربية التى ندعو اليها تلائم طبيعة
الانسان وتتفق مع العاطفة البشرية .

والاعتبار الثانى يتوقف على شروط معينة فى حالات خاصة . وهذه
الشروط عارضة ، وهى من ثمة متغيرة الى أقصى حد . فنوع معين من
التربية قد يكون ممكناً فى سويسرا ولكنه غير ممكن فى فرنسا . ونوع
آخر يصلح للطبقات الوسطى بيد انه لا يصلح للنبلاء . فالمشروع قد
يتفاوت حظه من التوفيق عند التنفيذ حسب عوامل شتى ، لا يمكن
تحديدھا الا بالتطبيق الخاص للمشروع فى هذا البلد أو ذاك ، وهذه
الطبقة أو تلك .

ولكن التطبيقات الخاصة ليست هى جوهر موضوعى ، ولهذا
لا موضوع لها فى مشروعى . ولسواى أن يجشم نفسه بلوغ تلك
الغاية ما شاء ، كل يختار لذلك التطبيق البلد الذى يشاء والطبقة التى
يختار .

وحسبى ان مشروعى يصلح للناس أينما ولدوا . وانك متى أخذتهم

مأخذى هذا ، صنعت منهم خير ما يمكن أن يكونوا لأنفسهم ، وصنعت
منهم خير ما يمكن أن يكونوا للناس .
وان قصرت دون هذا العهد ، فاللوم لاحق بى لا محالة . أما أن وفيت
وعدى هذا ، فلا حق لأحد أن يطالبنى بالمزيد . فما يغيره تعلق منى
الوعد ...



.

الكتاب الأول

الطفولة الأولى

وما تقتضيه من رعاية

- الطبيعة والتربية
- مزاعم باطلة
- واجب الأب
- تخير المؤدب والتلميذ
- تخير الموضع
- الخدمات الأولى
- التربية النفسية المتدرجة

الطبيعة والتربية

يخرج كل شيء من يد الخالق صالحا ، وكل شيء فى أيدي البشر يلحقه الاضمحلال . يكره الانسان الارض على انبات ما تخرجه أرض سواها ، ويكره الشجرة على حمل ثمار شجرة غيرها . يخلط بين الاجواء والعناصر والمواسم ، ويخصى كلبه وحصانه وعبداه . يقلب كل شيء ، ويشوه كل شيء . يحب المسخ والامساخ ، ولا يريد شيئا على الوجه الذى برته به الطبيعة حتى ولو كان ما برته الطبيعة انسانا مثله ! فهو يأبى الا أن يروض له ، كأنه جواد ركوب ، وأن يصاغ على هواه كأنه شجرة فى بستانه .

وبغير هذا كان المآل حريا أن يزداد وخامة ، فلا يصلح جنسنا البشرى بحال وسط . اما وقد وصلت الامور الى وضعها الراهن ، فمن خلى بينه وبين سجيته منذ مولده خلق أن يغدو بين الناس أشدهم مسخا . فالسبقيات ، والسلطان ، والضرورات ، والقذوة ، وسائر الظروف الاجتماعية التى تستغرقنا قمينة أن تخنق فيه فطرته ، ثم لا تعوضه عنه شيئا . ستكون فطرته كنبذة شاءت لها المقادير أن تنبثق فى عرض الطريق ، فتدوسها أقدام السابلة ، وهم يدهمونها من كل صوب ، ويرتطمون بها فى كل اتجاه .

انى أتجه اليك أنت بالخطاب أيتها الأم الحصيفة الحنون التى عرفت

كيف تتكئين الطريق المطروق وتحمين النبتة الباقية من عتو المواضعات البشرية ! . (١)

اسقى هذه النبتة الصغيرة وتعهد بها قبل أن تموت . فيوما ما ستكون ثمراتها قرة عينك . وبادرى الى احاطة روح ولدك بحمى متين . أجل سواك قد يناط به تخطيط ذلك الحمى ، ولكن ما من أحد سواك ينبغى له أن يقيم السياج ..

انما يتشكل النبات بالزراعة، ويتشكل البشر بالتربة . فمن ولد منهم فارها قويا : لن تجديه قامته وقوته الى أن يتعلم كيف يفيد منهما ، بل تكونان مصدر ضرر له بما تمنعان غيره من التفكير في مد يد العون

(١) ان التربية الاولى هى أخطر مراحل التربية شأنا . وهذه التربية الاولى موكولة الى النساء بغير منازع . فلو أن فاطر الفطرة شاءها موكولة للرجال لآتاهم لبنا يرضعون منه البنين . فالاجدر فى مؤلفات التربية أن توجه الخطاب الى النساء ، فهن أقرب مساسا بها من الرجال ، وأشد منهم تأثرا ، والتوفيق فيها يعنيهن أكثر مما يعنى الرجال ، لان معظم الارامل تحت رحمة أولادهن . الذين لا يتورعون عن مصارحتهن برأيهم فى حسن تربيتهم لهم أو سوءها . ولما كانت القوانين تهتم برعاية الاموال دون الاشخاص ، لانها تستهدف الامن لا الفضيلة ، فهى لا تمنح الامهات سلطة كافية على الابناء . وواجبات الامهات أثقل من واجبات الآباء ، وأعمالهن أجدى على رفاهة الاسرة ، وهن فى العادة ألصق بابنائهن . ولئن كان لابن يعق أباه بعض العذر أحيانا ، فان من مسخت فطرته حتى عق أمه التى حملته فى بطنها وغذته من لبنها ، ونسيت نفسها أعواما لتفرغ له جهدها ، لتحقيق أن يعجل به لانه لم يكن أهلا لنور الدنيا . وقد يقال ان الامهات يدللن أولادهن . وهن فى ذلك مخطئات . ولكن لعلهن فى ذلك أقل خطأ منكم يا من تفسدونهم . فالام تريد لابنها السعادة منذ الآن . وهى فى ذلك بحقة وان أخطأت الوسيلة . وينبغى تبصيرها بها . الا أن الطموح والشح والعنت وسوء التقدير للعواقب مما يجنح اليه الآباء ، والاهمال أو البلادة التى يعاملون بها أولادهم ، لهن أثر بهم من حنان الامهات الاعمى . وعلى كل حال يجب توضيح هذا المعنى الذى استعمل به لفظ الأم ، وهذا ما سأفعله فيما بعد .

اليه (١) ، واذا يتركونه لشأنه يموت صبرا قبل أن يفطن الى حاجاته .
وان من يضيق بفترة الطفولة لا يدرك أن النوع البشرى كان حريا أن
يهلك لو لم يبدأ الانسان طفلا ... فنحن نولد ضعافا ، فى حاجة الى
القوة ، ونولد مجردين من كل شئ ، فى حاجة الى العون . ونولد حمقى ،
فى حاجة الى التمييز . وكل ما يعوزنا حين مولدنا ، ونفتقر اليه فى
كبرنا ، تؤتينا اياه التربية .

والتربية تأتينا أما من الطبيعة أو من الناس ، أو من الاشياء . فنمو وظائفنا
وجوارحنا الداخلى ذلكم هو تربية الطبيعة . وما تتعلم من الافادة من ذلك
النمو ، ذلكم هو تربية الناس . وما نكتسبه بخيرتنا عن الأشياء التى تتأثر
بها ، فذلكم هو تربية الأشياء .

كل امرئ منا اذن يتولى أمر تشكيكه ثلاثة ضروب من الأسايد
والتلميذ الذى تنضارب فيه دروسهم المتباينة تسوء تربيته ، ولن يكون
على وفاق مع نفسه . اما من تتوافق فيه تعاليمهم ، فتنصب على أمور
واحدة ، وتستهدف غايات واحدة ، فهذا هو الذى يصل الى مبتغاه ،
ويعيش فى وفاق مع نفسه . وهذا هو من طابت تربيته .

ومن بين ضروب التربية الثلاثة ، نلغى تربية الطبيعة خارجة عن ارادتنا .
وأما تربية الاشياء فلا تدخل تحت سلطاننا الا بمقدار . واما تربية الناس
فتلك دون سواها مطوعة لنا بحق . بيد أننا لسنا مسيطرين عليها الا
افتراضا ، فمن ذا الذى يتناول فيطمع أن يهيمن الهيمنة كلها على أقوال
كل من يحيطون بالطفل وأفعالهم ؟

وما اعتبرت التربية فنا ، فهى توشك أن تستعصى على النجاح ،
فأسباب النجاح المحتومة ليست بيد أحد . وكل ما يستطاع بالجهد أن

(١) انه اذ يشبه سواه من الناس فى مظهره ، تعوزه الالفاظ والمعانى
التي تدل عليها ، فيعجز عن تفهيمهم حاجته الى معونتهم ، وظاهر حاله لا يدل
على تلك الحاجة .

نقترب من غايتنا قليلا أو كثيرا ، ثم يستأثر الحظ بتمام الوصول .
وما هي هذه الغاية ؟

انها بعينها غاية الطبيعة . وقد سبق البرهان على هذا . وحيث ان
اثنان من ضروب التربية الثلاثة لا معدى عنه لاكتمالها ، فيجب أن نوجه
هذين الضربين اللذين لنا عليهما بعض السلطان الى مضاهاة الضرب الذى
لا سلطان لنا عليه .

ولعل لفظ الطبيعة يعتريه بعض الغموض ، فلأعند هاهنا الى ضبطه .
قل ان الطبيعة ان هي الا العادة . فما معنى هذا ؟ ألا توجد عادات
لا تتكون الا قسرا ، ولا تقضى على الطبيعة مطلقا ؟ خذ مثلا العادة التى
تتكون عند النبات حين يحال بينه وبين اتجاهه الرأسى . ولكن حين يترك
للنبات مطلق الحرية ، يستمر فى الاتجاه الذى أجبر عليه ، الا أن كل
امتداد جديد للساق الاصلى يرتد الى الاتجاه الرأسى . وكذلك ميول
الناس . فما لبث المرء على حاله ، احتفظ بالعادات التى أقحمت على
طبيعته ، ولكن متى زالت تلك الحالة انقطعت العادة وأرتد الحال الى
الطبيعة .

وما التربية يقينا الا عادة . وكأين من انسان ينسى تربيته أو يهدرها .
وكأين من انسان يصونها . فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟ فهل تقصر لفظ
الطبيعة على العادات التى توافق الطبيعة ، فلا حاجة بنا لمزيد من
الأفصاح ...

اننا نولد ذوى حس ، ومنذ مولدنا ونحن ننفعل بمختلف الاشياء التى
تحيط بنا ، ومنذ نؤتى ما يسمى وعى احساساتنا ونحن ننزع الى الاقبال
على الأشياء التى تصدر عنها بعض هذه الاحساسات ، والى العزوف عن
بعضها الآخر ، بحسب ما يطيب لنا منها وما يسوؤنا ، ثم بحسب ما نجد
من وفاق بيننا وبين هذه الاشياء أو تنافر . ثم أخيرا بحسب الفكرة التى
يكونها ذهننا عن السعادة أو الكمال ..

وتزداد هذه النزعات اتساعا وشدة كلما ازدادنا تعقلا واستنارة . الا
أن هذه النزعات تتغير بتأثير معتقداتنا وبضغط من عاداتنا . اما قبل ذلك
التغير القسرى ، فهذه النزعات هى التى أطلق عليها اسم طبيعتنا .
الى هذه النزعات الأولية اذن ينبغى أن نرد كل شئ . وهذا ميسور
لو أن الضروب الثلاثة من تربيّتنا كانت متباينة فحسب ، ولكن ما الحيلة
فيها حين تتعارض ؟ وحينما لا يكون المطلوب تربية شخص من أجل
ذاته بل تربيّته من أجل سواه ، فما احرى التوافق أن يكون عسيرا أو
ممتنعا . فيتحمّ أن نكافح في تربيّته . اما الطبيعة واما الميولات الاجتماعية .
فاما أن تجعله انسانا أو تجعله مواطنا ، اذ يمتنع أن تجعله هذا وذلك في
آن واحد ! .

ان كل مجتمع جزئى اذا كان ضيق الحدود شديد الترابط ينفصل عن
المجتمع الكبير . وكل وطنى فيه قسوة على الأجانب . فما هم الا بشر .
ولهذا فهم ليسوا فى نظره شيئا ^(١) .

وهذا العيب لا مناص منه ، بيد أنه غير ذى بال . فالمهم أن يكون المرء
رحيما برا بمن يعيش معهم . وكذلك كان الاسبرطيون . فالواحد منهم
خارج أسبرطه طموح بخيل أنانى . أما داخل أسوار بلده فهو نزيه عف
عادل . فأحذروا من أولئك الدوليين الذين ينادون بأضخم الواجبات
وأوسعها مدى فى كتبهم ، وهم ينكصون عن القيام بها فى محيطهم
الخاص . فمثل ذلك الفيلسوف يهب التتار . لا لشيء الا ليهرب من حب
مواطنيه .

ان الشخص الطبيعى يعيش لنفسه ، فهو الوحدة العددية ، وهو
الكل أيضا بالاطلاق . ولا يتعلق وجوده الا بنفسه وبنظرائه . أما المواطن

(١) ولذا تكون حروب الجمهوريات اقسى من حروب الملكيات . ولكن ان
تكن حروب الملوك أهون ، فسلمهم فطبع : فخير للمرء أن يكون عدو الملوك
من أن يكون من رعاياهم !

فهو وحدة كسرية . هو بسط مقامه الوطن . وقيمته ليست فى ذاته بل تتعلق بالكل ، ونسبته الى ذلك الكل الذى هو الهيئة الاجتماعية .

والمقولات الاجتماعية الصالحة هى التى تعرف كيف تحسن تغيير طبيعة الشخص ، فتجرده من وجوده المطلق لذاته ، كى تمنحه وجودا نسبيا يذيب ذاته فى الوحدة العامة ، بحيث لا يرى الفرد نفسه بعدئذ شيئا قائما ، بل جزءا من الكل ، ولا يحس الا باحساس الكل .

ان المواطن الرومانى لم يكن فلانا من الناس . وانما هو رومانى وكفى . بل انه كان يحب وطنه دون نفسه . وهذا ريجوليوس حين وقع فى الأسر اعتبر نفسه من قرطاجنه ، بما غدا من ممتلكات سادته . واذا اعتبر نفسه أجنيا عن روما أبى أن يجلس فى مقعده بمجلس الشيوخ الرومانى ، الا أن يأمره بذلك قرطاجى . انه استنكر أن يفكروا فى انقاذ حياته . وكان له ما أراد ، وعاد منتصرا ليلقى ميتة شنعاء ! ومثل هذا السلوك لا يشبه كثيرا فيما أظن سلوك الناس فى هذا الزمان .

وهذا بيداريتس يتقدم فى اسبرطه مرشحا نفسه لعضوية مجلس الثلاثمائة ، وحين يخذل يعود الى داره وهو يكاد يطير من فرط السرور ، لأنه اتفق لاسبرطه أن يكون بها ثلاثمائة رجل كلهم خير منه . وأحسب الرجل كان مخلصا فى سروره . وهكذا يكون المواطن !

واليكم امرأة اسبرطيه كان لها فى الجيش المحارب خمسة بنين . ووقفت تنتظر أنباء المعركة الدائرة ، وجاء من الميدان من يحمل أنباء فسألته ما وراءه وهى ترتجف ، فقال لها :

— بنوك الخمسة سقطوا صرعى !

فزجرته وسبته وصاحت به :

— سحقا لك من عبد ! أعن هذا سألتك ؟

فلما قال لها العبد :

— قد انتصرنا !

أسرعت الأم الى المعبد وقدمت القرابين شكرا للآلهة . وهكذا تكون
المواطنة ! .

ان من يريد أن يحتفظ فى النظام الاجتماعى بالأولية للعواطف الطبيعية
لا يفقه ما يريد . فمثل هذا الرجل سيظل على الدوام متناقضا مع ذاته ،
متأرجحا بين ميوله وواجباته ، فلا هو انسان ولا هو مواطن ، ولا خير فيه
لنفسه ولا خير فيه لسواه . بل يكون كأبناء زماننا ، فرنسيا أو انجليزيا أو
من أبناء الطبقة الوسطى . وما هذا بشئ ! .

ولكى يكون المرء شيئا ، ويكون مخلصا فى كيانه سليم الوحدة ،
ينبغى أن يطابق عمله قوله ، على بينة مما ينبغى أن يفعل ، فيقدم على فعله
فى حزم وثبات ومثابرة .

وانى لمشوق أن أرى هذا النابغة كى أتبين أهو انسان أم مواطن ، أو
كيف يتأتى له أن يكون الاثنين معا .

ومن هذه الأشياء التى تتعارض بالضرورة تنجم صورتان متناقضتان
من النظم ، أحدهما عامة مشتركة ، والأخرى فردية منزلية .

وان أردت أن تعرف كيف تكون التربية العامة ، اقرأ جمهورية
أفلاطون . فما هو بكتاب فى السياسة كما يتوهمه من يحكمون على
الكتب بعناوينها ، بل هو أجمل سفر فى التربية خرج من يد بشر .

ان الهيئة العامة لم يعد لها وجود . وليس من الممكن أن توجد ، لأنه
لم يعد للوطن وجود ، فلا يمكن إذن أن يوجد المواطنون . فينبغى أن تمحى
كلمة الوطن والمواطن من اللغات الحديثة . وعندى مبررات هذا الرأى ،
ولكنى لا أريد الادلاء بها هنا ، لأنها لا تتصل بالموضوع الذى نحن
بصدده .

وأنا لا أعتبر تلك المؤسسات المضحكة التى يسمونها كليات من الهيئات

العامة . وكذلك لا أحسب التربية الدنيوية تربية بمعنى الكلمة لأنها تهدف الى غايتين متناقضتين ، فيفوتها ادراكهما جميعا . ولا تفلح الا في أن تغرس الرياء في الناس ، فهم يظهرون دائما أنهم يعملون لسواهم ، في حين أنهم لا يعملون الا لأنفسهم . وتلك أمور معروفة للجميع ، فلا ضرر منها على أحد . وانما هي جهد ضائع .

ومن هذا التناقض يتولد الصراع الذي نحسه دائما في أنفسنا ، اذ نجدنا مسوقين في طريقين متعارضين بدافع من الطبيعة ودافع من الناس ، فتتقاسمنا هذه القوى المتباينة ، وتتبع من بينها طريقا مختلطا لا يؤدي بنا الى هذه الغاية أو تلك . وهكذا تتأرجح مغلوبين على أمرنا طيلة حياتنا ، الى أن نخدم تلك الحياة عاجزين عن الوصول الى وفاق مع ذواتنا ، وعاجزين عن اسداء الخير لأنفسنا وللناس على السواء .

أما التربية المنزلية ، أو تربية الطبيعة . فماذا يكون للناس امرؤ ربي لنفسه فحسب ؟ ولو انه أمكن جمع الهدف المزدوج في غاية واحدة ، بالقضاء على التناقض في نفس المرء ، لأزيل عائق ضخيم يحول دون سعادته .

وماذا ينبغي ان نصنع للحصول على ذلك الانسان الطبيعي النادر ؟ نستطيع الكثير بأن نحول دون عمل شيء في ذلك الصدد . ان الحركة ضد التيار يسيرة . فما علينا الا الاتجاه هنا تارة وهناك تارة أخرى . ولكن حين يكون التيار قويا وفي مرادنا أن نثبت في موضعنا ، فلا بد من القاء المراسي . والخطر عليك أيها الربان الشاب من فقدان مراسيك ، فتغرق سفينتك وأنت لا تدري .

ان الناس في الحالة الطبيعية سواسية . ومهمتهم المشتركة أن يكونوا رجالا . وأنا لا يعني أن يكون مصير تلميذ الانضمام الى الجيش أو الكنيسة أو الاشتغال بالقانون . فالطبيعة تندبه قبل كل شيء للحياة

الانسانية . والحياة هي المهنة التي أريد أن ألقنه اباه . وحين يتخرج من بين يدي لن يكون قاضيا أو جنديا أو قسيسا ، بل سيكون انسانا قبل كل شيء ، بكل ما ينبغي أن يكونه الانسان ، وسيعرف كيف يكونه على على الوجه الصحيح ومهما غيرت ظروف الأيام من وضعه ، فسيكون دائما في موضعه الحق .

ان دراستنا الحققة هي دراسة البيئة الانسانية . وبهذا تكون التربية الحققة بالممارسة أكثر مما هي بالتلقين . فالانسان يبدأ التعلم حين يبدأ الحياة . فتربيتنا تبدأ معنا ، ومعلمنا الأول هو حاضنتنا . وكان الأقدمون يعنون بالتربية التغذية ، ولئن قال قائلون ان القابلة تخرج الطفل الى النور فترضعه الحاضنة ويؤدبه المؤدب ويثقفه معلم المدرسة ، فهذا التفريق ساء استعماله ، وينبغي لخير الطفل أن يتولى قياده مرشد واحد .

لذا يجب أن نوسع أفقنا . ونستهدف في تلميذنا الانسان المجرد ، المعرض لجميع عوارض الحياة البشرية ، ولو أن الناس كانوا يولدون مرتبطين بأرض وطنهم ، ولو أن السنة كلها يستغرقها فصل واحد لا يتغير ، ولو أن حظ كل واحد من الحياة لا يعتريه التبدل مطلقا ، لكانت الطريقة السائدة في تربية الأطفال بحسب حال ذويهم طريقة صالحة من بعض نواحيها . لأن الطفل الذي يربى على أساس وضع معين لن يتزعزع عن ذلك الوضع فلا يتعرض لأكدار وضع سواه ، بيد أن حظوظ الناس لا تثبت على حال . وقرننا الحالي ذو روح قلقه تكثر التبدل بين جيل وجيل . فمن الخرق أن ينشأ طفل على أساس حالة ثابتة وظروف لا تتغير . فإذا اختلفت حاله قليلا أو هبط السلم درجة واحدة هلك لا محالة أو ضل . وليس المرادة أن نعلمه احتمال الآلام ، بل المراد أن نجعله يتمرس باحساسات الألم ! .

ان المرء ينبغي أن يصون طفله . وهذا لا يكفي . بل ينبغي أن نعلمه كيف

يصون نفسه حين يضحي رجلا ، وكيف يحتمل ضربات القدر وكيف يواجه البؤس والنعيم ، وكيف يعيش ان اقتضى الأمر في الزمهرير والقيظ .

وعبثا تحتاط حتى لا يهلك . فما من الموت مفر . ان واجبك أن تعلمه كيف يعيش لا كيف يتحاشى الموت . والحياة ليست نفسا يتردد بل هي نشاط ، واستخدام للجوارح والحواس والوظائف الحيوية ، من سائر عناصر كياننا . وليس أعظم الناس نصيبا من الحياة من سلخ فيها سنوات أطول ، بل من مارسها أكثر من سواه . وكم من امرئ آودعوه التراب في سن المائة وهو ميت منذ مولده . وكان خيرا له لو ضمه القبر في ميعة فتوته ، وقد قيض له أن يعيش حقا تلك السنوات القلائل .



مزاعم باطلة

حكمتنا في مجموعها مزاعم حقيرة . وكل مواضعنا ضروب من الخنوع أو الانحصار أو الضيق . فالإنسان المتمدين يولد ويعيش ويموت في رق العبودية . حين يوثقونه بقماط ، وحين يموت يسمرون عليه قابوتا . ومادام على وجه الدنيا ، فهو مكبل بشتى النظم .

ويقال ان القابلات يزعمن وهن يدلكن رؤوس الأطفال على اثر ولادتهم أنهن يصلحن من أشكالها . ويطلق منهن هذا الكلام الكائنما رؤوسنا قد أساء فاطر الفطرة تكوينها . فنلتبس لها التهذيب من خارج على أيدي القابلات ، ومن داخل على أيدي الفلاسفة ! .

ان الطفل حين يولد يكون بحاجة الى مد أطرافه وتحريكها ، كي يطرح عنه ماركبه من الانقباض والتجمع الطويل في أحشاء أمه ، فكيف نحول بينه وبين الحركة داخل القماط ؟ حتى رأسه لا نغفيه من ملبس . كأننا نخشى ألا يحس بغير ذلك أنه على وجه الدنيا . وهكذا تجد الأعضاء الداخلية للجسم الذي يتجه للنمو عوائق هائلة ضد الحركة التي تحتاج اليها .

ويبذل الطفل جهودا لا جدوى منها تستنفد قواه وتعطل نموه . فيكاد يندم على أنه ولد لأنه لا يرى فائدة جناها من ولادته .

ان التضيق على أطراف الطفل يعوق دورة الدم ويعوق النمو ويغير من تكوينه وبنيته . ويلاحظ انه حيث لا يبالغ الناس في هذه الاحتياطات يشبون أقوىاء ذوي فراهة وتناسق . أما البلاد التي تشد الأطفال في الأقمطة . فهي البلاد التي تغص بالحذب والعرج وما الى ذلك من العيوب

والعاهات . وخوفا من تشوه الجسم بالحركات الحرة ، يسارعون الى تشويبه فعلا بهذا الضغط . فكأننا نعيجز أطفالنا عن الحركة كي نحول بينهم وبين أذى محتمل من حركاتهم .

وهل يمكن أن يحتمل ضغط قاس كهذا من غير أن يؤثر في مزاج الطفل ؟ ان أول ما يحسه في الدنيا هو الألم . لأنه يجد عوائق لحركته التي يحتاج اليها . فهو أسوأ حالا من سجين مكبل بالأغلال ، فيشتد هياجه وصراخه .

أتقولون ان أول صوت يصدر عن الطفل هو البكاء ؟ لا ريب عندي في هذا . فانكم تكرهونه على ذلك بما تكبلونه به من قيود . وتنزلونه به من عذاب . فلا يجد شيئا لديه حرا الا صوته . فكيف لا يستخدمه ليحار بالشكوى ؟ انه ييكي من الأذى الذي تنالونه به . ولو أنكم منيتم بمثل ذلك لكنتم أسرع منه الى البكاء وأبرع !

ولا أدري من أين جاءت هذه العادة الخرفة ؟ فالأمهات يتنكرن لواجبهن الأول ويعزفن عن حضن أطفالهن ، فلا يكون مناص من اتخاذ الحواضن المأجورات ليكن أمهات لأطفال غرباء ، لا يجدن في طبيعتهن باعنا فطريا نحوهم . ومن هنا في الغالب نشأت فكرة القماط . فالطفل الحر يحتاج لرعاية مستمرة ، اما الطفل المكبل فلا يحتاج لرعاية ، ولا ضير على أحد أن ييكي كيف شاء له البكاء ! فما على الحاضنة من بكائه شيء ، مادام لا يهاض له ساق . وليشب بعد ذلك عليلا ما عاش ! وهكذا تصان أعضاؤه على حساب بنيته ! وهذا من خبث الحاضنات الأجيريات ومكرهن السييء .

تري هل تعلم الأمهات اللطيفات اللواتي تخلصن من أطفالهن فخلصن للهوهن في المدينة ، أى معاملة يلقونها في القرية وهم رهن أقمطتهم ؟ ان الحاضنة تعلق الطفل أحيانا من قماطه في مسمار ، وتمضى بعد ذلك

لشأنها ،والطفل كالمصلوب لا يجأر بالصراخ و لا يحير حراكا . فكل طفل على هذا الوضع يزرق وجهه ،ويتقعر صدره بما يمنع عنه من الدماء ، وتضعد الدماء الى وجهه ،ولا يجد أنفاسا تساعد على الصراخ . فيظنه من يراه ساكنا ،أنه سعيد مطمئن . ولست أدري كم ساعة يمكن أن يبقاها الطفل على هذا الحال قبل ان تزهرق روحه . ولكنى لا أظنها تطول كثيرا . وتلك كما أعتقد احدى منافع القماط الكبرى !

ويزعمون أن الاطفال الطلقاء ربما اتخذوا أوضاعا تضر بهم ،وبتناسق أعضائهم . وذلك وهم من أسخف ما يعيش في الأذهان ، لم يقم عليه من التجربة برهان .. فالطفل لا قوة عنده تكفى للاحاقه الأذى بنفسه من عنف حركاته . وان اتخذ وضعاً سيئاً ،نبهه الألم الى ذلك فارتدعته . لم يخطر أن نضع صغار الكلاب والقطط في الاقمطة ،فهل أصابها من ذلك تشويه ؟ربما قيل أن الاطفال أثقل جثة ،ولكنهم كذلك أضعف من صغار الحيوانات . فمن أين لهم البأس الشديد للحركة المعطبة ؟ انهم لو تركوا على ظهورهم لما اتوا على هذا الوضع كالسلاحفة لعجزهم عن التقاب على وجوههم .

وسيدات المجتمع يتخلين غالبا عن واجبهن الأساسى ، وهو أرضاع أطفالهن بأنفسهن . وواجبهن فى الأرضاع ليس موضع شك ،ولكن المسألة هل يستوفى عند الطفل أن ترضعه أمه وأن ترضعه سواها . وهى مسألة يفصل فيها الاطباء ،بيد أنى أسلم بما يوافق أهواء النساء فيها ،وأعتقد أنه خير للطفل أن يرضع لبن أم صحيحة البنية ،من أن يرضع لبن أم بدلة ، اذا فرض أن هناك ما يخشى أن يلحقه منها أدهى مما ورثه من دماءها .

ولكن هل ينبغى أن ننظر الى المسألة من جانبها الجسدى فحسب ؟

وهل قصارى حاجة الطفل الى أمه أنها ثدى ؟ ان امرأة غيرها ،أو دابة، قد تمنحه اللبن الذى تضمنه به عليه ، أما حنان الأم فلا يستعاض عنه. والمرأة التى تمنح ابن امرأة غيرها اللبن الذى تحرم منه طفلها أم سيئة . فكيف يمكن أن تكون مرضعا صالحة ؟

انها قد تغدو مرضعا صالحة بمرور الوقت ،حين تحل العادة فيها محل الطبع ،ويتعرض الطفل للهلاك مائة مرة الى أن تشعر مرضعته نحوه بحنان الأمومة .

وهناك ضرر كبير ينشأ عن هذه المزية . فقد يحب الطفل مرضعته أكثر مما يحب أمه . ويحس أن ما يبيده لها من حنان منحة منه . أما تعلقه الطبيعى فيكون بتلك التى وجد عندها رعاية الأم . وكم فى هذا من ألم للامهات ...

ويحاولون وضع حد لهذا الضرر بغرس الاحتقار للمرضعات فى قلوب الأطفال ومعاملتهم معاملة الخادmates . وعندما تنتهى مهمتهم ،يؤخذ منهم الطفل ،أو تطرد المرضع ،وتمنع من رؤية الطفل بما تسام من سوء الاستقبال . وما هى الا سنوات قلائل حتى يكون قد نسى كل ما كان من أمرها .

والأم التى تفعل هذا تربي ابنها على جحود النعمة ،واحتقار من منحته الحياة يوما ما ،كما احتقر من أرضعته ثديها ...

ان لهذه المسألة أهمية أكثر مما يظن . فان أردت أن يلتزم كل انسان بواجباته الأولى ،فابدأ بالأمهات . وستعجب للتغير الذى ينجم عن ذلك . فهذا الحرمان من لبن الأم هو الأصل الذى نبعت منه جميع الشرور . اذ خمدت فى القلوب جذوة الفطرة ،وقلت فى البيوت نسمة الحيوية . ومنظر الرضعاء لم يعد يجتذب الأزواج ، فلا آباء ولا أمهات ولا أطفال ولا اخوة ولا أخوات منذ انحل رباط الأسرة . اذ كيف يتحابون وهم

لا يعرفون بعضهم بعضا لقلة الإقامة فى البيت ؟ فحيثما يفتقر الناس الى البهجة فى البيوت يذهبون لالتماسها فى أماكن سواها .

أما اذا أقبلت الأمهات على ارضاع الأطفال ، فما أحرى الأخلاق ان تصلح من تلقاء نفسها ، وتتقد العواطف الطبيعية فى القلوب ، ويزداد السكان فى الدولة . فحاذية الحياة اليتية هى أفضل ترياق للأخلاق السيئة ، وتسمى ضجة الأطفال التى يضيق بها البعض محبة ، ويزداد اعزاز الآباء والأمهات بمتانة الرباط الزوجى بينهم . ومتى ارتدت النساء أمهات ارتد الرجال سريعا وآباء وأزواجا .

واذا لم تكن هناك أم ، فليس هناك طفل . فالواجبات بينهما متبادلة . وحيث تكون الاساءة من جانب يكون الاهمال من الجانب الآخر . فالطفل يجب أن يحب أمه قبل أن يعلم ان هذا واجب . وما لم يجد نداء الدم تأييدا بالتعود والرعاية ، سرعان ما يخفت فى السنوات الأولى ، ويموت القلب قبل أن يولد . وهكذا نجد أنفسنا منذ المراحل الأولى وقد خرجنا على الطبيعة .

وهناك أمهات يبالغن فى القيام بواجباتهن ، فيخرجن عن الطبيعة ولكن من الناحية المقابلة للأمهات المهملات . فالأم من هذا الطراز تتخذ من طفلها معبودا تنمى فيه الضعف كى تخفيه عنه . وتنشد اعفائه من نواميس الطبيعة لتجنبه الألم ، وهى لاتدرى أنها بتلك الشفقة تهيل على رأسه النكبات . اذ يظل ضعيفا ويشب ضعيفا . فهن يغرسن ابناءهن فى الرخاوة بذلك التدليل فيحكمن عليهم بالعذاب المستمر حين يواجهون الحياة من غير جلد على المقاومة .

راقبوا الطبيعة وانظروا كيف تبين لكم السبيل . فانها تعمل على تمريس الأطفال بالأحداث والأشياء ، وتعلمهم منذ البداية كيف يكون الألم .

فالأَسنان لا تنبت لهم الا بالحمى، والسعال الطويل يكاد يخنقهم ،
والديدان تعذبهم ، والخمائر الطفيلية تقسو عليهم وتعرضهم لكثير من
الأخطار . ويكاد يكون عهد الطفولة الأول مرضا وخطرا متصلين .
ونصف الأطفال الذين يولدون يهلكون قبل السنة الثامنة . ولكن متى
مرت المحنة يكون الطفل قد اكتسب مناعة .

هذه هى سنة الطبيعة . فلماذا نخرج عليها ؟ ألا ترون أنكم اذ تفكرون
فى تصحيحها تقوضون عملها ؟ ان التجربة تدل على أن الأطفال المرفهين
عرضة للموت أكثر من غيرهم . فمرسوا أطفالكم بالمتاعب التى سيكون
من إلحتم عليهم احتمالها يوما ما . وقووا أجسامهم بالتعرض لاختلافات
الفصول والأجواء والعناصر والجوع والعطش والتعب . وثقوا أن الطفل
أكثر احتمالا للتغيرات من الرجل . فمفاصله أطوع وأشد مرونة . اما
الرجل فليس كذلك . فمن الممكن اذن تقوية الطفل من غير أن تتعرض
صحته أو حياته للخطر . وحتى ان وجد بعض الخطر فليس من الخير أن
يردنا عما اعترمناه . لأنه خطر لا مناص منه ما عاش الانسان .

ان الطفل تزداد قيمته بتقدمه فى العمر . اذ يضيف الى قيمة شخصه
قيمة الرعاية التى بذلت له . فمن الخير أن نسلحه ضد أخطار الشباب التى
يتعرض لها ، وحياته أئمن وأجل ، بتعريضه لمخاطر يفيد منها قوة وهو فى
سن صغيرة قيمة حياته فيها أقل . فاذا كانت قيمة الحياة تزداد بالتقدم فى
العمر حتى السن التى يرجى فيها النفع ، فأى حماقة فى تجنيبه بعض الآلام
فى الطفولة كى يضاعف له الألم فى سن النضوج ! .

لقد كتب على الانسان أن يتعذب فى جميع الأزمان . وسعيد من لم
يعرف فى طفولته الا آلام الجسد ، فما أهونها بجانب آلام أخرى ، فالآلام
الجسد قلما تدفعنا للتخلّى عن الحياة . وانما الذى يدفعنا الى اليأس هو
عذاب الروح . فأعظم الآلام حقا هو الذى يأتينا من قبل نفوسنا .

ان الطفل يبكى حين يولد . ويقضى طفولته الأولى فى البكاء . ونهزه
أحيانا أو ترضاه كى يسكت . أو نتوعده أو نضربه كى يهدأ . أو نفعل
ما يرضيه أو نطلب منه ما يرضينا ، أو نخضع لنزواته ، أو نخضعه لنزواتنا .
ولا نتخذ لنا موقفا وسطا . فهو اما آمر واما مأمور . وبذا تكون أولى
المعانى فى نفسه معنى التحكم أو معنى الاستعباد . فهو قبل أن يتعلم
الكلام يأمر . وقبل أن يتعلم العمل يطيع . وأحيانا نعاقبه قبل أن يعرف
فيما أخطأ ، بل وقبل أن يخطئ .

وهكذا نبذر فى قلبه الصغير منذ البداية بذور الشر ، ثم نملأ الدنيا
بالشكوى من شره ! .



واجب الأب

ويقضى الطفل ست سنوات أو سبعا على هذه الوتيرة بين أيدي النساء، فريسة نزوتهن ونزوته، وبعد أن يعلمنه علما لما، أن هو الا حشو ذاكرته بكلمات لا يفقه لها معنى، أو بأشياء ليس فيها له تقع، وبعد أن يخنقن فيه الفطرة ببول مستحدثة فيه، يلقين بهذا المخلوق المصطنع بين يدي مؤدب، يتم فيه انماء بدور الاصطناع التي يجدها ثابتة، فيعلمه كل شيء، فيما عدا معرفته لنفسه، وحسن استخدامه لمواهبه، وحسن الافادة من الحياة وتحصيل السعادة .

فلا عجب أن يشب هذا الطفل طاغية وعبدا في آن واحد، حاويا للعلم ومجردا من الفهم معا، واهن الجسم والروح على السواء، ومتى ألقى به في خضم الدنيا كشفت عن سوائته، عن خوره وغروره ورذائله، فهو عنوان مقيت لخصاسة البشرية ومسئولها. ولكن حاشا! فما هذا هو البشر السوي . ان هذا الا بشر صنعته جهالتنا، وما هكذا تسوى الفطرة البشر .

أفتريدون أن يحتفظ الطفل بصورته الفطرية؟ احفظوها عليه اذن منذ قدومه الى هذه الدنيا . متى ولد، الزميه أيتها الأم والزمه أيها الأب ولا تفارقيه مطلقا، الى أن يستوى رجلا ! ولن يكون فلاحه الا من هذا الطريق .

وكما تكون الموضع أم الطفل الحقيقية، يكون المؤدب أباه . فيجب أن يكون توافق بين قيام الموضع والمؤدب بمهمتهما، سواء في الترتيب أو المنهج، حين ينتقل الطفل من يدها الى يده . وأعتقد أن الطفل تكون تربيته

أفضل بمراحل بيد أقل الأباء تسامحا وثقافة ، مما هي بيد أبرع أساتذة العالمين .لأن الأهتمام أو الغيرة قد يغنى عن البراعة ، مما لا تغنيه البراعة عن الأهتمام والغيرة .

ولكنها الشواغل ،والمناصب ،والأعباء ،وواجبات ... آه ! أهى الواجبات ؟ ... لاشك أن أهونها شأنا واجب الأب نحو ولده !.

ولاشك أننا حين نطالع فى سير بلوترك كيف كان أغسطس وهو امبراطور الدنيا وعاهلها الأعظم ، يقوم على تعليم أحفاده بنفسه الكتابة والقراءة والسباحة ومبادئ العلوم ، وكيف كانوا يحفون بعرشه على الدوام ، لا نملك أنفسنا من ضحك الاشفاق من صغار الأقرام من أهل هذا الزمان وهم يظنون ما هم فيه من صغائر عذرا كافيا لهم فى اهان تربية بنيتهم بأنفسهم .

ولا عجب أن نرى رجلا ترفعت زوجته عن ارضاع ثمرة اقترانه بها ، وقد ترفع عن تربيته بنفسه .مع أنه ما من صورة تحرك القلوب وتأسرها كصورة الاسرة .ولكنها صورة ان تقص منها عنصر واحد ،فسدت كلها ولحقها التشويه .ومتى قعدت صحة المرأة بها عن ارضاع ابنها ، فلا بد أن تحول شواغل الأب دون قيامه بواجب المربى . وهكذا يتفرق الأولاد بين المراضع ،والأديرة ،والمدارس ،يتلمسون فى غير المكان الطبيعى حيتهم الطبيعى للبيت الأبوى ،أو بعارة أصح ،يتعودون ألا يشعروا بارتباطهم بأي شىء ... ولا يكاد الاخوة والأخوات يعرف بعضهم بعضا ... وهذا لا يمنع متى اجتمعوا فى حفل أن يتلطف بعضهم الى بعض فى تهذيب كامل ،لأنهم فى الواقع غرباء ، يسود فيما بينهم أدب الغرباء ...

ومتى ضاعت الألفة بين الوالدين ، امتنع على الأسرة أن تتيح للإبناء عذوبة الحياة وحلاوتها ، فلا مناص من أن يلجأ المحرومون الى المبادل

والرذائل ليستعيضوا بلذاذتها عن تلك الحلاوة المفقودة . وكيف بالله تغيب الصلة بين هذا وذاك الا عن وجدان أغبى الأغبياء ؟ .

حين ينجب الأب أبناءه وينفق عليهم ليغذوهم ، فما يقوم بهذا الا بثلث واجبه نحوهم . لأنه مسئول أن يقدم لنوعه رجالا ، وأن يقدم لمجتمعه أعضاء اجتماعيين فيه ، وأن يقدم لدولته مواطنين . وأيما رجل قادر على الوفاء بهذا الدين الثلاثي وتقاعس عنه ، فهو مذنب ومقصر ، ولعله أن يكون أمعن في التقصير حين يفنى ببعض منه دون سائر . وأيما رجل عجز عن النهوض بأعباء الأبوة حق النهوض ، لا حق له في أن يغدو أبا . فما من خصاصة ، أو عمل ، أو جاه بشرى يمكن أن تعفيه من واجب اعادة بنيه وتنشئتهم بنفسه .

قد لا تصدقني أيها القارئ ، ولكني نذير بين يدي ندم شديد لكل من به نسمة حياة ثم تخلى عن تلك الواجبات المقدسة ^(١) . ليذرفن الدمع السخين على ما فرط فيه ، ولن يجد له من حسراته سلوانا . ولكن ماذا يصنع الثرى ، رب الأسرة المشغول بأعماله الكثيرة ، حين تضطره الظروف — في اعتقاده — الى التخلي عن بنيه ؟ .

انه يستأجر عندئذ رجلا آخر ، ليؤدي عنه واجباته الابوية . أفتظن أنك مستطيع أن تستأجر لبيك أبا بالمال . لعمرى ما استأجرت لهم الا خادما حين توهمت أنك أنتيتهم بأستاذ ، وليجعلن من تلميذه نظيرا له في شمائل الخدام ! .

(١) ياله من حكم صارم ، يزداد مضمونه ايلاما حين نتذكر ما كتبه روسو عن نفسه في اعترافاته ، من ايداعه بنيه ملاجئ اللقطاء !

تخير المؤدب وتلميذ

ينبغي حين يتخير الأب لابنه مؤدبا يقوم عنه بتنشئة ولده ، ان يتحرى في ذلك المؤدب تلك المزايا التى تتيح له النهوض حق النهوض بتلك التبعة الهائلة ،فى نزاهة قصد وعلو همة وكفاية قلب وعقل^(١) ...

وليان تلك الصفات ،وطريقة التأديب والتربية ،رأيت أن أتخذ لى تلميذا وهما ، وأن أزعم لنفسى من السن ،ومن الصحة ،ومن المعرفة ،وجميع المزايا الأخرى التى يقتضيها القيام على تربيته ،وأرشاده وتديبر أمره منذ مولده الى أن يستوى رجلا تام الرجولة ،لا حاجة به الى مرشد له غير ذاته .

وهذا المنهج يبدو مجديا مع مؤلف لا يأمن جانب الزلل ، حتى لا يضل فى آرائه وأحلامه . وسيكون واضحا للمؤلف وللقارئ معا هل يتمشى فى مذهبه أطوار الطفولة النامية والاتجاه الطبيعى للقلب البشرى أم لا .

وهاكم ما حاولت أن أقوم به فى هذا السبيل ، على ما فيه من صعاب وعراقيل . وحتى لا يتضخم الكتاب فى غير طائل ، اكتفيت بوضع المبادئ التى لا يمارى كل انسان فى صدقها وحقيقتها . أما الأسس التى قد تحتاج الى برهان ، فقد طبقتها تفصيلا على تلميذى اميل حتى يتضح سبيل العمل بها من غشون تلك التفاصيل . أو هذا على الأقل ما أخذت نفسى به من منهج ، وللقارئ الكلمة بعد هذا فى مدى توفيقى .

(١) وهى مزايا لم يكن روسو حائزا لها بدليل من اعترافاته . فمن لم يصلح أبا لبنيه وتخلّى عنهم للملاجيء ، لا يصلح أبا لأبناء سواه من الناس

ولئن كنت قد أقللت من الكلام عن اميل فيما سبق من صفحات ، فما كان ذلك الا لأن مبادئ الأولية عن التربية على مناقضتها للمبادئ السائدة ، تعتبر من قبيل البديهيات التي يتعذر على أى عاقل أن يرفض التسليم بها . ولكن كلما أوغلت فى الكتابة ، سيتبين أن تلميذى الذى يجد توجيهها مخالفا لتوجيه أبنائكم ، ليس طفلا عاديا ، ولا بد له من نظام خاص به . وبذلك يكثر ظهوره على المسرح ، ولا أفارقه البتة الى أن يستغنى عنه كل الغناء ..

وسوف لا أتحدث هنا عن صفات المربي الفاضل ، فسأفترض فى نفسى جميع تلك المزايا ، ومن يطالع هذا الكتاب سيجد أنى سخوت على نفسى فى هذه المواهب أيها سخاء .

وأكتفى بأن أشير هنا الى أمر مخالف لما درج عليه الناس ، وهو أن المربي الذى يتعهد طفلا ينبغى أن يكون شابا ، بل وأشد ما يكون الرجل الحكيم شابا ، ذلك أنى أريد منه أن يكون هو نفسه طفلا ، لو أن الى ذلك من سبيل ، وأن يكون فى وسعه مصاحبة تلميذه ، وكسب ثقته بمشاركة فى لهوه ومسراته . فليس بين الطفولة والسن الناضجة من صلة مشتركة يمكن أن تكون أساسا لرباط وثيق ، على ما بين العمرين من بون بعيد . فقد يعمد الأطفال أحيانا للتزلف الى المسنين ، ولكنهم لا يحبونهم بمعنى الكلمة مطلقا .

وقد يقال ان المربي ينبغى أن تكون له خبرة سابقة بالتربية ، مرة واحدة على الأقل . وهذا كثير . فالشخص الواحد لا يستطيع أن يقوم الا بتربية واحدة فى حياته . واذا قيل انه لابد لنجاحه فى التربية أن يكون توليه التربية تاليا لقيامه بها مرة أولى على سبيل التمرين ، فبأى حق نعهد اليه بالتربية فى المرة الأولى ونحن نعلم سلفا أنه لم يصلح لها بعد ؟

أجل ان المران أو الخبرة معوان على الاتقان . ولكن ذلك غير مستطاع ،

لأن من قام بذلك العبء على أتم وجه ،وبغاية الهمة والأخلاص ،وعانى متاعبه الجمة ، لن يقدم على تلك الهمة بعد ذلك . واما ان كان لم ينصب فى المرة الأولى لأنه لم يقيم بها على ما يرام ،فتلك سابقة سيئة لا تزكيه لتولى تلك المهمة ..

وما أبعد الشقة بين من يتعهد فتى أربع سنوات ،ومن يرشده ويتولاه خمسة عشر عاما . فانكم تسلمون الى المربى أولادكم بعد أن تكونوا فعلا ،أما أنا فأريد للطفل أن يكون له مرب مستعد له من قبل أن يولد!.

ان مربيكم يستطيع أن يستبدل تلميذا بتلميذ كل بضع سنوات ، اما المربى الذى أعنيه فلن يتسع عمره الا لتلميذ واحد . فأنا لا أعرف تباينا فى مراحل التعليم والتأديب ،لأنى لا أعرف الا علما واحدا ينبغى أن يلقيه الأطفال ،وذلك هو علم واجبات الانسان. وانه لعلم واحد لا يقبل القسمة ولا يمكن أن يتجزأ . ولهذا أفضل أن أسمى المعلم أو المؤدب مربيا ، لأنه سيكون معنيا بارشاده أكثر من عنايته بتلقينه العلم ،ولا ينبغى له أن يقدم اليه الوصايا والنواهي ،بل ينبغى أن يمهده له ويوجهه الى الكشف عنها بنفسه .

ولئن كان من الواجب اختيار المربى بكل هذا التدقيق ،فمن العدل اذن أن تترك للمربى اختيار تلميذه ،ولاسيما ونحن بصدد اختيار قدوة يحتذى . وهذا الاختيار لا ينبغى أن يقع بناء على نبوغ التلميذ أو خلقه فنحن لن نعرف شيئا من أحواله هذه الا فى نهاية المرحلة التربوية ، فى حين أننا سنختاره قبل أن يولد .

ولما كنا فى غير حاجة الى تربية التلاميذ الا العاديين جدا منهم .فاذا أتيج لى أن أختار ،فسوف أختار طفلا متوسط الذكاء . وسأفترض أن تلميذى اميل هكذا . فتعليم العاديين هو الذى يصلح مثلا يحتذى فى

تعليم نظرائهم . اما من عدأهم فقادرون على تربية أنفسهم مهما يكن من شىء .

والمواطن ليس غفلا من الأهمية بالنسبة لثقافة الناس . ذلك أنهم لا يكونون خير ما فى وسعهم أن يصيروا اليه الا فى الأجواء المعتدلة . اما فى الأجواء المتطرفة فالتأثير المناخى على التعليم بين السوء . بيد أن المرء لا يغرس فى تربة اقليم كى يظل مقيما به لا يغادره كالشجرة . وما دام الانسان عرضة للتنقل بين الأقاليم ، ينبغى ألا ننسى أن من يرحل من طرف الى الطرف المقابل ، مضطر أن يقطع ضعف المسافة التى يقطعها من يرحل الى غاية عينها من منتصف البعد بين الطرفين .

ولهذا نجد أن ابن الاقليم المعتدل حين يرحل الى الأقاليم المتطرفة الأجواء ، يتمتع بمزية واضحة . لأنه وان تعرض للظروف التى يتعرض لها القادم من الجو المضاد ، الا أنه لا يتكلف من الأثر الا نصفه ، بسبب تكوينه الأصلى فى بيئة وسطى .

ويبدو لى أيضا أن تكوين المخ فى الاقاليم المتطرفة أقل كمالا منه فى الأقاليم المعتدلة . فالزواج والأسكيمو أقل توقدا من الأوروبيين . فاذا فرضنا انى أردت لتلميذى أن يكون صالحا لسكنى الأرض كافة ، فانى أختاره من بين أهالى المنطقة المعتدلة ، من فرنسا مثلا ، فذلك أدنى لغرض من أى مكان سواه .

ونلاحظ أن الناس فى الشمال يستهلكون الكثير ، وأرضهم شحيحة . وان أهل الجنوب يستهلكون القليل ، وأرضهم سخية . ومن هنا يتولد فرق جديد ، يجعل أهالى البقعة الأولى ذوى نشاط وجد فى العمل ، ويجعل أهل البقعة الأخرى ذوى تأمل . ثم ان المجتمع يحدث فروقا أخرى ، فيقدم الينا فى كل موضع صورة للفروق بين الفقراء والأغنياء . فالفقراء يسكنون حيث الأرض الشحيحة ، والأغنياء يسكنون الأرض الخصبة .

وليس الفقير بحاجة الى تربية . فظروف طبقتة تفرض عليه تربيتها فرضا . ولن يتيسر له سواها . وعلى العكس من ذلك ، نجد التربية التي تفرضها على الثرى طبقتة الاجتماعية ، تربية لا تلائمه أصلا ، لا من حيث هو في ذاته ، ولا من حيث مصلحة المجتمع (١) .

ومهما يكن من شيء ، فالتربية الطبيعية ينبغي أن تعد الرجل كي يكون لائقا للحياة في جميع الظروف البشرية . فما يستقيم أن نربي الفقير تربية من سيعيش في الثراء ، ولا أن نربي الثرى تربية من سيعيش في الفاقة . ولكن تربية الفقير ليصلح لحياة اليسار قد تكون أحق من تربية الثرى ليصلح لحياة الفاقة ، لأننا اذا نظرنا الى الأحصاء ، وجدنا من يثرون بعد فقر أقل عددا بكثير ممن يفلسون بعد غنى .

وما دام الفقير يربي نفسه للرجولة التي تليق بطبقتة من تلقاء نفسه ، فمن الأوفق إذن أن نختار تلميذى من الثراء ، لنخلق رجلا لو فقد عناية المربي لما صار ذلك من تلقاء نفسه .

ولا يسوؤنى أن يكون اميل ذا نسب وحسب ، فانى بذلك أكون قد أنقذت من برائن الأباطيل الموروثة فريسة بريئة ! .

وليكن اميل يتيما . اذ ليس يعينى أن يكون له أب وأم . وبما انى سأتحمل جميع أعبائهما وواجباتهما . فسأرث اذن جميع حقوقهما . انه طبعا يجب أن يكرم أباه وأمه ، ولكن لا ينبغي أن تكون طاعته لأحد سوى من الناس . فهذا هو شرطى الأول لقبول رعايته ، أو لعله شرطى الأوحد .

وينبغى أن أضيف الى ذلك شرطا آخر ، ليس في الحقيقة الا نتيجة أو تذيلا للشرط السابق . وهذا الشرط هو ألا يفرق بيننا الا برضانا .

(١) لقد نسخت فكرة التعليم العام في الدول الحديثة هذه النظرة الطبيعية الى التربية .

وهو شرط جوهري ،لأننى أريد أن ينظر كل من التلميذ والمربي الى الآخر على أنهما لا يتفرقان ولا يتجزآن .وأن مصير عمريهما ونظامهما شيء واحد مشترك بينهما .فانهما متى توسما على البعد فراقهما .أو استشفا الوقت الذى يمسى فيه كل منهما غريبا عن صاحبه ،فستقع الغربة والانفصال بينهما توا .فالألقة والتباعد كلاهما احساس .ولا تصلح الألفة الا على نية التخليد .أما اذا دخل الفراق فى الحساب فسيأخذ كل منهما فى وضع خطته الخاصة للمستقبل .وسيكون وقت اجتماعهما معا غير كامل الصفاء .

ان التلميذ لا ينظر الى الأستاذ الا على انه آية تشي بطقولته . والأستاذ لا ينظر الى التلميذ الا على اعتبار أنه عبء ثقيل يتحرق شوقا الى الخلاص منه .فكان كلا منهما يتلهف على اللحظة التى يتخلص فيها من صاحبه .وما دام الرباط بينهما غير حقيقى ،فلا بد أن يبدى الأستاذ تقصيرا فى الهمة .وأن يبدى التلميذ تقصيرا فى الاتقياد .

اما اذا نظر كل منهما الى الآخر وفى يقينه أنهما سيمضيان عمريهما معا ،فسيكون من المهم لديهما أن يتحابا .وهذا وحده سيجعل كلا منهما عزيزا على الآخر .ولا يتضرع التلميذ خجلا من الاتقياد فى طقولته للصديق الذى سيحظى به فى كبره أو يفاعته . والمربي سيهتم بتعهد التلميذ ولا يضمن بخدمات سوف يجنى هو ثمراتها حين يكبر تلميذه . فكل ما يمنحه لتلميذه بمثابة مال يوظفه ليحضى ربحه ويأكل من غلته فى أواخر أيامه أو شيخوخته .

وينفرض هذا الكتاب مقدما أن الولادة كانت يسيرة ، وأن الطفل حسن التكوين سليم فى بنيته ذو قوة .فالوالد لا يملك اختيار ولده ، وليس له أن يفاضل بين أعضاء الأسرة التى افاءها الله عليه . فأبناءؤه جميعا سواسية لديه ،ينبغى أن يعدل بينهم فى الرعاية وفى شمولهم بره

وحناؤه ،لا فرق عنده بين وسيم وقبيء ،وبين هزيل وشديد .فالأزواج عقد تدخل الطبيعة طرفا فيه كالزوجين تماما .وكل طفل من أطفال الرجل ودیعة فی یده یؤدی عنها حسابا الى الید التي منحتہ اياها ، وهی ید الطبيعة الخالقة .

أما ذلك الرجل الذى يفرض على نفسه واجبا لم تلقه على عاتقه الطبيعة ،فينبغى أن يثبت مقدما من الوسائل التي سيتمكن عن طريقها من النهوض بتلك التبعة .والا فانه يضع نفسه فى موضع المقصر ، حتى فيما لم يكن فى استطاعته أن يعمل فيه شيئا .

ان الذى يقبل رعاية تلميذ ذى عاهة أو هزيل انما فى الواقع يغير مهنته ،فبعد أن كان مربيا یمسى ممرضا .وهو الخاسر بالعناية بحياة لا جدوى منها ، يخسر على الأقل الوقت الذى ينفقه فى زيادة قيمة حياة مقضى عليها .ويعرض نفسه لأن يرى أما منكودة تقرعه ذات يوم وتحمله ذنب موت ابن كان ينبغى أن يصون لها حياته طويلا .

وما كنت لأتعهد بتلميذ عليل واه ، حتى وان عمر الى سن الثمانين . فما بى حاجة مطلقا الى تلميذ لا منفعة منه على الدوام لنفسه ولا لغيره ، وكل همه منصرف الى الاحتياط لحفظ حياته ،لأن جسمه يعوق دائما بل وينقض تربية روحه . فما جدوى أن أعقد عليه عنايتى هباء ، اللهم الا أن أضاعف الخسارة التي منى بها المجتمع ، بأن أجعل ذلك المجتمع يخسر رجلين لا واحدا ، فتضيع عليه حياة المربي والتلميذ معا ، كما تضيع على المجتمع جهود زارع يقضى حياته فى زراعة صخرة صلدة ، فلا ربح المجتمع الصخرة ولا ربح الزارع ؟ .

ولا مانع عندى أن يتكفل سواى برعاية هذا المريض ،بل انى أعترف له بالرحمة .ولكن مواهبى أنا لم تخلق لتهدر فى خدمة من لا يليق بها . فلا أستطيع مطلقا أن أعلم فن الحياة لامرئ لا يفكر الا فى تجنب الموت !.

يجب أن يكون الجسم قويا كى يحسن طاعة الروح .فإن الخادم الصالح يجب أن يكون متين البنية ،وانى أعلم أن التطرف يهيج الشهوات . وانه ينهك الجسم على طول المدى . وان التقشف والصيام يؤديان الى النتيجة بعينها ولكن من الطريق المضاد لطريق الشهوات . وكلما كان الجسم ضعيفا اشتدت سيطرته . وكلما كان قويا عظمت طاعته . والشهوات الحسية كلها قائمة فى أجسام المخنثين . ويزدادون هياجا بعجزهم عن ارضاء تلك الشهوات .

الجسم الهزيل يضعف الروح .ومن هنا يأتى سلطان الطب الذى أراه أشد اىذاء للناس من جميع الأمراض التى يزعم شفاءها . وأنا شخصا لا أعرف من أى مرض يشفىنا الأطباء . ولكنى أعرف جيدا أنهم يصيبننا بأمراض جد وبيلة ،منها الجبن والسذاجة والغفلة والفرع من الموت .فلئن صح أنهم يشفون الجسم فانهم اذن يقتلون الشجاعة والاقدام . وما خير أن يسيروا جثا كانت هامة ؟ انما نحن بحاجة الى رجال ،ولست أرى الرجال يخرجون من أيدي الأطباء ! .

لقد أصبح الطب موجة شائعة بيننا . وحق له أن يكون كذلك .فهو ملهاة أهل الكسل والبطالة الذين لا يعرفون ماذا يفعلون بأوقاتهم ، فينفقونها فى حفظ أجسامهم وصيانتها .ولو أن هؤلاء ابتلاهم القدر فولدوا خالدين لا ينالهم الموت ،لكانوا أشقى أهل الأرض .فان حياتهم حين لا يخشون عليها فقد لن تكون فى نظرهم ذات قيمة .ولهذا يحتاج هؤلاء الناس الى الأطباء كى يتوعدهم ويهددهم بالموت ،ويمنحهم فى كل يوم اللذة الوحيدة التى يطربون لها ، وهى لذة الشعور بأنهم لن يموتوا فى ذلك اليوم .

وليس فى نيتى أن أطيل الكلام هنا عن بطلان الطب وزيفه .وانما مرادى أن أنظر اليه من الجانب الأدبى والأخلاقى .ولا أستطيع أن أغالب

اعتقادی بأن الناس يرون في أساليب الطب ما يرونه من السفسطة في مسألة البحث عن الحقيقة. فهم يزعمون دائما أن المريض يشفى بالعلاج الطبى ، كما يزعمون أننا نجد الحقيقة بالبحث عنها ، ولا يقدرّون أنهم ينبغي أن يوازنوا بين فضل الطبيب فى شفاء مريض عاجله ، وبين وفاة مائة مريض قتلهم بطبه . كما ينبغي أن يوازنوا بين منفعة الحقيقة الواحدة التى يكتشفونها ، وبين باطل الاخطاء الكثيرة التى تجرى فى الوقت عينه .

ان العلم الذى يتقف والطب الذى يعالج شيئان جميلان بغير شك . ولكن العلم الذى يضل ، والطب الذى يقتل ، شيئان قبيحان بغير شك كذلك . فينبغى أن تتعلم التمييز بين الطيب والخبيث . وهذه هى عقدة المسألة . فلو عرفنا كيف تتجاهل الحقيقة ، لما أمكن أن نغدو ضحية الأكاذيب . ولو أننا عرفنا كيف نأبى الشفاء الذى يعارض الطبيعة ، لما أمكن أن نموت بيد الطبيب . وانى أوصى بهذين الأمرين الحكيمين ، فان جدواهما كبيرة اذا اتبعناهما . وان كنت لا أمارى فى أن الطب قد يكون نافعا لبعض الناس . ولكنى أعتقد أنه ضار بالنوع البشرى بصفة عامة .

وقد يقال لى ما قيل مرارا ، ان الخطأ من الطبيب ، أما الطب فى ذاته فلا عيب فيه . مرحى اذن ! مرحبا بالطب ان أتى اذن بغير الطبيب ! فانهما أن جاءا معا فالخوف أكبر ، الخوف من أخطاء الفنان ، أكثر بكثير من الأمل المعقود على لودعية الفن ! .

ان هذا الفن الخادع الذى جعل للأمراض النفوس أكثر مما جعل للأمراض الأجسام ، لا خير فيه لهذه ولا لتلك . فهو لا يشفينا من أمراضنا بقدر ما يشيع فى نفوسنا الذعر . ولا يرغم الموت على التراجع بقدر ما يجعله محسوسا قبل الأوان . ويبلى الحياة بدلا من أن يطيلها . وحتى حين يطيلها ، فانما يكون ذلك على حساب النوع . اذ أنه يفصلنا عن المجتمع

بعنايته التى يفرضها علينا . ويمنعنا من القيام بواجباتنا بسبب الفزع الذى يثبته فينا . فلا شيء يخيفنا من المخاطر مثل معرفتنا بها . ومن يعتقد انه مستعص على الجروح لن يخشى شيئا . فحيثما جعل الشاعر أخيارا محصنا ضد الهلاك نزع عنه كل قيمة وفضل . فكل انسان لو وجد فى مكانه لكان أخيارا بلا زيادة ولا نقصان ؟ .

أتريد أن تعثر على رجال ذوى شجاعة حقيقية ؟ التمسهم اذن فى المواطن التى ليس فيها أطباء . حيث يجهل الناس عواقب الأمراض . وحيث لا يفكرون مطلقا فى الموت ، فالانسان يعرف بفطرته كيف يتجلد ويتألم بثبات وكيف يموت بسلام . وانما الأطباء بوضفاتهم ، والفلاسفة بوصاياهم ، والكهان بمواعظهم ، هم الذين يوهنون من قلبه ويفسدون أهفته الطبيعية لملاقاة الموت .

أعطوني اذن تلميذا لا حاجة به الى هؤلاء النفر الثلاثة ، من أطباء وفلاسفة وكهنة ، والا فلا أرب لى فيه ! فلست أريد أن يقوم الناس بافساد جهودى . بل أريد أن أربيهم وحدى ، أو لا يكون لى به شأن . فهذا هو الحكيم لوك ، الذى قضى جانبا من عمره فى دراسة الطب ، يوصى بحرارة ألا تعطى الأطفال العقاقير ، لا على سبيل الوقاية ولا عند شعورهم بوعكات خفيفة . أما أنا فأمضى الى أبعد من ذلك المدى وأعلن وقد امتنعت دائما عن استدعاء طبيب لعلاجى ، انى لن أستدعى بتاتا أى طبيب لعلاج اميل ، اللهم الا اذا باتت حياته فى خطر ماحق . اذ لن يكون فى وسع الطبيب عندئذ أن يؤذيه بما هو شر من الموت الذى هو مشف عليه ! .

وانى مقدر أن الطبيب سوف لا يحجم عن استغلال هذا الارحاء . فان مات الطفل قال اتنا دعونا بعد فوات الأوان . وان نجنا ، اختص نفسه بفضل انقاذه . ليكن ذلك اذن ، وليكتب للطبيب النصر فى تلك

الحالة ! ولكن ينبغي مهما كان من شيء الا يدعى الطبيب الى فراش
الطفل الا في الرمق الأخير ! .

وعلى الطفل اذا لم يعرف كيف يشفى نفسه أن يتعلم كيف يمرض ،
فهذا الفن عوض صالح عن ذاك ، وكثيرا ما يكون أبعد نجاحا منه . فان
فن المرض هو فن الطبيعة . فحيثما يمرض الحيوان يتعذب ويتألم في
صمت ، ويخلد الى العزلة . فلا نرى حيوانات عليلة قدر من نراهم
عليين من الرجال .

وكم من أناس قتلهم نفاد الصبر والخوف والقلق والعقاير ، وكانت
أمراضهم حرة أن تبقى عليهم لو ترك للزمن وحده مئونة علاجهم !
وقد يقال لى أن الحيوانات تعيش على وفاق مع الطبيعة أكثر من
البشر ، ولهذا كانت أقل تعرضا للأمراض منا . ليكن ذلك ! هذا
الأسلوب من الحياة هو على وجه التحديد ما أود أن أحمل عليه تلميذى .
كى يغنم منه ما يغنم الحيوان .

ان الجانب الوحيد المجدى من علم الطب هو علم الصحة . بيد أن علم
الصحة ، فضيلة أكثر منه علما . فالاعتدال والعمل هما الطبيبان الأوحدان
الحقيقيان للإنسان . فالعمل يشجذ شهيته ، والاعتدال يعصمه من الافراط
فيها .

وكى نعرف أى الأنظمة أصلح للحياة والصحة ، يجب أن نعرف ماهو
النظام الذى يتبعه أصح الشعوب أبدانا وأقواهم أجساما وأطولهم أعمارا .
فان اتضح من المشاهدات العامة أن استخدام الطب لا يتيح للبشر صحة
أمتن ولا حياة أطول ، ترتب على هذا أن فن الطب ليس له نفع . بل ترتب
عليه أنه ضار ، لأنه يستنفد الوقت والرجال والمواد فيما هو باطل وهباء .
ولست أعنى الوقت الذى ينفق فى محاولة الإبقاء على حياة ماضعت
الا بالتجائها اليه فحسب ، بل وأعنى كذلك الوقت الذى ينفق فى تعذيبنا ،

والوقت الذى ينفق فى تعليم الطبيب فنا لآخر فى استخدامه . فالشخص الذى يعيش عشرة أعوام بغير طبيب ، انما يعيش فى الواقع لنفسه وللناس أكثر ممن يعيش ثلاثين عاما فريسة الأطباء . وانى وقد جربت الحالتين ، أجد من حقى أن أخوض فى هذا الموضوع وأرتب عليه النتائج أكثر من أى انسان .

هذه اذن هى الاسباب التى من أجلها لا أريد الا تلميذا قويا صحيحا . وهذه هى المبادئ التى سأتبعها فى الابقاء على صحته وقوته . وليس فى نيتى أن أطيل الوقفة للبرهنة على جدوى الأعمال اليدوية والتمارين البدنية لتقوية الروح المعنوية واعتدال المزاج والصحة . فذلك مما لا يمارى فيه أحد . فان الأمثلة التى لدينا عن أطول الناس أعمارا نجدها من بين من أكثروا من الرياضة وأقبلوا على التعب والعمل . فلن أزيد الأمر اسهابا ، لأننى سأعيره اهتمامى بالضرورة عند الكلام عن التطبيق ، وكفىنى هنا الاشارة الى المبدأ الذى سوف أطبقه عمليا .



تخير الموضع

وعندما تبدأ حياتنا ، تبدأ معها احتياجاتنا . ولذا يجب أن تكون للطفل مريض منذ ولادته . فإن قامت أمه بواجبها كان خيرا ، وقدمت اليها تعليماتى كتابة . على أمل أن تتبعها بأمانة حرصا على مصلحة طفلها واحتراما للشخص الذى ستعهد اليه قريبا بمثل ذلك الكنز الثمين .

أما إذا لزم اختيار مريض غريبة ، فيجب تخييرها بعناية . وليس هذا بيسير . فمن نكد الدنيا على الأغنياء أن يتعرضوا للسلب من كل صوب . فالثروة هى التى تفسد الناس . واثراة هم أول من يشعر بعيوب الأداة الوحيدة التى بين أيديهم . فكل ما يقدم للأغنياء من أعمال يدخله الغش ، الا ما يعملونه بأنفسهم ، وذلك قليل جدا يقرب من العدم .

وحين يحتاج الغنى الى مريض مثلا ، يترك اختيارها للطبيب . فماذا يحدث ؟ ان أفضل مريض عندئذ ستكون أقدر الجميع على دفع أكبر رشوة للطبيب ! ولهذا سوف لا أستشير الطبيب عند اختيار مريض اميل بل سأختارها بنفسى . وسيكون رائدى فى ذلك غيرتى على الطفل لا طمعى ! .

وأول ما أفكر فيه هو عمر اللبن ونوعه . فأوائل لبن الأم يكون أشبه بالماء . لأن الطبيعة تقصد به أن يكون غسيلا لأمعاء المولود . وريدا رويدا تزداد كثافة اللبن وقد أصبح الطفل أقدر على هضمه ، فليس عبثا تغيير الطبيعة اللبن فى أنثا الحيوانات على حسب عمر المولود .

يحتاج المولود اذن الى مريض قريبة عهد بالأمومة . وتلك صعوبة لا يتعذر التغلب عليها . ويجب أن تكون الموضع أيضا جيدة الصحة

حسنة المزاج هادئة . فان العنف والانفعالات والكدر كلها تفسد اللبن .

واذا قصرنا اهتمامنا على الجسم ، لم نحقق الا نصف هدفنا . فقد يكون اللبن جيدا والمرضع سيئة . فحسن الطبع ضرورى كحسن التكوين . فان المرضع مطالبة بأن ترعى الوليد ليلا ونهارا كما هى مطالبة بارضاعه . ولا بد لذلك من صبر وأمانة وحنان ونظافة . فان كانت مهمة ساءت حالة الطفل وهو عاجز عن دفع الأذى عن نفسه وعاجز عن الشكوى . والأشهر لا يصلحون لأى عمل مهما كانت الاحوال .

وتزداد أهمية اختيار المرضع متى علمنا أن الوليد سيكون موكولا اليها كلية فى مدة الرضاعة . كما سيوكل الى المربى كلية بعد ذلك . وقد كانت هذه عادة الأقدمين ، أولئك الذين لم يحسنوا الكلام كما نحسنه ، ولكنهم كانوا يحسنون العمل كما لانحسه . وكانت المرضع عندهم لا تفارق رضيعتها الفتاة . ولهذا نجد فى تمثيلاتهم المرضع تقوم دائما بدور موضع سر البطلة . والطفل الذى تتداوله أيد كثيرة حرى أن تسوء نشأته .

وينبغى أن تحظى المرضع فى معيشتها بمزيد من وسائل الراحة ، وأن تتناول من الأغذية ما يمدّها بمزيد من العافية . ولكن لا بحيث أن تغير أساليب حياتها كل التغير . فان التغير الكلى المفاجىء ، ولو الى ما هو أحسن ، ذو أثر خطير على الصحة . وما دام أسلوب معيشتها الأول كفل لها الصحة والعافية ، فقيم تغييره اذن ؟ .

ان الفلاحات يقل فى طعامهن اللحم وتكثر الخضر . على خلاف نساء المدينة . ويبدو أن هذا النظام النباتى أجدى عليهن وعلى أطفالهن . أو على الأقل جدواه عليهم أكثر من ضرره . وحينما تكفل الفلاحات رضيعا من أهل المدينة ، تقدم اليهن أطباق اللحوم ، على اعتقاد أن اللحم يزيدهن عافية ويمدهن بلبن غزير . ولست أرى هذا الرأى مطلقا . بل أنى على

ضوء تجربتي أعتقد أن الأطفال في هذه الحالة يشبون معرضين للإصابة بالديدان أكثر من سواهم ،ومعرضين للمغص أيضا .

ولا غرابة في هذا ،مادامت المادة الحيوانية التي في اللحم حينما تتعفن تحفل بالديدان .وليس هذا ما يحدث للمادة النباتية .واللبن وان كان نتاجا حيوانيا ، الا أنه مادة نباتية كما يدل على ذلك تحليله ، وهذا طبيعي لأن النساء يأكلن الخبز والخضر ومستخرجات الألبان . وكذلك اناث الكلاب والقطط .بل إن اناث الذئاب تأكل الأعشاب .وهي كلها مصادر نباتية لألبانهن .

ولبن الأناث آكلة الأعشاب اللطيف وأطيب مذاقا من لبن الأناث آكلة اللحوم .لأن اللبن في هذه الحالة يتكون من عناصر تتجانس طبيعته النباتية ،فيكون أقل عرضة للتعفن .وأما من حيث الكمية فمن المعلوم أن النسويات تنتج من الدم أكثر من اللحم .فلا بد أنها كذلك مدرة للبن .وأعتقد أن الطفل الذي لا تتعجل فطامه . واذا فطمناه فعلى أطعمة نباتية .وكانت مرضعه تتغذى بأطعمة نباتية ، لا يمكن أن يصاب بديدان الأحشاء (١) .

ومن الجائز أن الأطعمة النباتية تدر لبنا أسرع الى التخمض . ولكني بعيد كل البعد عن الاعتقاد بأن اللبن الحامض ضار بالصحة من حيث هو غذاء .فهناك شعوب كثيرة لا تعرف في طعامها الا اللبن الحامض ، وهي راضية عنه . فاللبن الرائب والمخيض طعامان جيدان ، ومن حماقة أن نخشاهما .لاسيما اذا علمنا أن كل لبن يصيبه التخمض في المعدة حتما . ويتحضره يتحول الى غذاء كامل لأطفالنا ولصغار الحيوانات . وما لم يتخمض في المعدة لا ينتفع به الجسم .فكل من يشرب لبنا انما يأكل في الواقع جبنا .فمن وظيفة المعدة بحكم تكوينها أن تجبن اللبن .ومن معدة العجل تستخرج المنفحة .

(١) هذه المعلومات الكيماوية متخلقة عن العصر الحاضر كثيرا فلا حيلة في غرابتها .

فالأفضل فى نظرى الا نغير شيئا من الطعام المعتاد للمرضع . وكل ما هناك أن تقدم لها كميات أكبر منه ، وأصنافا مختارة من نفس نوعه . فليس الطعام نفسه هو الذى يؤذى أو يهزل ، بل طريقة صنعه هى التى تؤذى . فأصلحوا أنظمة مطابخكم ، وأقلعوا عن القلى والتخمير . ولا تضعوا على النار زبدا ولا ملحاً ولا ألبانا . ولا تملحوا الخضر المطبوخة فى الماء الا عندما توضع ساخنة على المائدة . فان الطعام القفار الذى لا أدم فيه ولا دهن لا يرفع حرارة المرضع ، ويمدها بلبن وفير غليظ القوام . فمن التناقض أن يظن الانسان أن الطعام الجوانى خير للمرضع ، مع أن الطعام النباتى ثابت انه أفضل للطفل .

والهواء الطلق النقى عظيم الفائدة فى تكوين بنية الطفل ولاسيما فى السنوات الأولى ، فهو يدخل من جميع مسام جلده الغض ويؤثر تأثيرا قويا فى جسمه ، تأثيرا لا يزول ، ولذا لا أقر من يأخذون امرأة من القرية ليحبسوها فى حجرة بالمدينة ومعها من ترضعه . بل الأفضل عندى أن أرسله الى الريف حيث يستنشق الهواء النقى بدلا من هواء المدينة الفاسد .

وأوثر أن يعيش الطفل فى ظروف المرضع الطبيعية ، يسكن معها فى كوخها حيث يلحق بهما مربيه . ويجمل بالقارئ أن يتذكر أن هذا المربى ليس خادما مأجورا بل هو صديق الوالد . فان لم يكن للوالد صديق يصلح لهذا الغرض ، أو كان الانتقال الى الريف متعذرا ، فليس ذلك مما أجد فيه حيلة .

ان البشر لم يخلقهم الله ليحششوا فى أعشاش النمل بل ليتشربوا فى جنبات الأرض كى يزرعوها . وكلما تجمعوا فى موضع فسد حالهم . فالمرض والرذيلة هما الثمرة الأكيدة للمدن المزدحمة بالسكان . والانسان أقل مخلوقات الله لياقة للحياة فى قطع . ومتى حشد الناس معا كالأغنام

ماتوا . فأنفاس الانسان قاتلة لأخيه الانسان . وتلك حقيقة تصدق
بالحروف كما تصدق بالمجاز .

إن المدن تلتهم ساكنيها وتفتك بهم . وبعد أجيال من حياة المدينة يشيع
الأنحلال الصحى وتصاب السلالة بالهزال أو العقم . ولا يمكن تجديد
حيويتها الا عن طريق الريف . فأرسلوا أولادكم يتجددوا فى الحقول
الفسيحة وليستعيضوا عما استهلكه من عافيتهم هواء المدينة المزدهمة
القاسد .



الخدمات الأولى

ومتى ولد الطفل يستحم فى ماء دافىء يضاف اليه شىء من النيذ .
فانى أعتقد أن النيذ لا لزوم له . فالطبيعة لا تنتج مشروبات مخمرة ،
فليس من المنظور اذن أن تكون الخمور ذات قيمة عظيمة لمخلوقاتنا .

بل انى أرى أيضا أنه لا لزوم لتسخين ماء الحمام الأول . فكثير من
الشعوب تدفع بأطفالها بعد الولادة مباشرة الى مياه الأنهار أو البحار .
وأطفالنا نجنى عليهم بالرعاية الشديدة من قبل ولادتهم ، بما فى الوالدين
من رخاوة ونعومة ، فيولدون وفيهم ضعف ولهذا لا يتحملون بصورة
مفاجئة الظروف الطبيعية التى تتكفل باعادتهم الى الصحة . ولكن رويدا
رويدا ينبغى أن نعود بهم الى الحالة الطبيعية ونبدأ بالحمام . ويجب أن
نكسر منه لأن قذارة الأطفال التى تتكرر كثيرا توحى بالحاجة الى ذلك .
واذا مسحنا عليهم فحسب تأذى جلدهم . وكلما تقدموا فى العمر قلل من
حرارة الماء الى أن يكون استحمامهم شتاء وصيفا فى ماء بارد ، حتى ولو
كان فى برودة الثلج . ولكن استعن بالتدرج واستخدم مقياس الحرارة
للتأكد من الدقة التامة فى ذلك .

ومتى تكونت عادة الاستحمام بالماء البارد عند الطفل فلا ينبغى العدول
عنها مطلقا ، بل يجب أن يثابر عليها طول حياته . وأنا لا أهتم بالحمام
البارد لأسباب تتعلق بالنظافة والصحة الحالية فحسب ، بل لأنه يعود
عضلات الجسم المرونة واحتمال الجهد والحرارة والبرودة . وبعد أن
يكبر الطفل سأعوده بالتمارين على الاستحمام بين الحين والحين فى ماء
ساخن فى مختلف درجات الحرارة التى يطيقها . ثم فى مختلف درجات
البرودة .

وعندما يأخذ الطفل أنفاسه الأولى ،لا تكبلوه فى الأقمطة المحكمة .
ولا تضعوا على رأسه تلك الطواقى .بل اجعلوا لفائفه واسعة فضفاضة،
بحيث تتاح لأطرافه الحرية التامة ،ومن قماش غير ثقيل حتى لا يعوق
حركته .وغير حار حتى لا يحول دون نسمات الهواء .ومن العجيب أن أهل
المدينة يخنقون أولادهم بهواء البيوت المحبوس وبالأردية الثقيلة .وليتهم
يعلمون أن الهواء البارد لا يؤذى الأطفال بل يزيدهم قوة .وان الهواء
الحار يضعفهم ويجلب لهم الحمى حتى يقتلهم .

وليوضع الطفل فى مهد واسع ، بحيث يتحرك بسهولة ، وليكن له
سياج حتى لا يتعرض للخطر عند الحركة .ومتى اشتد عوده أتركوه
يدير فى الحجرة .ودعوه ينمو ويمد أطرافه الصغيرة كي تروها تزداد
قوة يوما بعد يوم .ثم قارنوه بطفل حبيس القماط من سنه وسيد هشكم
ما بين الطفلين من فرق جسيم .

وانى أتوقع معارضة عنيفة من جانب المرضعات ،لأن الطفل المكبل
بالقماط لا يجهدن كالطفل الطليق الذى يحتاج الى يقظة لا تغفل . ثم
ان قدارة طفل واسع الثياب أكثر ، وحاجته الى التنظيف المستمر أشد !
وأوصيكم ألا تجادلوا أولئك المراضع بل مروهن وراقبوا طاعتن .بل
وشاركوهن فى خدمة الطفل ونظافته .وليترك المربى نفسه فى هذا
كله .فهو بذلك سيتعلم القواعد الأولى للتربية على يد الطبيعة نفسها .
ويجب عليه أن يراقب الموضع باستمرار حتى لا يأتى مع الطفل ما يناهض
تيار الفطرة .عن جهالة أو عن لؤم .



التربية النفسية المتدرجة

وأعود فأقول : ان تربية الرجل تبدأ منذ مولده . فهو يتعلم قبل أن يتكلم بل وقبل أن يفهم . فالتجربة هي التي تمده بالدروس . وعندما تراه يعرف مرضعه ، فهو قد عرف شيئا كثيرا . وانك لتعجب من معارف الرجل مهما كان جاهلا ، لو انك تتبعته منذ لحظة ولادته الى اللحظة التي وصل اليها . ولو أننا قسمنا كل المعرفة الانسانية الى شطرين ، وجعلنا شطرا منها قسطا مشاعا بين جميع الناس ، وجعلنا الشطر الآخر خاصا بالعلماء ، لوجدنا هذا الشطر الأخير ضئيلا جدا بالقياس الى الشطر الأول . بيد أننا لا نفكر مطلقا في المعارف العامة ، لأنها تتكون من غير أن نفكر فيها ، بل وقبل أن نصل الى سن التعقل . ولأن المعرفة لاتبرز قيمتها الا بمراعاة التباين بين درجاتها ، شأنها في ذلك شأن المعادلات الجبرية ، حيث الكمية المشاعة بين طرفيها لا حساب لها .

وان الحيوانات أنفسها تكتسب معارف كثيرة . فلها حواس لا بد أن تتعلم كيف تستخدمها . ولها احتياجات يجب أن تتعلم كيف تكفيها . وبهذا تتعلم الأكل والمشى والطيران لذات الجناح منها . وذوات الأربع التي تقف على قوائمها منذ ولادتها لا تعرف كيف تمشى ، ويبدو على خطواتها الأولى أنها محاولات يعوزها الثبات . فكل شيء بالنسبة للمخلوقات الحية والحاسة رهن بالتعلم . ولو أن النباتات كانت لها حركة في المكان ، لوجب إذن أن تكون لها حواس ، وأن تكتسب بحواسها المعارف ، والا أسرع نوعها الى الانقراض .

وأولى احساسات الطفل تكون احساسات انفعالية . فلا شيء عند

الطفل يخرج عن محيط اللذة والألم .والعادة الوحيدة التى يجب أن ندع الطفل يكونها هى ألا تكون عادة ثابتة . فلا نحملة على احدى الذراعين دون الأخرى ، ولا نجعله يمد احدى يديه دون الأخرى . أو أن يستعمل احدهما أكثر من الأخرى . ولا أن يأكل أو ينام أو ينشط فى ساعات بعينها ،أو يعجز عن المكث وحده ليلا أو نهارا .

أعدوه من بعيد كى تسود حياته الحرية والقدرة على استعمال قواه كلها ،تاركين لجسمه العادة الطبيعية ،بحيث يكون دائما سيد نفسه ، قادرا فى جميع الأمور على العمل بمشيئته ،متى صارت له مشيئة .

ومتى بدأ الطفل فى التمييز بين الاشياء ،فمن المهم أن نختار الاشياء التى نطلعه عليها . وكل جديد يثير اهتمام الانسان بالطبع .وهو يشعر بضعفه لدرجة أنه يخشى كل ما لايعرفه .فاذا كونا لديه عادة مشاهدة أشياء جديدة من غير ان يتأثر بها ،قضيينا لديه على ذلك الخوف .

والأطفال الذين ينشأون فى بيوت نظيفة ،أو فى بيوت لا يطبق أهلها أن تضم العناكب ،يخافون العناكب ويلازمهم ذلك الخوف فى أحيان كثيرة عندما يكبرون .ولم أر فى حياتى فلاحا رجلا كان أو امرأة أو طفلا يخاف العنكبوت ! .

فلماذا اذن لا تبدأ تربية الطفل قبل أن يتكلم وقبل أن يفهم ،ما دام مجرد اختيار الاشياء التى تعرض عليه كافيا لجعله خوافا أو مقداما ؟انى أريد أن يتعود الطفل مشاهدة أشياء جديدة ،وحيوانات قبيحة ،مقززة ،غير مألوفة ،ولكن فى هوادة ،قليلا قليلا ،وعن بعد ،الى أن يألفها .ومتى رأى غيره يلمسها أقدم أخيرا على لمسها بنفسه .فاذا تعود الطفل فى صغره ألا يفزع من منظر الثعابين وسرطان البحر وما الى ذلك ،فثق أنه سيرى من غير فزع حين يكبر أى وحش كان .فلا وجود للأشياء المفزعة لدى من يرى صنوفا وأشكالا منها فى جميع الأيام .

وجميع الأطفال يخافون الأقنعة . وسأبدأ بأن أطلع اميل على قناع لطيف الشكل . ثم يضع أحد الناس ذلك القناع أمامه على وجهه . ثم أخذ في الضحك ، ويضحك الحاضرون جميعا ، فيضحك الطفل مع الآخرين . وشيئا فشيئا أعوده رؤية أقنعة أقل جمالا ، ثم أقنعة شنيعة الشكل . فإن كنت قد أحسنت التدرج ، فسوف لا يفزع من آخر قناع يراه ، بل سيضحك كما ضحك من أول قناع . وبعده هذا لن أخشى أن يفزعه أحد بالأقنعة .

وإذا أردت تعويد اميل على ضجة الأسلحة النارية ، أتدرج معه فى سماع الضوضاء ورؤية شرارات الانفجار شيئا فشيئا الى أن يسمع طلقة البندقية من غير أن يهتز . ثم أعوده بعد ذلك على طلقات المدافع .

وقد لاحظت أن الأطفال قلما يخافون من الرعد ، اللهم الا اذا كان الدوى فظيحا جدا بحيث يחדش حقا جهازهم السمعى . وفيما عدا ذلك لا يحدث لديهم هذا الخوف الا اذا عرفوا أن الرعد يقتل أو يؤذى أحيانا . ومتى بدأ ذهن يفزعهم بصورة ، فيجب عليك أن تلجأ للعادة التدريجية كى تزيل عنهم ذلك الفزع . فبالتدرج البطيء الدقيق يمكن أن نجعل الرجل أو الطفل يجابه أى شئ .

وفى مطلع الحياة ، حينما تكون الذاكرة والمخيلة غير نشيطتين ، لا يتنبه الطفل الا لما يؤثر فعلا فى حواسه . فاحساساته هى المادة الأولى لمعارفه . وتقديم المحسوسات اليه بنظام مناسب ، هو بمثابة اعداد الذاكرة لامداده بتلك المحسوسات يوما ما بذلك الترتيب نفسه الى ادراكه . ولكن لما كان اتباه الطفل فى البداية مقصورا على محسوساته . يكفى جدا أن نبين له بوضوح العلاقة بين هذه المحسوسات وبين الأشياء التى تحدثها .

انه يميل الى لمس كل شئ وتحريك كل شئ فلا تعارض هذا الاتجاه مطلقا . فانه يتعلم بهذه الوسيلة ويتدرب . فهو بهذا المنوال يتعلم كيف

يحس بالحرارة والبرودة والصلابة والرخاوة والثقيل والخفة التي في الأجسام. ويميز حجمها وأشكالها وجميع خصائصها المحسوسة، سواء بالنظر أو باللمس أو بالتحسس أو بالاصغاء ولا سيما بمقارنة النظر باللمس، حينما يقدر بالعين الاحساس الذي يأتيه من أصابعه .

والشم هو أبسط الاحساسات نموا عند الأطفال. فحتى العام الثاني أو الثالث لا يلوح أنهم حساسون للروائح الطيبة أو الكريهة. فهم من هذه الناحية محرومون من الشم شأن كثير من الحيوانات .

وبالحركة وحدها تتعلم وجود أشياء ليست هي نحن. وبحركة أجسامنا وحدها ندرك معنى الامتداد. ولأن الطفل الحديث الولادة لا وجود عنده لتلك الفكرة، نراه يمد بأسلوب واحد يده للقبض على شيء في متناوله، أو شيء على مسافة مائة خطوة منه. فيبدو لك أن اشارته تلك اشارة سيطرة أو أمر يصدره الى الشيء كي يدنو منه، أو يصدره اليك كي تحمله اليه. وليس الأمر كذلك اطلاقا. فانه لا يتصور أن هناك امتدادا سوى ذلك الامتداد الذي يستطيع أن يبلغه بذراعه. فعليك اذن أن تهتم بنزته كثيرا، فتنتقله من موضع الى آخر، كي يستشعر تغير المكان، فيتعلم من ذلك تقدير المسافات. ومتى بدأ في معرفة المسافات، يجب عليك أن تغير المنهج. اذ بمجرد تخلصه من خداع الحواس، يتغير هدف مجهوداته. وهذا التغير ملحوظ ويحتاج الى شيء من التفسير .

ان الضيق الذي يشعر به الطفل بسبب احتياجاته يعبر عنه بإشارات، وذلك عندما تكون مساعدات الآخرين له ضرورية كي يكفي تلك الاحتياجات . ومن هنا صراخ الأطفال وبكاؤهم الكثير، فذلك شيء لا بد منه. ولما كانت جميع احساساتهم انفعالية. فعندما تكون تلك الاحساسات مرضية لهم يستمتعون بها في صمت. وعندما تكون تلك الاحساسات مؤلمة لهم، يقولون ذلك بلفتهم الخاصة، طالبين البرء منه. وعلى هذا،

حينما يكونون بحال اليقظة ،لا يستطيعون الاستمرار فى حالة عدم اكتراث ،فينامون أو يصرخون .

وجميع لغاتنا مبتدعات فنية .وقد طال البحث فى هل هناك لغة طبيعية عامة بين جميع الناس .ولا شك فى أن هناك لغة بهذه الصفة .وهى لغة الأطفال التى يتكلمون بها قبل أن يتعلموا الكلام .ولئن لم تكن تلك اللغة لفظية ،الا أنها صوتية ومفهومة .وإستخدامنا للغاتنا هو الذى جعلنا نهمل تلك اللغة المشتركة حتى نسيانها نسيانا تاما .

فلندرس الأطفال ،وعندئذ سنعرف كيف تتعلم تلك اللغة على أيديهم .ولا شك أن الحواضن والمراضع هن أساتذتنا فى تلك اللغة .لأنهن يسمعن ويفهمن كل مايقوله لهن الرضعاء ويحبونهن ، وتعتقد بينهن وبينهم محاورات متصلة .ومع أنهن ينطقن فى تلك المحاورات بكلمات ،الا أن تلك الكلمات عديمة الجدوى تماما .فالأطفال لا يفقهون معنى تلك الكلمات ، بل نبرة الصوت المصاحبة لها وطبقته .

والى جوار لغة الصوت نجد لغة الإشارة ، وهى ليست أقل منها نشاطا وتأثيرا .وتلك الإشارة لا تصدر من يدى الطفل الضعيفتين ،بل ترسم على وجهه .ومن العجيب حقا ما لدى الطفل من قدرة على التعبير بوجهه الذى تتغير معارفه من لحظة الى أخرى بسرعة فائقة ،فتقرأ ثمة الأبتسام والرغبة والفرح ،وهى تتولد وتتلشى كما يتولد البرق ويتلاشى .حتى لتحسبن أنك فى كل مرة ترى أمامك وجها جديدا . ولا شك أن عضلات وجوههم أشد ليونة ومرونة من عضلات وجوهنا .ولكن فى مقابل ذلك لا تكاد تنطق عيونهم الخابية بشيء .فلا بد أن هذا هو نوع الإشارات الذى يستخدم فى سن لا وجود فيها الا للاحتياجات الجسمية .فالتعبير عن تلك الاحساسات يكون بمعارف الوجه ،اما التعبير عن العواطف فيكون حتما بالنظرات .

ولما كانت المرحلة الأولى من حياة الانسان مرحلة ضعف وعوز ، فأصواته الأولى أصوات شكائية وبكاء . يشعر الطفل بحاجاته وليس في وسعه أن يكفيها . فيستدر مساعدات الناس له بالصراخ . وإذا كان جائعا أو عطشان بكى . وان شعر ببرد شديد أو حر شديد بكى . وان أراد أن ينام واحتاج الى من يحركه أو يهدده بكى . فليست له الا لغة واحدة ، لأنه لا يشعر الا بنوع واحد من عدم الأرتياح ، هو ما فى أعضائه من نقص . ولكنه لا يميز بين أنواع الاحتياجات المختلفة . فجميع تلك الاحتياجات أو المتاعب تبدو له فى صورة واحدة هى صورة الاحساس بالألم على العموم .

ومن ذلك البكاء الذى يتوهم البعض أنه ليس جديرا بالاهتمام ، تتولد العلاقة الأولى بين الانسان وبين كل ما يحيط به . فهنا تصاغ الحلقة الأولى من تلك السلسلة الطويلة التى تكون منها النظام الاجتماعى بأسره .

فعندما يبكى الطفل فمعنى ذلك أنه غير مستريح ، وانه بحاجة الى شىء ما لا يستطيع أن يكفى نفسه تلك الحاجة . فنقوم بالفحص والتنقيب عن تلك الحاجة المعينة الى أن نعرث عليها ونكفيه اياها . فان لم نجدها أو لم نستطع أن نكفيه اياها يستمر البكاء ، ويضائقنا ذلك فنحاول أن نرضى الطفل كى يسكت . فنهدده ونغنى له كى ينام . فان أصر على البكاء تملكنا الضيق والغضب وهددناه . ومن المراضع الضاربات من يضربن الطفل أحيانا . ويا لها من دروس غريبة يتلقاها الطفل وهو فى مبدأ دخوله الى الدنيا .

ولن أنسى ما حييت طفلا باكيا ضربته مرضعه . فسكت على الفور . فظننت أنه خاف منها وقلت فى نفسى ان هذا الطفل سيشب خانعا خسيسا لا ينال الانسان منه شيئا الا بالضغط والاكراه . ولكنى كنت مخطئا ، لأن

المسكين كان مختنقا من شدة الغيظ والقهر ،حتى انه فقد أنفاسه ورأيت لونه يضرب للزرقة .وبعد لحظة انفجرت منه صرخات حادة تدل على منتهى اليأس والغضب في تلك السن . فراعنى في نبرات تلك الصرخات أنها تعبير صوتى كامل عن تلك الانفعالات ،يتناسب تماما مع تلك المرحلة من العمر . وخشيت أن يموت من شدة الانفعال .

وكلما خامرنى الشك فى أن عواطف العدل والاحساس بالظلم فطرية فى قلب الانسان ،كان هذا المثل وحده كافيا لأقناعى بوجودها فى فطرة البشر .فانى واثق أن قطعة من الحديد المحمى تسقط صدفة على يد هذا الطفل كانت أهون وقعا من تلك الضربة الهينة من يد مرضعته : التى ضربته بقصد اهانتته .

وان ما يديه الأطفال من الاستعداد للغضب والسخط والاستياء والاحتجاج يستحق منا كياسة شديدة فعليكم أن تحولوا بينهم وبين الخدم الذين يغيظونهم أو يهيجون غضبهم وأعصابهم ويستنفدون صبرهم .فهم أشد خطرا عليهم بل أشد فتكا بهم من تقلبات الجو الفظيعة وتغيرات الفصول التى تودى بأكبر عدد من الأطفال كما يقول بعض الاطباء .فان جهاز الأطفال العصبى يكون شديد الحساسية .وما دام الطفل لا يجد مقاومة الا من الأشياء الجامدة .لا من ارادات بشرية مماثلة لارادته ،فلن تتوتر أعصابه أو تسوء صحته .وهذا هو السبب فى ان أبناء العامة أقل رخاوة وذبولاً فى العادة من أبناء الخاصة ،وأشد منهم قوة وأنضر عافية ،وأصح نفوسا وأجساما من أولئك الذين نزعهم خيرا منهم تربية بمراحل ،ذلك أن أبناء العامة أكثر حرية واستقلالا ، فلا يضايقتهم أحد ،لأن أحدا لا يشغل نفسه بهم خيرا أو شرا . اما أبناء الخاصة فمن يוכל اليهم الانشغال بهم من الخدم يتلهون بمضايقتهم . ان بكاء الطفل فى الصيحات الأولى أشبه ما يكون بالضراعة .فإن لم

نظن اليه انقلب الضراعة الى أمر وينتقل من طلب العون الى الالزام بالخدمة . وهكذا يتولد لديهم من شعورهم بالتواكل معنى السيطرة أو النفوذ أو التسلط . وهذه هي بداية النتائج الأخلاقية التي ليست الطبيعية سببها المباشر ، بل سببها المباشر طريقة تأديتنا الخدمات للطفل عندما يصبح صراخه أمرا ووعيدا . ولهذا ينبغي منذ الطفولة الباكرة جدا أن نميز السريرة الخافية وراء حركات الطفل وصيحاته .

وعندما يمد الطفل يده بقوة من غير أن يتكلم ، يعتقد أنه سيصل الى الشيء الذي يريده ، لأنه لا يحسن تقدير المسافة . فهو في هذه الحالة مخطيء . اما عندما يشكو ويصرخ وهو يمد يده ، فهو في هذه المرة لم يخطيء تقدير المسافة ، بل انه يأمر ذلك الشيء بالدنو منه ، أو يأمر أن تحمله اليه . وفي الحالة الأولى قرب منه الشيء الذي أخطأ في تقدير مسافته منه ببطء شديد . كأن الشيء يقترب منه فعلا . أما في الحالة الثانية حيث ينقلب صراخه أمرا للشيء أو لك ، فلا تتجاهل سماعتك لصراخه فحسب ، بل كلما اشتد صراخه يجب أن تزيد في تجاهلك لسماعه . اذ يجب بأى ثمن أن تعود منذ اللحظة الأولى الا يأمر الناس . فما هو عليهم بمسيطر . والا يأمر الأشياء ، فليست للأشياء أسمع وعقول .

وهكذا عندما يرغب الطفل في شيء يراه وتريد أن تعطيه اياه ، فمن الخير أن تحمل الطفل الى الشيء ، فذلك أفضل من أن تحمل الشيء الى الطفل . فهذه الوسيلة العملية سيصل الطفل في تلك السن الى الاعتقاد بأن هذا هو السبيل الوحيد للوصول الى الأشياء .



ان الطفل لا يكون شريرا الا بسبب ضعفه . فان أحب تحطيم الأشياء ، فليس ذلك عن سوء نية . ولكن لأنه يشعر بالحاجة الى الحركة والأفعال ،

فيهاجم ما يجده فى متناول يده ،من غير نية خاصة فى العدوان أو التخريب .

ان الأطفال ليست لديهم قوى فائضة عن حاجتهم .بل ان قواهم ليست كافية لجميع مطالب طبيعتهم .فيجب أن تترك لهم حرية استخدام جميع القوى التى منحتم اياها الطبيعة ،ماداموا لن يستطيعوا اساءة استخدامها فى ايذاء أحد .وهذه هى الوصية الأولى .

ويجب أن نساعدهم ونمددهم بما ينقصهم ،سواء من حيث الذكاء أو القوة ، بما يكفيهم احتياجاتهم البدنية . وهذه هى الوصية الثانية .

ويجب فيما تقدمه اليهم من مساعدات أن تكون تلك المساعدات فى حدود المنفعة الفعلية فحسب ، ولا نساعدهم فى أى شئ يتصل برغباتهم أو نزواتهم غير المعقولة .فالنزوات ليست مما يترتب على ارضائها ألم أو تعذيب .لأنها ليست من صنع الطبيعة .وهذه هى الوصية الثالثة .

ويجب أن ندرس لغتهم الصوتية واشاراتهم ، كى تتمكن فى سنهم التى يعجزون فيها عن التمويه ،أن تتبين فى رغباتهم ما هو طبيعى وما هو نزوة أو ميل الى الاستبداد والتحكم .وهذه هى الوصية الرابعة .

وهذه الوصايا الأربع المراد منها اطلاق مزيد من الحرية الحقيقية للأطفال ،مع الاقلال من سيطرتهم وتحكمهم .وان يتعلموا العمل بأنفسهم لا أن يحملوا الآخرين على العمل لهم .وهكذا يتعودون منذ البداية أن تكون رغباتهم على قدر قواهم ويشعرون شعورا لا مبالغة فيه بأن الحرمان مما ليس فى متناول اليد أمر طبيعى لا يتسم بسمات الفجعة والتحسر .

ولكننى فى الوقت نفسه لا أريد أن تكون الخدمات الأولى التى تقدم للأطفال موضع لبس أو ابهام .فلماذا لا يحجم الأطفال عن البكاء متى رأوا أن البكاء يفيدهم فى الحصول على مبتغاهم .ويتعلمون من

هذا مبلغ تقديرنا لسكوتهم . فيمتنعون عن حظوتنا بذلك السكوت ويظلون يستأدوننا اثمانا لسكوتهم ، ويغلون فى تلك الأثمان المرة بعد المرة الى الحد الذى نعجز فيه عن أداء ما يطلبون من ثمن . ويصبح البكاء سلاحا فاشلا ، ومتى بالغوا فى استعماله بلا جدوى أنهكت قواهم ، وربما قتلوا أنفسهم .

ان البكاء الطويل الذى يصدر عن طفل غير مقيد الحركة ولا مريض ولا ينقصه شئ من احتياجاته الضرورية ، لا يكون الا نتيجة تعود أو عناد . ولا يمكن أن يكون من عمل الطبيعة . والمرضع التى لا تريد أن تتحملة ، تعمل على مضاعفة ذلك البكاء من حيث تظن أنها تسكته . فهى لا تسكته اليوم بالحيلة الا لتدفعه الى مضاعفة البكاء فى الغد .

ان الوسيلة الوحيدة للشفاء من هذه العلة أو الوقاية من تلك العادة ، هى ألا نلقى بالا على الاطلاق الى بكاء الطفل . وما من انسان حتى الأطفال يجب أن يجهد نفسه بغير طائل . فالأطفال يصرون على محاولاتهم على أمل النجاح . ولكن اذا كنت أشد صبرا وعنادا منهم سيفقدون ذلك الأمل ويكفون عن البكاء ولا يعودون اليه بعدها . وبذلك توفر عليهم جهود البكاء فى الأمد الطويل ونعودهم ألا يذرفوا الدموع الا تحت ضغط الألم الحقيقى .

وعندما يبكى الأطفال لنزوة أو عناد ، فهناك وسيلة فعالة لمنعهم من الاسترسال فى البكاء ، وهى تلهيتهم بشئ يجذب انتباههم وينسيهم أنهم كانوا شارعين فى البكاء . ومعظم المراضع ممتازات فى هذا الفن . وهو فى الحقيقة فن نافع . ولكن من المهم الى أقصى درجة الا يظن الطفل الى نية المرضع التى تكمن وراء هذه الحيلة ، كى يستمتع وهو لا يعتقد أنه محبور الاهتمام . ولكن معظم المراضع فيهن هذه البلاهة .

وليس من المستحسن أن نطعم الأطفال فى وقت مبكر جدا . فان الحبوب المغلية غذاء قليل الجدوى . وخير منه مشتقات الحيز الخفيفة .
واما من جهة الكلام فجميع الأطفال يبدأون التعبير بمقاطع مبسطة . ولا ينبغى أن تتشدد معهم فى تصحيح النطق منذ البداية . لأن عيوب النطق ستصحح من تلقاء نفسها مع التقدم فى العمر ، ومن غير صعوبة .
وانما المهم أن يتعلموا الكلام بصوت واضح رنان . وأن يكون تعبيرهم بالألفاظ دقيقا أكثر منه مسهبا .

وجميع نواحي النمو الأولى فى فترة الطفولة تحدث فى وقت واحد فالطفل يتعلم الكلام والأكل والمشى فى آن واحد تقريبا . فهذه هى بمعنى الكلمة الفترة الأولى من الحياة . اما قبل أن يتعلم هذه الأشياء فلم يكن شيئا مذكورا يزيد كثيرا عما كان فى بطن أمه . فما كان ذا شعور ، ولا صاحب فكرة أو معنى . وانما كل رصيده فى الحياة احساسات عضوية . فلم يكن يشعر حتى بوجوده . فهو على حد تعبير الشاعر اللاتينى أوفيد :
— انه يعيش ، بيد انه يعيش جاهلا حتى انه يعيش .



الكتاب الثاني

الطفل : تربيته الأخلاقية

- الدروس الاولى في الشجاعة
- بداية الحياة الاخلاقية
- تشكيل الارادة
- لا تجادلوا الاطفال
- مبادئ الاخلاق الاجتماعية
- دراسة اللغات ومدى جدواها للطفل
- دراسة التاريخ والاساطير ومدى جدواها للطفل
- الطفل ذو البهوات
- رياضة الحواس وعلاج الخوف
- منافع السباق
- أميل طفلا

الدروس الأولى فى إشجاعة .

وهنا تبدأ المرحلة الثانية من مراحل الحياة . وتنتهى مرحلة الطفولة الأولى ، التى هى الطفولة بمعنى الكلمة . ولكنى سأستخدم لفظ الطفولة جريا على العادة المألوفة ، للكلام عن هذه المرحلة التى عرف الطفل فيها الكلام والمشى وطريقة الأكل .

وعندما يبدأ الأطفال فى الكلام ، يقل بكاءؤهم ، وهو تقدم طبيعى جدا ، اذ حلت لغة للتعبير محل لغة أخرى للتعبير . وما داموا يستطيعون أن يقولوا انهم يتألمون بعبارات لفظية ، فلماذا يقولون ذلك بصيحات اللهم الا اذا كان الألم من الشدة بحيث لاتسعه الكلمات للتعبير عنه ؟ . فان استمر الطفل بعد تعلم الكلام على عادته فى البكاء ، فهذا خطأ أولئك الذين يحيطون به . أما اميل فمتى استطاع أن يقول «انى أتألم» ، فيجب الا يعتمد للبكاء الا اذا أصابته آلام موجهة جدا .

واذا كان الطفل رقيقا شديد الحساسية بحيث يستسلم بطبيعته للبكاء لغير سبب ويصرخ ، فانى أجعل صرخاته وبكائه بغير فائدة وبغير نتيجة ، بحيث يستنفد طاقته ويكف عن الصياح . فما دام هو يبكى لا أخف اليه بل ولا ألقى اليه بالا .. ولكن بمجرد أن يسكت أخف اليه . فرعان ما يتعلم أن الطريقة الوحيدة لاستدعائى هى أن يسكت ، أو على الأكثر أن يطلق صرخة واحدة / فالاطفال لا يميزون معانى سلوكهم الا بالآثر المحسوس لذلك السلوك . وليست هناك وسيلة أخرى لديهم . ودليل ذلك أنه مهما كان الألم شديدا على الطفل ، فمن النادر أن يبكى اذا كان بمفرده ، الا اذا وجد عنده الأمل فى أن يسمع بكاءه أحد من ذويه .

فإذا سقط الطفل على الأرض ،وظهرت فى رأسه من أثر ذلك حذبة ،
وإذا نزع الدم من أنفه ، أو جرحت أصابعه ،فلن أبادر اليه وقد ارتسم
على وجهى الذعر ،بل سأبقى محتفظا بهدوءى ،فترة من الزمن على الأقل .
وما دام الشر قد وقع ،فمن الضروري أن يتحملة .وكل ما أيدى من لهفة
لن تكون له فائدة سوى زيادة فزعه واذكاء حساسيته وألمه .

وإذا أردنا صميم الحقيقة ، رأينا أن المفاجأة أو الصدمة ليست هى
التي تؤلم وتعذب عندما يجرح المرء ،بل الذى يؤلمه ويعذبه الخوف
بالأكثر .وسأعمل على أن أجنبه على الأقل عذاب الخوف .اذ لا شك أنه
سيحكم على ألمه بما يراه على وجهى من تقدير له ولخطورته .فإن رآنى أجرى
منه وفاقى أرفه عنه وأتحرر عليه ،فسيظن نفسه هالكا .أما إذا رآنى
أحتفظ بهدوءى ،فسيثوب سريعا الى هدوئه ،ويعتقد أن أصابته يسيرة ..
ففى تلك السن تبدأ الدروس الأولى فى الشجاعة .ومتى تعلم الطفل كيف
يتعذب بالآلام هينة من غير فزع ،فسيتعلم بالتدريج احتمال الآلام الجسام
وهذه هى الشجاعة فى جوهرها الأصيل .

وبدلا من أن أوجه اهتمامى الى تجنب اميل الجروح ،سيسوءنى جدا
الا يجرح نفسه مطلقا .وأن يكبر قبل أن يعرف الألم .فالعذاب هو أول
شيء يجب أن يتعلمه .بل انه أحوج ما يحتاج الى معرفته ،ويلوح أن الأطفال
لا يكونون صغارا ضعافا الا لكى يتلقوا تلك الدروس الجلية بغير خطر
على حياتهم . فإذا وقع الطفل من طوله ، فلن تنكسر ساقه . وان ضرب
نفسه بعصا فلن تنكسر ذراعه . وإذا قبض على سلاح قاطع فلن يشد
قبضته عليه ،فلا يكون جرحه غائرا .

ولا أتذكر أنى سمعت أو رأيت طفلا طليق الحرية قتل نفسه أو أصاب
نفسه بعاهة أو بألم شديد .الا اذا كان قد دفع دفعا الى الوجود فى أماكن

مرتفعة أو ترك وحده بالقرب من النار أو تركت في متناول يده أدوات خطيرة .

ان الطفل الذى يكبر من غير أن يتمرس بالألم يظل بلا خبرة وبلا شجاعة حتى انه يتوهم الموت عند أول وخزة . ويعمى عليه عندما يرى أول قطرة تسيل من دمه وليست هذه هى التربية التى تتحراها .

ان خطأ بل خرف تعليمنا آت من أننا نعلم دائما الأطفال ما كانوا سيتعلمونه بصورة أفضل كثيرا من تلقاء أنفسهم . ونغفل عما كان يمكن أن نعلمه نحن لهم دون غيرنا . وهل هناك أشد بلاهة من العناء الذى نبذله كي نعلم الأطفال المشى ، كأننا رأينا من قبل أى انسان أدى اهمال مرضعته الى جهله بالمشى عندما كبر ؟ بل كم من شخص نراه يمشى بصورة سيئة طول حياته ، لأنهم أساءوا تعليمه المشى وهو صغير ؟ .

ان اميل لن تكون له مشاية أو غيرها من أدوات تعليم المشى . ومتى بدأ يضع قدما أمام الأخرى ، فلن يسنده أحد الا عند المواطن الزلقة . ثم يؤخذ الى مكان معشب كل يوم حتى لا يقضى وقته فى حجرة مقفلة . وهناك يترك ليجرى ويقع مائة مرة كل يوم . فذلك كله لفائدته ، لأنه سيتعلم كيف ينهض من سقطته بنفسه كلما وقع . وسعادة الحرية تشفع لكثير جدا من الرضوض والجروح . وستكون روحه دائما مرحة . فالطفل الحر سعيد دائما . أما الطفل المكتئب الساهم فهو الطفل المقيد الحرية الذى تكبت جميع رغائبه وميوله الفطرية . ولا أظن أن هذا هو الجانب الأرجح فى التربية .

بداية الحياة الأخلاقية

وهناك نمو آخر يجعل التجاء الطفل الى الشكوى أقل لزوما لحياته . وذلك هو نمو قواه . فمتى استطاع الأطفال أن يقوموا لأنفسهم بمزيد من العون والعمل ، قلت حاجتهم للاستعانة بالآخرين . ومع نمو قوتهم تنمو معرفتهم بحيث يكونون قادرين على استخدام قواهم وتوجيهها . وبهذا تبدأ بصورة دقيقة حياة الفرد . اذ يبدأ عندئذ وعيه لذاته .

وتقوم الذاكرة بمد الشعور بالآنية الى جميع لحظات حياته . فيغدو شخصا واحدا بمعنى الكلمة ، هو عين ذاته دائما ، ويكون بالتالى قادرا على الشعور بالسعادة أو الشقاء . ويكون من المحتم أن نعتبره منذ ذلك الحين كائنا أخلاقيا .

وما من شيء فى الدنيا أقل ثباتا وضمانا من العمر البشرى . فلا أحد يدري كم يعمر كل فرد على حدة . وقليلون جدا هم الذين يصلون الى أقصى حدود العمر البشرى . فأعظم مجازفات الحياة تكون فى البداية . وكلما صغرت السن كان الأمل فى طول الحياة أقل . أو هكذا ينبغي أن يكون . فبين من يولدون من الأطفال لا يصل الى يفاعتهم غير النصف على الاكثر . وليس من المضمون أن تلميذك سيصل الى سن الرجولة .

فما القول اذن فى تلك التربية الهمجية التى تضجى بالحاضر القائم فى سبيل مستقبل مجهول غير مضمون ، وهى تربية تكبل الطفل بالاغلال من جميع الأنواع والأشكال . وتبدأ بأن تجعله شقيا فى طفولته لكى تعدده لمستقبل بعيد تزعم أنه سيكون سعيدا . مع أنه ربما لا يصل اليه مطلقا؟ وإذا اعتبرت مثل تلك التربية معقولة من حيث المضمون . فكيف

يمكن أن أغلب السخط والاستنكار حينما أرى الصغار المساكين مرهقين تحت نير ثقيل ومكرهين على أعمال متصلة، كأنهم سجناء، وهم غير واثقين من أن كل تلك الجهود ستجدي عليهم يوماً ما ؟ ! .

ان عمر المرح لديهم يتقضى وسط الدموع والاحزان والعقوبات والتهديد والرق . وينصب العذاب على الصغير المسكين لمصلحته مستقبلاً، ولكنهم لا يرون الموت الذى يستدعونه اليه ،والذى سوف يقبضه وهو غارق فى الأسى والعذاب . والله وحده يدري كم من الأطفال يهلكون ضحايا الحكمة المتطرفة لأبائهم وأساتذتهم . وحين يحضرهم الموت يسعدهم أن يفروا من تلك القسوة . فالمرزية الوحيدة التى يحصلون عليها من آلامهم وعذابهم هى أن يموتوا غير آسفين على الحياة ،وهم لم يعرفوا منها الا العذاب ،ولم يذوقوا من طعمها الا الحنظل والصاب .

أيها الناس ! كونوا أشد انسانية . فهذا هو واجبكم الأول . كونوا رحماء بجميع الطبقات ،وبجميع الأعمار ،وبجميع من ليسوا غرباء عن البشرية . فأتى حكمة يمكن أن تكون لكم ان أخرجتكم عن انسانيتكم؟ أجابوا الطفولة . وارعوا فى مودة لهوها وملذاتها وطبيعتها اللطيفة .

اسألوا أنفسكم . من منكم لم يتحسر أحياناً على تلك المرحلة من العمر حينما كانت الشفاء لاتعرف الا الضحكات ، والنفوس لا تعرف الا الطمأنينة والأمن والسلام ؟ لماذا اذن تريدون أن تنتزعوا من هؤلاء الصغار الأبرياء استمتاعهم بفترة قصيرة من العمر سرعان ما تنقضى كأنها سنة من وسن ؟ ولماذا تريدون أن تحرموهم من خير ليس له نظير ولا يمكن أن يسيئوا التمتع به ؟ لماذا تريدون أن تحشدوا فى تلك السنوات القلائل فى بكرة العمر عصارة الآلام والمرارة وأتم تعلمون أنهم لن يستطيعوا تعويض ما فات بدليل أنكم لا تستطيعون الارتداد الى طفولتكم ؟ أتعلمون أيها الآباء اللحظة التى يتربص فيها الموت بأولادكم ؟ لاتمهدوا

اذن ولا تزرعوا حشراتكم بأيديكم وأنتم تحزمونهم من اللحظات السعيدة
الضئيلة التي تمنحهم الطبيعة اياها . يجب عليكم متى استطاع ابناؤكم
أن يشعروا بذواتهم ، أن تجعلوهم يستمتعون بحياتهم . حتى اذا شاءت
ارادة الله أن يدعوهم اليه ، لا يموتون من غير أن يتذوقوا لذة الحياة .

وانى أعلم أن أصواتا كثيرة سترتفع ضدى ! وكأنى أسمع عن بعد تنديد
أولئك الحكماء المزيفين الذين يخرجوننا دائما عن طورنا ، ويريدون منا
أن نسقط الحاضر من حسابنا ، ونجرى بلا هوادة وراء مستقبل يفر منا
دائما كلما تقدمنا نحوه .

وقد يقال لى ان الطفولة هى أوان تصحيح ميول الانسان الخبيثة .
وفى فترة الطفولة يكون الاحساس بالآلام أقل . فيجب أن نكسر من الآلام
فى الطفولة كى نوفر الآلام فى سن الرشد حيث الألم وجميع ثقل الوطأة .

ولكن من قال لكم ان جميع هذه التدبيرات طوع أمركم ، وان كل
تلك المعلومات الجميلة التى تهيلونها على ذهن الطفل الضعيف لن تكون
له يوما ما ضارة ضررا يرجح كثيرا على نفعها ؟ من الذى يضمن لكم أنكم
توفرون عليه أى شىء بتلك الاحزان والاسقام التى تفرضونها عليه ؟ لماذا
تحملونه من الآلام أكثر مما تحتمله حالته ، وأنتم غير واثقين بأن هذه
الآلام الحاضرة ستخفف عنه آلاما مستقبلية ؟ .

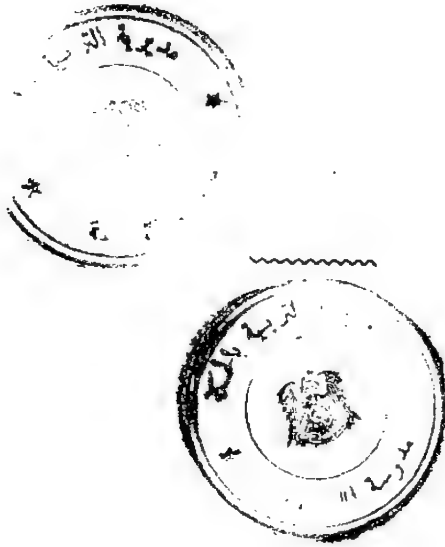
بل انى أسألكم من أين لكم البرهان أن تلك الميول الخبيثة التى
تزعمون عملكم على شفاؤه منها ، ليست فى الواقع الا ثمرة جهودكم ،
لا ثمرة خلقتة الفطرية ؟ .

يا لها من حصافة خرقاء تلك التى تفرض الشقاء على مخلوق فى الوقت
الحاضر فعلا ، على أمل ربما يكون حقيقيا أو موهوما ، بأن يسعد يوما ما ! .

ان هؤلاء الفلاسفة السوقة يخلطون بين الاباحية والحرية ، وبين الطفل
السعيد والطفل المدلل . فمن واجبنا اذن أن نعلمهم تلك الفروق ! .

ولكى لا فضل كثيرا بالجري وراء الأباطيل ،لا ينبغي أن ننسى مايتلاءم
من ظروفنا . فالإنسان له مكانه المحدد فى ترتيب الموجودات الطبيعية ،
والطفولة لها مكانها المحدد فى ترتيب الحياة البشرية . لذا يجب أن نعتبر
الرجل فى الرجل . وأن نعتبر الطفل فى الطفل .

ان تحديد مكان كل واحد وتثبيته فى ذلك المكان ، وتنظيم الانفعالات
البشرية على حسب تكوين الإنسان ، ذلك كل ما نملك أن نصنعه لتيسير
سعادة كل انسان . أما الباقي فيتوقف على أسباب خارجة عن ارادتنا
وليس لنا عليها أدنى سلطان .





اننا لا نعرف ما هو كنه السعادة فى ذاتها ولا ما هو كنه الشقاء فى ذاته . ولكننا ندرى أن فقدان التوازن والتناسب بين رغباتنا وبين استطاعتنا هو الذى يخلق فينا الشعور بالشقاء .

ان الخيلة التى تجسم لنا رغباتنا خطرة غاية الخطورة . ولكى يسعد الانسان يجب أن يحصر وجوده داخل ذاته ، ويمارس ارادته وحرية داخل نطاق قدرته واستطاعته . ومن هذه الناحية وحدها يمكن أن نقول ان سعادة الطفل هى بعينها سعادة الرجل . فالسعادة فى الحالتين هى عدم الطموح بالرغبات الى ما ليس فى متناول اليد .

وهذه الاعتبارات عظيمة الأهمية . وتجدى فى حل جميع المتناقضات التى توجد داخل النظام الاجتماعى . فهناك نوعان من التبعية : تبعية الأشياء ، والأشياء تابعة للطبيعة . وهناك تبعية البشر ، والناس تابعون للمجتمع .

فأما تبعية الأشياء فهى خالية من الاخلاقيات ، ولا تضر مطلقا بالحرية ولا تنجم عنها رذائل . وأما تبعية البشر فهى مختلة الترتيب ولهذا تنجم عنها كافة الرذائل . فان كان هناك سبيل لعلاج تلك الآفة فى المجتمع ، فهذا السبيل هو تسليح الارادات العامة بقوة حقيقية متفوقة فى الأثر الفعلى على جميع الارادات الفردية .

فلو أن قوانين الأمم كان لها ما لقوانين الطبيعة من صرامة لاستطيع قهرها أى قوة بشرية ، لكانت تبعية الناس شبيهة بتبعية الاشياء . ولاستطعنا أن نجتمع للجمهورية جميع مزايا الحالة الطبيعية والحالة

المدنية .ولاستطعنا أن نجتمع بين الحرية التى تقى الرجل الرذائل ، وبين الاخلاق التى ترتفع به الى مستوى الفضيلة .

ربوا الطفل على تبعية الأشياء وحدها . فانكم بذلك تتبعون سنة الطبيعة نفسها فى نظام تربيته . ولا تضعوا أمام ارادته الطائشة الا عقبات مادية أو عقوبات ناتجة من أفعاله نفسها وبحيث يتذكرها كلما جاءت مناسبتها . فلا لزوم لمنعه من الاساءة ، بل يكفى أن نجعله يمتنع من غير تحريم لفظى . فالتجربة أو العجز هما القانون الوحيد الذى يجب أن يشعر به الطفل . ولا تستجيبوا لرغباته لأنه أعرب عنها ، بل لأنه بحاجة فعلية اليها .

لا ينبغي أن يعرف الطفل ما هى الطاعة حين يعمل ، ولا ما هو التسلط حين نعمل نحن من أجله . بل يجب أن يشعر بحريته فى أفعاله وفى أفعالنا على السواء . ولا تضيف الى ما ينتقصه من قوة الا بمقدار ما يحتاج اليه بالضبط كي يغدو حرا لا متسلطا .

انه حين يتلقى منك خدماتك بشئ من المذلة ، انما يتوق فى الوقت نفسه الى اللحظة التى يمكنه فيها أن يستغنى عن خدماتك ، ويكون له الشرف بالقيام على خدمة نفسه بنفسه .

ولدى الطبيعة وسائل خاصة لتقوية الجسم وتنميته . ولا ينبغي أن نعارض هذه الوسائل مطلقا . ولهذا لا يجوز لنا بأى حال أن نرغم طفلا على المكث حينما يريد الذهاب . ولا أن نرغمه على الذهاب وهو يريد البقاء حيث هو . وحينما لا تكون حرية الأطفال قد أفسدت باخطائنا فى التدليل ، فلن يريدوا شيئا من غير أن تكون له منفعة ظاهرة أو خافية .

يحتاج الأطفال الى أن يقفروا ويجروا ويصيحوا كلما راق لهم ذلك وجميع حركاتهم هذه انما هى فى الواقع احتياجات بدنهم وتكوينهم الذى يريد أن يتقوى بالنشاط والرياضة . ولكن يجب أن نحذر مما

يبدون رغبتهم فيه من غير أن يقدروا على تنفيذه بأنفسهم، أو أن يضطر غيرهم الى عمل ما يرغبون فيه. فعندئذ يجب التمييز بدقة بين الحاجة الحقيقية أو الحاجة الطبيعية، وبين الحاجة المبنية على نزوة بدأت تنبت في رأسه، أو الحاجة التي تنجم عن فرط الحيوية فيه .

وقد أوضحت آنفا ماذا يجب أن نعمل عندما يبكي الطفل كي يحصل على هذا الشيء أو ذاك . وأضيف هنا فحسب أنه منذ يستطيع الطفل أن يطلب ما يرغب فيه باللفظ . يجب اذا عمد الى البكاء لحثك على الاسراع في تنفيذ رغبته أو للتغلب على معارضتك ، أن ترفض تنفيذ تلك الرغبة رفضا قاطعا . أما ان كانت حاجته الحقيقية هي التي أنطقته ، فيجب أن تظن لذلك وتقوم بما طلبه فورا . أما أن تخضع لدموعه ، ففي ذلك حض له على ذرفها باستمرار ، وكأنك تعلمه أن يسىء الظن بحسن نواياك من جهته ، وأن يعتقد أن التهديد أشد تأثيرا فيك من حسن المعاملة .

واعلم أن الطفل متى اعتقد انك غير طيب النفس ، صار شريرا . اما اذا اعتقد انك ضعيف ، فسرعان ما يغدو مستبدا . فيجب أن تلبى عند أول اشارة كل ما لست عازما عزماء أكيدا على رفضه . لا تكن متطرفا متعتا في الرفض . ولكن لا تتراجع مطلقا عن رفضك متى أبديته .

واحذر على الخصوص من تلقين الطفل صيغا شكلية فارغة للتهذيب . فانه سيستخدم ذلك عند الحاجة وكأنه رقية سحرية لاختضاع جميع من يحيطون به وللحصول فورا على كل ما يشتهي .

ان التربية المتحذقة التي درج عليها الاثرياء تجعل الأطفال محبين للتسلط وان يكن ذلك في أدب ظاهري ، لأنهم يعلمونهم الألفاظ التي ينبغي أن يستخدموها حتى لا يجسر أحد على مقاومتهم . ولكن الملاحظ أن هؤلاء الأطفال ينطقون تلك الألفاظ المهذبة بلهجة وسمت لا يدلان

مطلقا على الترجى . بل يكونون وهم ينطقون بألفاظ الرجاء مثلا للعجرفة،
بل ان عجرفتهم فى ذلك الموقف أشد من عجرفتهم وهم يأمرؤن بصراحة.
وكأنهم وهم ينطقون بالرجاء واثقون من الطاعة سلفا .

من أول وهلة يشعر الإنسان وهم يقولون له :

— من فضلك !

انهم يقولون فى الحقيقة :

— من فضلى !

اما أرجوك ، فمعناها على لسانهم آمرك ! فيالها من تربية جميلة وياله
من أدب رائع . ذلك الذى لا يحقق الا قلب مدلولات الألفاظ على ألسنتهم
لأنهم لا يستطيعون أن يتكلموا الا بسلطان !.

أما أنا فانى احاذر أن يكون اميل متعجرفا أشد من محاذرتى أن يغدو
فظا فى أسلوب كلامه . وانى لأوثر ألف مرة أن يقول ببساطة وبرجاء قلبى :

— أفعل هذا .

على أن يقول بأمر وغطرسة :

— أتوسل اليك !

فليس المهم فى نظرى هو لفظ الطلب ، بل الشعور الذى يصاحب اللفظ
وهناك دائما حد وسط بين التفريط والافراط . فأنا أرفض التطرف فى
التشدد كما أرفض التطرف فى التهاون . ومن يترك للأطفال الجبل على
الغارب يعرض صحتهم بل حياتهم للخطر . وكذلك من يحيطهم بصنوف
الحذر ليمنع عنهم كل أذى أو توقع ، انما يعدهم لحياة كلها ضعف وفرط
حساسية . فانك لن تلازم طفلك وهو رجل كى تحميه من الظروف
والحوادث . لذا يجب أن تعده لملاقاتها .

وانى أنصح اذا لم تصب الطبيعة طفلك بأذى فى طفولته ، أن تعمل على
تعريضه لشيء من ذلك بطريقة صناعية / وقد تقول لى انى أقع فيما وقع

فيه الآباء الشرار الذين لمهتم أشد اللوم لتضحيتهم بسعادة أطفالهم توقعا لمستقبل بعيد ، ربما لن يعيشوا ليبلغوه أبدا .

وليس الأمر كذلك . لأن الحرية التي أتيحها لتلميذى ستعوضه تعويضا كريما عن المنغصات الخفيفة التي سأتركه يتعرض لها . وكم اتفق لى أن أرى أطفالا صفارا يلعبون في الثلج وقد ازرقّت أيديهم وعجزوا عن تحريك أناملهم . وليس هناك ما يمنعهم من الذهاب لالتماس التدفئة . ولكنهم لا يفعلون شيئا من ذلك . ولو أكرهناهم عليه لشعروا بضيق من هذا الضغط يزيد ألف مرة على ما يجدونه من قسوة البرد .

فما وجه خوفكم اذن ؟ أتخافون أن أشقى الطفل بتعريضه لشيء من المتاعب التي يريد بطيب خاطر أن يعانيتها ؟ انى أسعى لخيره فى اللحظة الراهنة اذ أتركه حرا . وأسعى لخيره فى المستقبل اذ أسلحه ضد المتاعب التي يجب أن يتحملها . ولو كان له الخيار أن يكون تلميذى أو تلميذكم ، أظنونه يتردد فى الاختيار لحظة ؟

أظنون أن هناك سعادة حقيقية ممكنة لأى مخلوق خارج نطاق تكوينه الطبيعى ؟ أليست تنحية الانسان عن جميع متاعب جنسه البشرى بمثابة اخراج للمرء من طبيعة تكوينه ؟ .

انى أؤكد أنه لا سبيل لتذوق الخير العظيم الا اذا عرفنا جانبا من الشرور الهينة . هذه هى طبيعة الانسان . فاذا كان الجسد على أحسن حال ، فسدت الروح . والشخص الذى لا يعرف الألم لا يمكن أن يعرف الحنان الانسانى ولا عذوبة الرحمة والشفقة . لأن قلبه لن يتحرك لشيء . ولن يكون اجتماعيا . بل سيكون بين نظرائه وحشا أو مسخا .

أتعلم ما هى وسيلة لاشقاء طفلك ؟ أن تعودده الحصول على كل شيء . فرغباته ستزداد باستمرار بسهولة الترضية . وعاجلا أو آجلا ستجد نفسك عاجزا رغم أنفك عن تنفيذ رغبته . فيصدمه هذا الرفض .

الذى لم يتعوده منك ويؤلمه أكثر من الألم الحقيقى للحرمان من رغبته .
انه قد يبدأ بالرغبة فى الحصول على عصاك التى تمسك بها . ثم يطلب
منك ساعتك ، وبعدها سيطلب العصفور الذى يطير فى السماء . وان
حصل عليه سيطلب النجم الذى يراه يلمع فى القبة الزرقاء . سيستهى
بالاختصار كل ما تقع عليه عينه . ولن تستطيع تلبية رغباته كلها ما لم
تكن الها .

ومن طبع الانسان أن يعتبر كل ما فى استطاعته وكأنه ملكه ، والطفل
الذى لا يشتهى شيئا الا حصل عليه ، سيخيل اليه أنه مالك الكون .
وسينظر الى جميع الناس وكأنهم عبيده . فاذا اضطر أحد الى رفض أى
مطلب له ، سيعتبر ذلك الرفض عصيانا لسلطانه . ولن يصدق الاسباب
التي تقدمها له لأنه فى سن لاتزن الأمور بميزان العقل والمنطق . فيعتقد أن
كل تلك الاسباب تعلات أو معاذير . ويفترض سوء النية فى الجميع .
ويشعر بالظلم والغبن شعورا باطلا وهميا ، ولكنه سيورثه الحدة والحقد .
ان الطفل الذى يشعر بالغىظ والحقد وبشهوات لاترتوى لا يمكن بأى حال
أن يكون سعيدا . وكيف يكون سعيدا ؟ انه طاغية ، والطاغية المستبد هو
أذل العبيد وأشقى المخلوقات فى آن واحد .

وقد رأيت بنفسى أطفالا تربوا على هذه الصورة . كانوا يطلبون أحيانا
أن تقلب لهم البيوت ، أو توضع فى أيديهم العصافير الطائرة ، أو الديوك
النحاسية التى فوق قمم الأبراج ، أو أن تقف فرقة عسكرية عابرة ليسمعوا
موسيقاها مدة أطول . فاذا لم تستجب مطالبهم ملأوا الأرض والسماء
صراخا وأبوا أن يصغوا لأى إيضاح أو اعتذار .

وكان الجميع من حولهم ييادرون الى ترضيتهم . فيزدادون تعنتا . وتكون
حياتهم سلسلة متتابعة الحلقات من المشاكل والألم . والغريب أن شعور
هؤلاء الأطفال هو التحسر على أنفسهم . فهل يعتبر هؤلاء سعداء ؟

ان الضعف اذا اقترن بالتسلط لا يلدان الا الجنون والشقاء ،فالطفل المدلل الذى يضرب المائدة انتقاما منها أو يجلد الحائط ،لن يستريح في كبره الا اذا استمتع بكفايته من ضرب الناس أو جلدهم .

واذا كانت أفكار التسلط والطغيان تجعل الناس أشقياء منذ طفولتهم ،فماذا يكون حالهم حين يكبرون وتأخذ صلاتهم بسواهم في الشعب والتعقد والتعدد ؟ انهم سيشعرون بعد أن تعودوا انحاء الجميع أمامهم ، بأن العالم كله صار يقاومهم ،فيتحطمون تحت ثقل الكون الذين خالوا أنه لا يتحرك الا طوع مشيئتهم .

ان هذا الغرور وهذه الوقاحة وهذا الحق لن تجر عليهم الا الازدراء والسخرية والاذلال . وسرعان ما يدركون أنهم لا يعرفون قدر أنفسهم ولا مدى قوتهم الحقيقية . واذ يرون أنهم لا يستطيعون كل شيء يظنون أنهم لا يستطيعون شيئا ، فيمسوا جبنا ، عديمى الثقة في أنفسهم ، ويتبدد الاحساس بالسيطرة احساسا بالذل والمهانة والعجز والهوان .

فلنرجع الى القاعدة الأولية . ان الطبيعة قد جعلت الأطفال على صورة تتطلب أن نجهم ونساعدهم . ولكن أتراها برتهم على صورة تجعلهم مرهوبين مطاعين ؟

هل منحتهم الطبيعة مؤهلات السيطرة ،من جهامة الوجه وقسوة النظرة ،وخشونة الصوت وجهارته ،حتى نخشاهم ونخضع لسلطانهم ؟ . انى أفهم أن ترتعد الحيوانات ذعرا من زئير الاسد ، وأن ترتعد فرقا من لبدته . ولكن ليس أدعى للسخرية والضحك من منظر هيئة من القضاة ، ورؤسهم في مقدمتهم ، وعليهم مسوح التشريرة ، وقد خروا ساجدين أمام طفل فى مهده ، وراحوا يخطبون وده متملقين اياه بالخطب الرنانة ، وهو لا يجيبهم الا بالصراخ ورذاذ اللعب ! .

وإذا نظرنا الى الطفولة فى حد ذاتها ،فهل نجد فى الدنيا مخلوقا أضعف ، أو أشقى ، أو أعجز أو أقل حيلة من الطفل وهو تحت رحمة كل من يحيطون به ،أشد ما يكون حاجة الى الشفقة والعناية والرعاية والحماية ؟.

أليس واضحا لكل ذى عينين أن الطفل يطلع على الدنيا بوجه لطيف رقيق ،وصورة محبة تستهوى قلب كل من يقترب منه وتستدر عطفه عليه ،فيرق له ويهش ويقدم على مساعدته ؟

أى شىء اذن أبعد عن العقل ،وأمعن فى الخطل ،من أن ترى طفلا متغطرسا متحكما متمردا ،يأمر وينهى فى كل من حوله ،يتخذ فى غير حياء سميت المولى المتسلط ،ومع من ؟مع الذين لو تخلوا عنه لهلك لا محالة ! .

ومن جهة أخرى ،من ذا الذى لا يرى أن ضعف الطفولة الأولى يكبل الأطفال من وجوه كثيرة ؟ أفليس من الهمجية اذن أن نضيف الى تلك الوجوه الفعلية وجها جديدا هو الخضوع لنزواتنا .. بأن نحرّمهم من حريتهم الطبيعية الضئيلة ، وهم عاجزون عن اساءة استعمالها ،فضلا عن أن ما نحرّمهم منه ليس فيه نفع لنا ولا لهم ..؟

ولئن كانت غطرسة الأطفال وتحكمهم وطغيانهم أدعى الاشياء للضحك وأشدّها سخافة ،فما من شىء أدعى للاشفاق والرحمة والرثاء ،من طفل نائف .وما دامت العبودية المدنية والاجتماعية تبدأ مع سن الرشد ، فلماذا تتعجل البلاء بأن ترهق الطفل منذ خدائته بالعبودية الشخصية والرق الذاتى ؟ .

أليس من الخير أن نجعل فترة من العمر معفاة من نير العبودية ؟ ألا يكفى أن هذا النير ليس مفروضا علينا من الطبيعة ؟ .

فلتترك للطفولة ممارسة الحرية الطبيعية ، تلك الحرية التي تبعد الأطفال
ولو الى حين عن الرذائل التي نصاب بها حتما تحت نير العبودية .
وليتفضل أولئك المؤدبون القساة وأولئك الآباء الخانعون لأطفالهم ،
وليأتوني باعتراضاتهم على آرائى ، ولكن أوصيهم قبل أن يخالوا
بحججهم الواهية التافهة وأساليبهم السقيمة ، أن يتلمذوا قليلا على
الطبيعة الحكيمة ..



لا تجادلوا الأطفال

وأعود الى التطبيق العملى . فأذكر بما قلته آنفا من أن الطفل لا يجوز أن يحصل على شىء لأنه يريد ، بل لأنه فى حاجة اليه . ولكن يجب أن نراعى أنه اذا كان الألم أحيانا ضرورة لابد منها للحياة ، فان اللذة أو السرور قد تكون أحيانا حاجة حيوية . وما من رغبة للأطفال يمتنع علينا تليتها الا رغبتهم فى فرض سلطانهم . ويترتب على هذا أننا ينبغي أن نطن جيدا حينما يطلب الطفل شيئا الى الباعث الذى يحمله على طلبه . فان كان الطلب لحاجة أو للذة حقيقية فلنبذل وسعنا لاجابته . أما اذا كان الطلب عن نزوة أو لمجرد التحكم وفرض الرأى ، فيجب أن نرفضه دائما . وكذلك يجب أن نحذر من أن يقوم الطفل بأى عمل لمجرد الطاعة ، ولكن لضرورة ذلك العمل فحسب . وهكذا تمجى من قاموسه ألفاظ الطاعة وألفاظ الواجب والالتزام . وثبت فى مكانها من قاموسه ألفاظ القوة والضرورة واللزم والعجز والاضطرار .

وقبل سن الرشد لا توجد معان لهذه المقولات الاخلاقية ولا للعلاقات الاجتماعية ، ولهذا يجب تحاشى استخدام هذه الألفاظ التى تعبر عنها ما وسعنا ذلك ، خوفا من أن يقرن ان طفل تلك الألفاظ بمدلولات خاطئة قد تعجز عن القضاء عليها فيما بعد .

ان أول فكرة خاطئة تتسرب الى رأس الطفل ستكون هى جرثومة الخطأ والشر والعيب . فيجب الحذر كل الحذر من تلك الخطوة الأولى . واعملوا على الا يظن فيما حوله من جميع النواحي الا لما هو بدنى أو مادى . أما اذا أخذتم فى التحدث اليه عن أمور غير مادية . فثقوا أنه لن

يلقى بالا الى ما تقولون ،أو سيفعل ما هو أسوأ ،فيكون في ذهنه للعالم الاخلاقي والروحي الذي تحدثون عنه مفهومات خرافية لن تستطيعوا محوها من ذهنه مدى الحياة .

{ أن مجادلة الأطفال هي مبدأ لوك الأساسي . وهو المبدأ الشائع في هذه الأيام . ولكن رواجه لا يبدو لي حافزا على الثقة به ولم أر في حياتي شخصا أسخف من الأطفال الذين أكثروا من الجدل معهم . فان العقل هو ، من بين ملكات الانسان ، جماع جميع الملكات الأخرى . وهو أيضا أبطأ تلك الملكات وأصعبها نموا . فكيف يمكن أن نستخدمه لتنمية الملكات الأخرى السابقة عليه في النشأة وفي النضوج ؟

ان معجزة أى تربية فاضلة هي تكوين شخص عاقل . فكيف يمكن أن يزعم الزاعمون أنهم يربون الطفل بالعقل الذى لا يتم للرجل الا بعناء ؟ ان ذلك لهو الابتداء بالنهايات ،أو الاقدام على صناعة الآلة من نتاجها !

فلو أن الأطفال ذوو ادراك وعقل حقا ، لما كانوا بحاجة الى تربية . ثم اننا اذا خاطبناهم منذ صغرهم بلغة لا يفهمونها ، تعودوا التعامل بالألفاظ الجوفاء من غير تفطن الى مدلولاتها ، ولخالوا أنهم حكماء مثل أساتذتهم ، ولشجعهم ذلك على الشقاق والتمرد . ولن يمكن الحصول منهم على شيء بعد ذلك الا اذا أرضينا غرورهم أو قرنا الجدل بالتخويف أو الاطراء .

واليكم صورة لما يمكن أن تنتهى اليه جميع دروس الأخلاق التى تلقى أو تلقن للأطفال .

الاستاذ

— يجب ألا تصنع هذا .

التلميذ

— ولماذا يجب ألا أصنعه ؟

الاستاذ

— لأنه عيب أن تفعله .

التلميذ

— عيب ؟ وما هو العيب ؟

الاستاذ

— هو ما يحرم عليك عمله .

التلميذ

— وما الضرر من عمل ما يحرم على عمله ؟ .

الاستاذ

— انك تعاقب للعصيان .

التلميذ

— سأفعله بحيث لا يعلم أحد به .

الاستاذ

— سيراقبوك .

التلميذ

— سأتخفى .

الاستاذ

— سيسألونك .

التلميذ

— سأكذب .

الاستاذ

— لا يجوز أن تكذب .

التلميذ

— ولماذا لا يجوز أن أكذب ؟ .

الاستاذ

— لأنه من العيب أن تكذب .. وهلم جرا .

وهكذا يدور الجدل فى حلقة مفرغة . ان خرجت منها لم يستطع الطفل أن يفهمك . وانى مشتاق أن أعرف ماذا يمكن أن يوضع بدلا من هذا الحوار (وأنا واثق أن لوك نفسه كان حريا أن يضيق ويشعر بالاحراج من هذا الجدل) . والحقيقة أن معرفة الخير والشر ، والاسباب التى تقوم عليها الواجبات الاخلاقية للانسان ، ليست مطاقا من شأن الطفل .

ان الطبيعة تريد أن يكون الأطفال أطفالا قبل أن يصبحوا رجالا . فان كنا نريد أن نقلب هذا الوضع . فسوف ننتج ثمارا قبل أوانها ، ليس فيها نضوج ولا نكهة ، ولا تلبث هذه الثمار الفجة أن يدب اليها الفساد ، نحصل على علماء شبان هم فى الواقع أطفال مسنون . وللطفولة أساليبها فى النظر والتفكير والاحساس ، لا يمكن الاستعاضة عنها . فمن الخرف والعنت أن نحاول استبدال وسائلنا بتلك الوسائل . وقد يكون أقرب الى نفسى أن أطالب للطفل بفراهة فى الطول تبلغ خمسة أقدام ، من أن أطلب له عقلا جدلا فى سن العاشرة . ثم ماذا يجديه العقل الجدل فى تلك السن ؟ ان العقل هو فى الواقع لجام للقوى والملكات . والطفل لا حاجة به الى هذا اللجام .

انك اذ تحاول أن تقنع تلاميذك بواجب الطاعة ، تقرن هذا الاقتناع المزعوم بالقوة وبالوعيد ، أو بما هو شر منهما ، ألا وهو التزلف والوعود . وهكذا يجد الأطفال أنفسهم اما متقادين بالمطامع والمنافع أو مكرهين بالقوة والضغط ، فيتصنعون الاقتناع بالفعل والمنطق . فهم فى الحقيقة يرون أن الطاعة أجدى عليهم ، وأن العصيان أضر بهم . ولكن مادمت لاتطالبهم الا بشيء كرهه الى نفوسهم ، فانهم على كل حال سيجدون غضاظة فى

تنفيذ رغبات الغير باستمرار ،وسيعمدون الى الاستخفاء كى ينفذوا رغباتهم ،مقتنعين بأنهم أحسنوا صنعا ما دام أحد لا يدري ماذا فعلوا ويكونون أيضا مستعدين للاقرار بأنهم أخطأوا اذا ضبطهم أحد ،خوفا من التعرض لأذى أكبر .

ان منطق الواجب لا يلائم سنهم . وكل ما هناك أن الخوف من العقاب والأمل فى الصفح ،والمفاجأة ،والمعجز عن الاجابة ،كل ذلك ينتزع منهم الاعترافات المطلوبة . فيظن المرء أنه أقنعهم ، مع أنه ضايقهم ، وأخافهم . وماذا يترتب على ذلك ؟ .

يترتب عليه أولا ،إنك اذا فرضت عليهم واجبا لا يميلون اليه ،سيسعرون بالضيق من طغيانك ،وينصرفون عن محبتك . بل وستعلمهم أيضا الرياء والخداع ،والكذب ،كى ينتزعوا منك المكافأة أو يتهربوا من العقاب . ومتى تعلموا أو تعودوا تمويه دوافعهم الخفية بدوافع ظاهرية ، مهدت لهم الوسيلة بنفسك كى يستغفلوك دائما ،ويخفوا عنك حقيقة اخلاقهم وطباعهم ،معتمدين على قدرتهم على التخلص فى الوقت المناسب بكلمات جوفاء .

وقد يقال ان التوانين مع أنها ملزمة بذاتها للضمير ، الا أنها تستخدم كذلك للضغط والرغبة مع الرجال البالغين ، وأنا مسلم بهذا . ولكن من هم هؤلاء الرجال ؟ ما هم الا أطفال أفسدتهم التربية الخرقاء ! وهذا الافساد الذى يجعل الطفل حين يكبر مناهضا للقانون بأخلاقه وطباعه ، هو الذى أنادى بوجوب توقيه . ولذا أقول لكم استخدموا القوة مع الأطفال والعقل مع الرجال ، فهذا هو نظام الطبيعة وترتيبها . والحكيم ليس بحاجة الى قوانين .

عاملوا التلميذ بما يوافق عمره . وضعوه أولا فى مكانه الطبيعى ، ولا تحاولوا اخراجه منه ، ولا تسمحوا له بالخروج منه . . .

وقبل أن يعرف ما هي الحكمة، سيمارس التلميذ أهم درس من دروسها . لا تأمره مطلقا بشيء مهما كان . ولا تدعوه حتى أن يتصور أنكم تزعمون لأنفسكم أى سلطان عليه . فليعلم فحسب أنه ضعيف وانكم أقوياء . وانه بحكم ذلك الوضع تحت رحمتكم بالضرورة . ليعلم هذا وليتعلمه وليشعر به . نعم فليحس منذ وقت مبكر بوطأة نير الطبيعة الثقيل الذى تفرضه الطبيعة على الانسان ، وهو نير الضرورة الذى لا بد أن ينوء به كل منا . وليشهد تلك الضرورة فى الأشياء ، لا فى بدوات الرجال على الإطلاق . وليكن اللجام الذى يحتجز هو القوة لا السلطة . على أن الطفل يعتبر كل ارادة مناعضة لارادته نزوة ، اذا لم يعرف لها سببا .

أما ما يجب أن يمتنع عن اتيانه ، فلا تحرمه عليه بالكلام ، بل امنعه من عمله بغير ايضاح ، وبغير مجادلة . وما تريد أن تسمح له به اسمح له به عند أول طلب من غير الحاح أو توسل . بل وعلى الأخص من غير شروط . اذا سمحت فعن طيب خاطر ، واذا رفضت فعلى مضض . ولكن اجعل رفضك دائما قاطعا لا رجعة فيه . ولا تتزحزح أمام توسلاته أو تهديداته . ولتكن كلمة «لا» سورا من القولاذ تبدد جهود الطفل دون التأثير فيه ، وبهذا لن يحاول بعدها أن يتصدى لتغيير تلك الكلمة .

انك بهذا تجعله انسانا صبوراً ، مستقر النفس ، هادئاً ، حتى ولو لم يحصل على ما كان راغباً فيه . فمن طبيعة الانسان أن يتجلد صابراً لضرورات الأشياء ، وللضرورة أحكامها النافذة كما يقولون ، ولكن ليس من طبيعة الانسان أن يتجلد صابراً لتحكم ارادة الغير السيئة فيه .

ان عبارة مثل :

— لقد نضب هذا الشيء ولم يعد عندنا منه .

لا يمكن أن تدفع طفلاً سوياً للتمرد الا اذا اعتقد أنها أكذوبة . ثم انه

لا مجال هنا لحل وسط . فاما ألا تطالبه بشيء مطلقا ، واما أن تحمله على الطاعة التامة منذ البداية . وأسوأ تربية على الإطلاق هي أن تترك التلميذ متأرجحا بين ارادته وارادتك ، وبين أهوائه وأهوائك ، وأن ينشب النزاع بينكما باستمرار على من منكما يكون السيد المطاع . فاني أفضل على ذلك ألف مرة أن يكون هو السيد في جميع الاحوال .

لا ينبغي أن نلقن التلميذ دروسا لفظية . فالتجربة وحدها هي التي يجب أن تتولى تعليمه وتأديبه . فالتربية الأولى ينبغي إذا أن تكون تربية سلبية خالصة . ولا يجب أن يفوتنا أمر مراقبة طبيعة الطفل وسلوكه كي نكشف بدقة عن المزاج الخاص للتلميذ .



مبادئ الأخلاق الاجتماعية

ولما كانت تربية اميل تتم بعيدا عن طفمة الخدم، فسوف لا يكتسب عادات وبيلة . ومع هذا فليس من الممكن ابعاده ابعادا تاما عن القدوة السيئة . ولكن تعرضه للقدوة السيئة أحيانا ليس شرا محضا . اذ يكفي أن نجعل تلك القدوة تبدو له مقبولة ومنفردة .

ان أول واجباتنا هي واجباتنا نحو أنفسنا واحساساتنا الأولية تتركز في ذواتنا ، وحر كاتنا الطبيعية تتجه أولا الى حفظنا وهنائنا وسلامتنا .

وعلى ذلك يكون أول شعور بالعدل ليس شعورنا بما يجب علينا بل آتيا من شعورنا بما يجب لنا . وانها لاحدى تخططات التعليم الشائع والتربية السائدة أن يكلموا الأطفال أولا عن واجباتهم ولا يحدثوهم مطلقا عن حقوقهم . فهم بهذا يبدأون بقول عكس ما ينبغي ، ولهذا لا يستطيع الأطفال أن يفهموا ما يقال لهم . فهم لا يفهمون ما لا يعنيههم ويشير اهتمامهم .

ولو كان الأمر بيدى أنا لحدثت نفسى قائلا :

— ان الطفل لا يهاجم الناس . ولكنه يهاجم الأشياء . وسرعان ما يتعلم بالتجربة أن يحترم كل من هو أكبر منه سنا وقوة . ولكن الأشياء لا تستطيع الدفاع عن نفسها . فأول فكرة يجب تلقينها له ليست الحرية بل الملكية . ولكى يستطيع ادراك هذه الفكرة ، يجب أن يكون لديه شيء يملكه لنفسه خاصة .

وليس المقصود بتعليم الطفل هنا أن نعين له أثاثا ولعبا . فهذا لا يعنى شيئا لديه . فانه مع استعماله لهذه الأشياء لا يدري لماذا ولا كيف

صارت ملكا له . فان قلنا له أنها ملك له لأنها أعطيت له ،فليس فى ذلك مزيد من الايضاح لأن من يعطى شيئا يجب قبل هذا أن يملك الشيء . فكأن من أعطاه الشيء كان يملكه من قبله .ومبدأ الملكية بالذات هو ما يراد توضيحه له . فضلا عن أن الهبة مواضعة اصطلاح عليها المجتمع ، والطفل ليس فى سن تسمح له بعد بفهم ما هى المواضعات .

وأرجو من القراء أن يلاحظوا فى هذا المثل بالذات وفى مائة ألف مسألة مشابهة لهذه ، كيف أن رأس الطفل قد يحشى حشوا من الألقاظ التى لا معنى لها اطلاقا لديه ، ثم يظن مع ذلك أننا أحسنا تثقيفه .

فيجب اذن الرجوع الى الأصل فى الملكية .فهناك سنجد الفكرة الأولى التى نبتت منها الملكية .وما دام الطفل قد عاش فى الريف ،فلا بد أنه سيعرف ان لم يكن يعرف فعلا معلومات عن الأعمال الزراعية . فليس يلزم للاحاطة بهذه المعلومات الا الفراغ ،وعينان .والطفل له هذا كله .ومن شأن الانسان ولا سيما فى مرحلة الطفولة أن يميل الى الخلق والتقليد والانتاج ،والاعراب بذلك عن قدرته ونشاطه .فمن المتوقع أن الطفل حين يرى من يزرعون الحديقة وهم يبذرون ويتعهدون الخضراوات ،أن يرغب فى زراعة جزء من الحديقة بنفسه .

وعلى أساس المبادئ التى بينتها آتفا سوف لأعارض هذا الميل فيه ، بل بالعكس سأشجعه ، وسأقاسمه هوايته وأعمل معه ، لا للذته هو بل للذتى أنا .أو على الأقل هذا ما سأجعله يعتقد .فأصبح معاونه فى فلاحة البستان وأقلب معه الأرض بالنفأس حين تعجز ذراعه عن ذلك . ثم يزرع حبة فول . ويتعلم معنى الملكية بهذا العمل . ولا شك ان احساسه بملكية هذه النبتة أقدم وأشد احتراما عنده من احساس المكتشفين بملكية الاراضى المكتشفة لدولهم لمجرد قيام المكتشفين بغرس أعلام تلك الدول فى تربتها .

وطبعا سيعود الطفل لرى الفول ، وكلما رآه يرتفع تملكه السرور العظيم . فأزيد من سروره بأن أقول له :
— هذا ملكك .

وأشرح له عندئذ لفظ الملكية ، وانه ثمرة لما بذله من وقت ومن عمل ومن جهد ، أى أنه ثمرة لما بذله من نفسه فى انتاج ذلك الشيء . ففى هذه البتعة من الأرض جزء من نفسه يحق له أن يطالب به ضد كائن من كان ، كما يحق له أن يسحب ذراعه من يد رجل آخر يريد الاحتفاظ به رغم ارادته .

وذات يوم يأتى اميل مسرعا متلهفا والرشاشة فى يده . ولكن ياللمصيبة ! لقد اقتلعت جميع نباتات الفول ، وقلبت الأرض ظهرا لبطن ، ولم يعد أحد يعرف معالم الموضع .

— آه ! أين ذهب عملى وانتاجى وثمره رعايتى وعرقى ؟ من الذى سلبنى ملكى ؟ من أخذ فولى ؟

ان قلبه الصغير تأثر . وهذا أول احساس له بالظلم يرسب فيه مرارته الأسيفة . وها هى الدموع تنهم مدرارا ، والطفل المحزون يملأ الجو بأينه وصراخه . فأشاركه فى ألمه واستنكاره . وأبحث وأستخير وأحقق . وأخيرا أكتشف أن البستاني هو الذى فعل هذه الفعلة . فأستدعيه .

وعندما يعرف البستاني الموضوع ، يجأر بالشكوى أكثر منا :

— ما هذا أيها السادة ! هل أنتم الذين أفسدتم عملى ؟ لقد كنت زرعت فى هذا المكان شماما مالطيا لم أحصل على بذرته الا بعناء شديد وكنت أحرص عليها كأنها كنز لا يعوز ، راجيا أن أتخفكم بشمارها عندما تنضج . ولكنكم فى سبيل زراعة هذا الفول الحقيق ، أتلفتم زراعتى . ولن أستطيع تعويضها . انكم أذيتمونى أذى لا يمكن إصلاحه ، بل وحرمتهم أنفسكم من فاكهة شهية .

جان جاك

— اسمح لى يا عزيزى روبر أن أقول لك انك وضعت هنا
عملك وجهدك وتعبك . وأنا مقتنع اننا أخطأنا حين أفسدنا عملك . ولكننا
سنأتيك ببذرة أخرى من ذلك الشام . وسوف لا نزرع بعد هذا أرضا
قبل أن نعرف هل وضع أحد يده عليها قبلنا أم لا .

روبير

— اذن أيها السادة يحق لكم أن تركنوا للراحة ، لأنه لم تعد في الحديقة
قطعة أرض خالية من زراعة . وجميع الأراضي التي ترونها مشغولة
بالبازعين .

اميل

— ياسيدى روبر . هل تضيع عليكم بذور كثيرة من الشام ؟ .

روبير

— عفوك أيها الشاب الصغير . ولكننا لا نرى هنا كثيرين من السادة
الصغار الذين يفعلون ما فعلت . فلا أحد هنا يمس حديقة جاره . وكل
واحد يحترم عمل الآخرين حتى يظل عمله مصونا فى أمان .

اميل

— ولكن أنا ليس عندى حديقة .

روبير

— وما أهمية ذلك ؟ اذا أفسدت حديقتى فسوف لا أسمح لك بالتزهر
فيها . لأننى كما ترى لا أحب أن يضيع تعبى سدى .

جان جاك

— ألا يمكن أن تقترح على روبر تسوية مناسبة ؟ لماذا لا يمنحنى أنا
وأنت يا اميل ركنًا من حديقته نزرعه على أن يكون له نصف المحصول ؟ .

روبير

— أوافق بلا تحفظ . ولكن تذكروا أنني سأحرث فولكم اذا مسستم
شمامى . ليكن هذا مفهوما .

* * *

هكذا تكون محاولة تفهيم الأطفال عمليا المعلومات الأولية . وبهذا
سيرى كيف تنتهى فكرة الملكية بطبيعتها الى حق أول من شغل الارض
بعمله . وهذا معنى واضح بسيط ، وفى متناول الطفل دائما . وليس بين
هذا المعنى وبين ادراك حق الملكية ونظرية التبادل التجارى الا خطوة
واحدة ، وبعدها يجب الوقوف عند ذلك الحد فى تعريف الطفل بالملكية .
وواضح أيضا أن الشرح الذى يئته هنا فى سطور ربما يستغرق
تنفيذه العملى سنة من الزمن . لأن المعانى الاخلاقية والافكار الادبية
والمعنوية يجب تكوينها وتنميتها ببطء شديد جدا مع التثبت من رسوخ
كل خطوة .

أيها المعلمون الشبان ! أرجوكم أن تفكروا فى هذا المثل . وتذكروا أن
جميع دروسكم من جميع النواحي يجب أن تكون بأعمال لا بأقوال . لأن
الأطفال ينسون بسهولة ما قالوه وما يقال لهم . ولكنهم لا ينسون
بسهولة ما عملوه وما عمل بهم .

وهناك مسائل مماثلة يجب الاهتمام باعطائها للطفل قبل هذه المسألة
أو بعدها على حسب التقدم الطبيعى للطفل ، ومدى هدوئه أو حيويته .
فهذه العوامل الطبيعية هى التى تبكر بحاجته الى هذه المعلومات أو
تؤخرها . ولكن حتى لا نكون قد أغفلنا أى شىء هام فى هذه الأمور
الصعبة ، سنقدم مثالا آخر .

نفرض أن طفلك يشاكس يفسد كل ما يمسه يده . لا تغضب منه . بل
ضع بعيدا عن متناول يده كل ما يمكن أن يفسده . وإن كان يحطم الأثاث

الذى يستخدمه فلا تبادر الى اعطائه أثاثا جديدا . بل دعه يحس بضرر الحرمان منه . وان كان يحطم نوافذ حجرة نومه الزجاجية ، فدع الريح تهب عليه ليلا ونهارا غير مكترث بما يصيبه من نزلات البرد ، لأنه من الخير ألف مرة أن ينشأ مزكوما من أن ينشأ مجنونا أو معتوها .

لا تتدمر مطلقا من المضايقات والمقلقات التى يسببها لك ، ولكن اجعله هو يشعر بآثارها أكثر منك ، وأخيرا أصلح زجاج النافذة من غير أن تقول كلمة واحدة فى الموضوع . فان عاد الى تحطيمها ، فقل له بجفاء ولكن بلا انفعال :

— النوافذ ملكى أنا . فقد أنشأتها بعنايتى وجهودى . وأريد أن أصون سلامتها .

ثم بعد ذلك خذه بهدوء واحبسه فى الظلام فى مكان ليست به نوافذ . وبطبيعة الحال سيفاجأ بتلك التجربة الجديدة ويبدأ فى الصياح والصراخ كأنه زوبعة . فلا تدع أحدا يظهر أنه يسمعه . وسرعان ما يمل ويغير لهجته . ويأخذ فى البكاء والتحسر على نفسه والأنين . فاجعل خادما يذهب اليه . فينتهز المتمرد الفرصة ويتوسل اليه أن يطلق سراحه وينقذه من الحبس . وعلى الخادم الا يتعلل بأى عذر ، بل يقول له صراحة وبايجاز :

— أنا كذلك عندى زجاج فى نافذتى يهمنى أن يبقى سليما .

ثم يتركه وينصرف . وبعد أن يقضى الطفل بضع ساعات ينهكه فيها الملل ويتذكر اثرها طويلا ، يقترح عليه أحد الخدم أن يعرض عليك الاتفاق على معاهدة تطلق بموجبها سراحه ، على أن يتعهد بعدم كسر الزجاج . وطبعاً سينتهز هذه الفرصة ويتوسل اليك أن تقابله . فاذهب اليه وليقدم اليك اقتراحه وعليك أن تقبله فوراً وتقول له :

— هذا تفكير سليم . وسنكسب منه كلانا . لماذا لم تفكر فى تلك الفكرة الجميلة من قبل ؟ .

ولا تطلب منه أيمانا مغلفة ولا توكيدات لوعده ، بل قبله بسرور
وخذه فى الحال الى حجرته ، واعتبر ذلك الاتفاق مقدسا غير قابل للنقض
كأنه أقسم عليه أغلظ الايمان .

وماذا تظن أنه سيفيد من سلوكك هذا ؟؟ انه سيدرك قيمة التعهدات
ومدى منفعتها . أليست هذه التعهدات نقلت حالته من النقيض الى النقيض ؟
وأخالنى مخطئا جدا لو أن طفلا واحدا على وجه الأرض كلها ، بشرط
ألا يكون أفسده التدليل من قبل . يمكن بعد مثل تلك التجربة أن يقدم
على كسر زجاج نافذة عمدا .

تأملوا تسلسل هذا الاسلوب فى المعاملة .

ولا أحب أن أترك هذا الموضوع من غير أن أنبه الى مسألة هامة جدا .
لا تسمحوا مطلقا للطفل أن يعامل الكبار كأنهم أقل منه أو أنداده ، فإذا
تجاسر على ضرب أحدهم جادا ، حتى ولو كان خادمه الخاص ، فاحرص
على أن يرد اليه الصاع صاعين ، بحيث يتوب عن هذا الفعل ولا تحدثه
نفسه بالرجوع اليه .

وقد رأيت بعينى مربيات طائشات يستشن غضب الأطفال ، ويخفزنهم
على ضربهن ، ويتركنهم يضربونهن ، ضاحكات من لكماتهم الضعيفة ، غير
مدركات أن هؤلاء الأطفال يكونون عندئذ قتلة سفاحين من حيث النية
والطوية ، وإن من يضرب الناس وهو صغير ، يقدم على قتلهم وهو كبير .

وها نحن أولاء قد وصلنا الى دنيا الاخلاق . وبمعنى آخر ها هو الباب
أضحى مفتوحا أمام الرذيلة . فمع المواضعات والواجبات تولد الخديعة
وتولد الاكذوبة . ومتى استطاع المرء أن يعمل ما يجب الا يعمل ،
فيسعى الى اخفاء ما لم يكن ينبغى أن يفعله . ومتى أغرت مصلحة المرء

أن يقطع عني نفسه وعدا ،فمصلحة أكبر من الأولى يمكن أن تغريه بالحنث بوعده .ولن يكرهه العقاب على الحنث ،فهناك ملاذ طبيعي من العقاب ، وهو التستر والكذب .

وما دمننا لم نستطع التوقي من الرذيلة قبل وقوعها ، فها نحن قد وصلنا الى درك العقاب عليها بعد حدوثها .وهذه هي مأساة الحياة البشرية وأنواع نكباتها التي تبدأ كلها من هذا الخطأ الأول ،خطأ ترك الرذيلة تتسرب الى الطفل .

وأظنني قلت مافيه الكفاية للأفصاح عن دعوتي ألا يصب على الأطفال عقاب من حيث هو عقاب ، بل يجب أن يحدث العقاب لهم كما لو كان نتيجة طبيعية لسوء فعلهم . وبذلك يجب ألا تنددوا بالكذب ، ولا أن تعاقبواهم لأنهم كذبوا ، بل ترتبوا الأمور بحيث ان جميع الآثار السيئة للكذب تتجمع فوق رؤوسهم ، كأن لا يصدقهم أحد حين يقولون نأ ، وأن يتهموا بذنوب لم يترفوها وان دافعوا عن أنفسهم بحرارة ، ولكن لنين أولا ما هو الكذب عند الطفل ...

هناك نوعان من الكذب : كذب ينصب على الواقع ،أو على ماوقع فعلا .وكذب ينصب على النية ،أو على ما سيقع مستقبلا . والنوع الأول هو أن ينكر الطفل عملا قام حقا ،أو يدعى عملا لم يقم به حقا .أو بعبارة أخرى أن يقول الطفل خلاف الواقع قصدا وعن علم ودراية . والنوع الثاني هو أن يعد الطفل بما في نيته ألا يقوم به ، أو بعبارة أخرى أن يظهر الطفل خلاف نيته . وقد يجتمع النوعان أحيانا في عبارة واحدة ، كأن يتهم الطفل بخطأ معين ، فينفى أنه فعله ويدافع عن نفسه بأنه برىء شريف . ولكن الذي يعنيني الآن هو الفرق بين النوعين .

ان من يحس بحاجة الى مساعدة الآخرين له ، ويشعر دائما بحسن نيتهم نحوه ، لا مصلحة له في خداعهم . بل بالعكس لديه كل المصلحة في

أن يروا أموره كما هي ، حتى لا يخطئوا خطأ يسىء اليه . فواضح اذن أن الكذب الفعلى برواية خلاف الواقع ليس طبيعيا فى الأطفال . ولكن قانون الطاعة هو الذى يشر الكذب بالضرورة . ذلك ان الطاعة مؤلمة ، فيعمد الطفل الى التحلل منها فى الخفاء قدر استطاعته . ثم يغلب المصلحة العاجلة الحاضرة فى التهرب من العقاب ، على مصلحته الباقية أو البعيدة المدى فى قول الحقيقة .

اما اذا كانت تربيتك له طبيعية وحرية ، فلماذا اذن يكذب . وماذا يحتاج أن يخفيه عنك ؟ انك لا تؤنبه ، ولا تعاقبه ولا ترغمه على شىء . فلماذا لا يقول لك كل ما فعله بكل بساطة ، كما يرويه لصديق من سنه ؟ انه لا يرى خطرا فى رواية الأمر لك على وجه دون الآخر ...

اما الكذب بالنية ، أو الختل ، فليس طبيعيا أيضا . لأن الوعود بالعمل أو بالامتناع ان هى الا مواضع خارجة عن نطاق الطبيعة ، ومقيدة للحرية . ثم ان كل وعود الأطفال باطلا من تلقاء نفسها ، ذلك أن نظرهم القاصر لا يمكن أن يتجاوز نطاق الحاضر . وهم حين يقطعون وعودا على أنفسهم لا يعرفون ما هم فاعلون . ولهذا فهم لا يعتبرون كاذبين حين يعدون بشىء ، لأنهم لا يفكرون الا فى الخلاص من الموقف الحرج حاليا . وكل وسيلة لا علاقة لها بالوقت الحاضر ليست لها قيمة فى نظرهم . فهم حين يعدون بشىء يتعلق بالمستقبل ، يعدون بشىء معدوم ، أو بلا شىء . لأن مخيلتهم القاصرة لا تستطيع أن تمتد وجودهم الى زمانين مختلفين . ولو أنهم وجدوا وسيلة النجاة من الضرب أو الحصول على قطعة حلوى هى الوعد بالقضاء أنفسهم من النافذة غدا ، لما ترددوا فى الوعد بذلك . ولذا عندما يصر الآباء والاساتذة القساة على أن ينفذ الأطفال وعودهم ، فلا يكون ذلك بسبب الوعد ، بل لأن تلك الافعال كان يجب أن يفعلوها على ذلك النحو ، حتى ولو لم يسبق منهم فيها وعد .

ويترب على ما سبق أن كذب الأطفال إنما هو ثمرة أساليب الاساتذة،
التي تعلمهم الكذب من حيث يراد تعليمهم الصدق . وللهفتهم على تعليم
تلاميذهم وتكميلهم بالفضائل ، يصبون عليهم موعظ وأمثالا لا أساس
لها عند الطفل من الادراك أو التجربة ، ووصايا لا سند لها ولا مبرر ..
أما أنا ، فليست طريقتي في التربية الا الممارسة العملية للحياة ،
والدروس العملية للفضيلة ، ومرادى أن يشب تلميذى طيبا فاضلا ومتعلما ،
ولذا لا أطلبه مطلقا بالصدق ، حتى لا يضطر الى اخفاء الحقيقة ، ولا
أطلبه أن يعدنى بعمل شيء ، خوفا من أن يحث بوعده . وإذا حدث فى
غيابى أى خطأ أجهل فاعله ، فسأخرج أن أسأل اميل :
— أهو أنت ؟.

فليس لسؤالى هذا فائدة الا أن أعلمه الانكار . وما من سؤال أشد
ثقلا من هذا السؤال ولا سيما حين يكون الطفل مذنبا . لأنه سيدرك
فورا أنك تعلم أنه الفاعل ، وإنك بهذا السؤال إنما تنصب له فخا . وهذا
وحده كاف لتغيير قلبه عليك وإذا لم يبد عليك أنك تعرف الفاعل ، فسيقول
فى نفسه « ولماذا أطلعه على خطئى مادمت أستطيع كتمانته عنه ؟ » وهذا
أول اغراء له بالكذب .

وحينما تضطرنى طبيعته الشموس أن أعقد معه اتفاقا ، سأعد خطئى
بحيث يصدر الاقتراح منه هو دائما . لامننى اطلاقا . لأنه عندئذ سيكون
صاحب مصلحة فى البر بوعده . وإذا حدث أن حث ، سيشعر أن ذلك
جر عليه آثارا طبيعية لخطئه ، لا انتقاما جائرا من مريه .

ولكنى لا أظننى سأضطر الى مثل تلك الاجراءات القاسية ، لانى
أعتقد أن اميل لن يتعلم ما الكذب الا فى وقت متأخر جدا . وانه حين
يعرف ما هو سيتعجب جدا ، لأنه سوف لا يتصور ماذا يمكن أن يجنى

المرء من الكذب . فمن الواضح أننى كلما أشعرت به باستقلاله ، قضيت على كل مصلحة له فى الكذب .

وحينما لا يكون الانسان فى عجلة من امره للتعليم ، لا يكون كذلك فى عجلة من أمره للالزام والمطالبة والفرض ، بل يتمهل المرء حتى لا يفرض على تلميذه شيئا فى غير أوانه . وهكذا يتكون التلميذ من غير أن يفسد كيانه . ولكن عندما يكون المؤدب طائشا ، يتسرع ويتعجل ، ويطالب تلميذه كل آن بوعده جديد ، بلا تمييز ، ولا تخير ، ولا اعتدال ، فيتضايق الطفل من كل هذه الوعود ، ويهملها أو ينساها حقيقة ، بل ولعله يزدريها لما تبدو له بها من شكلية جوفاء ، فيتلهى بالوعد كى يخلفه ، وبالعهد كى ينتقضه . فان أردتم للطفل أن يكون أمينا على وعوده بارا بها ، فلا تفرطوا فى اقتضاؤه الوعود ...

وما ذكرته بصدد الكذب يمكن تطبيقه من وجوه كثيرة على الواجبات الأخرى التى لا يوصى بها الأطفال عادة الا بطريقة لا تجعل تلك الواجبات كريهة الى نفوسهم فحسب ، بل وعسيرة التنفيذ أيضا . فكأننا حين نبشرهم بالفضيلة ، نحملهم على حب الرذيلة ، اذ تقدم اليهم هذه الرذيلة أو تلك حين ننهاهم عنها ، فيذهب التحريم ويبقى التعريف .

اننا مثلا حين نريد منهم أن يكونوا أتقياء ، نأخذهم ليضجروا ويسأموا فى الكنائس ، وهم يهتممون بأدعية وصلوات ، فتتوق أنفسهم طبعاً الى سعادة الانقطاع عن التوجه لله بالصلوات ! .

وحين نريد أن نعلمهم الصدقة ، نجعلهم يتولون عنا اعطاء الصدقات للفقراء ، كأننا نأنف أن نقوم بهذا العمل بأنفسنا . وليس الواجب أن يعطى التلميذ الصدقة بل الاستاذ . ومهما كان تعلقه بتلميذه ، يجب الا يسمح له بذلك ، لأنه يجب أن يفهم أنه وهو فى تلك السن ليس جديرا بعد

بهذا الشرف ، فالصدقة عمل يقوم به شخص يعرف جيدا قيمة ما يعطيه ، ومعنى حاجة أخيه المحتاج الى ذلك العطاء . والطفل لا يعرف شيئا من هذا كله بعد ، فليس له فضل في اعطاء الصدقة ، وهو اذ يعطيها يعطيها بغير معناها السامى وخيريتها . بل لعله يعطيها وهو يشعر بالخجل من العطاء ، لأنه ربما ظن من تكليفك اياه دواما بذلك أن الأطفال وحدهم هم الذين يتصدقون ، اما الكبار فلا ..

ونلاحظ أن الطفل عادة يكلف باعطاء أشياء لا يفقه قيمتها . فما النقود لديه الا قطع من المعدن موضوعة في جيبه ، وليست لها فائدة في نظره الا أنها تملأ فراغ جيبه . وأنا واثق أن الطفل قد يعطى مائة جنيه ولا يفرض في قطعة حلوى . فحاولوا أن تجعلوا هذا السخى في عطائه يعطى أشياء عزيزة على نفسه ، أثيرة عنده ، لا يجب فراقها ، مثل ألعابه ، وحاواه ، وما يتفكه به أو يتخلل الوجبات من طرف الطعام ، وعندئذ سنرى مبلغ كرمه الحقيقى من كرمه المزعوم (١) .

ولاحظت أيضا أنهم يردون بسرعة الى الطفل ما أعطاه ، فيتعود الا يعطى الا ما هو واثق من رده اليه ، أو رد مثله اليه . ولم أر أطفالا يسخون بما فى أيديهم الا هذين الضريين من السخاء : اما باعطاء ما لا حاجة بهم اليه ، أو ما يعلمون أنه مردود اليهم .. فالواجب أن ننظر فى هذه الاخلاقيات الى عادات النفس لا الى حركات اليد . وكل الفضائل التى يعلمونها للأطفال يعلمونها لهم بهذا الاسلوب . وهو اسلوب عكسى . ومع هذا يبلون حدائة الأطفال بتلك المواعظ المسئمة ! فيالها من تربية رشيدة ! .

دعوا هذا التصنع أيها الأساتذة ، وكونوا أنفسكم فضلاء صالحين ،

(١) ما أشبه هذا بقول الله فى كتابه الكريم : « ويطعمون الطعام على حبه » . الآية

حتى تنطبع قدوتكم الفاضلة الصالحة في أذهان تلاميذكم ، انتظارا
لتسربها الى قلوبهم الغضة ...

وأنا شخصيا بدلا من أن أتسرع فأطالب تلميذى باعطاء الصدقات ،
أفضل أن أقوم أنا بالتصدق على مرأى منه ؛ بل وسأمنعه من تقليدى في هذا
المضمار ، باعتبار هذا العمل شرفا لا يناسب سنه . لأنه يجب الا ينظر الى
واجبات الرجال كما لو كانت واجبات أطفال .

ولكن طبعاً حين يرانى أتصدق ويسألنى لماذا أساعد هؤلاء الفقراء ،
قد أجيبه — اذا قدرت أنه سيفهم كلامى — قائلا :

— المسألة يا صديقى ، انه مادام الفقراء قد سحوا بأن يكون هناك
أغنياء ، فقد وعد الأغنياء أن يطعموا كل من لا يجدون القوت
ولا يستطيعون العيش من أملاكهم أو ثمره عملهم .
فان سألتنى اميل :

— وهل وعدت أنت أيضا بذلك ؟

سأقول له :

— بغير شك ، فأنا لست صاحب ما فى يدي من مال ، الا بهذا
الشرط الذى تتعلق به كل ملكية !.

وبعد مثل هذا الحوار ، اذا استوعبه الطفل جيدا ، سيبرز للوجود
اميل آخر ، يهتم بتقليدى فى الاحسان قياما بواجب الاغنياء . ولن يكون
ذلك بدافع التفاخر ، بل ربما تخفى كى يقدم الاحسان . ومع أن ذلك
يعتبر فى سنه خداعا الا أنه الخداع الوحيد الذى أغتفره له .

وأنا أعلم أن كل فضيلة تقوم على التقليد انما هى فضيلة قروء . وما من
عمل طيب يعتبر طيبا من وجهة نظر اخلاقية الا اذا قام الانسان به لذاته ،
وعن وعى به ، لا لأن الآخرين يقومون به . ولكن فى تلك السن التى
لا يعنى القلب فيها شيئا ، ولم يحس بعد بشيء ، يحسن أن نجعل الأطفال

يقلدون ما نريدهم أن يتعبدوه ،الى أن يأتى الوقت الذى يميزون فيه الخبيث من الطيب ،ويفرون بين الاشياء ومشبهاتها ،ويقدمون على الاعمال الخيرية جبا للخير ذاته .

ان الانسان مقلد ،وكذلك الحيوان مقلد ،وحب التقليد جعلته الطبيعة فى حدوده شيئا طيبا ،ولكنه يفسد فى المجتمع ويصبح شرا ورذيلة . فالقرد مثلا يقلد الانسان الذى يخشاه ،ولا يقلد الحيوانات التى يحتقرها . لأنه يرى أن ما يفعله كائن أفضل منه لا بد أن يكون خيرا . اما نحن معاشر الناس ،فان المهرج منا يقلد كل ماهو جميل ليمسحه ويجعله هزأة . وحتى اذا قلد الواحد منهم شيئا يكن له الاعجاب ،قلده بفساد ذوق ،لأنه تقليد مبعثه التظاهر واستجداء التصفيق ، وليس مبعثه حب الكمال واكتساب الحكمة والفضل .

ان أساس التقليد عندنا صدوره عن الرغبة فى الخروج من الذات ،أى الرغبة فى التظاهر والتصنع . اما أنا ،فان قيص لى أن أنجح فى عزيتى ، فان ينطوى اميل على تلك الرغبة .

ان غالبية قواعدنا الاخلاقية مبنية على تناقض . والوصية الوحيدة التى تناسب الأطفال من كل الوجوه هى « الا يسيئوا الى أحد » .. فان جميع الناس يفعلون الخير أحيانا ،ولكن القليلين منهم جدا هم الذين لا يسيئون الى أحد مطلقا . وهؤلاء وحدهم هم الفضلاء بمعنى الكلمة .



دراسة اللغات ومدى جدواها للطفل

لدى الامهات اتجاه الى المبالغة فى تقدير ذكاء أطفالهن . فى حين أن الأطفال فى الأغلب الأعم طائشون ، وذلاقتهم سطحية . ولا يفهمون شيئا الا اذا كانت له صلة مباشرة باهتماماتهم ولمصالحتهم . وفيما عدا هذا لا تكون للأفكار أية قيمة لديهم ، ولا يعون منها الا ألفاظا .

أجل هناك استثناءات كبيرة . فمن الأطفال من سخت عليهم الطبيعة كثيرا بحيث تجعلهم فوق المستوى العادى للأطفال بكثير . وكما أن هناك رجالا لا يتجاوزون مطلقا مرحلة الطفولة ، هناك أيضا رجال يمكن أن يقال انهم لم يعرفوا الطفولة يوما ما ، بل كانوا رجالا منذ البداية . ووجه الصعوبة أن هذه الحالات نادرة جدا ، ومن العسير جدا أن تبينها فى تلك السن . ولكن كل أم تسمع عن نبوغ طفل ، تعتقد أن ابنها فى عداد أولئك العابرة . وتحسب علائم النمو المعتادة آيات على النبوغ الخارق . مع أن طلاقة لسان الأطفال وبساطتهم وجهلهم العرف والمواضعات مما ييسر لهم الاتيان بكلمة بارعة بين حين وآخر ، وسط ثرثرتهم الكثيرة . فليس ذلك غريبا مطلقا ، ولا خارقا للمألوف . فمثلهم كمثل النجمين الذين قال عنهم هنرى الرابع :

— انهم يكذبون كثيرا جدا ، فلا عجب أن يصيبوا كبد الحقيقة ذات مرة ، اعتباطا .

ان أروع الأفكار قد تصدر عن ذهن الطفل ، وأحكم الأقوال قد تتساقط من فمه ، ولكن كما تقع أئمن الماسات فى يده ، فلا هو

يعرف قدرها ، ولا هو يملكها . وإنما هي صدفة ، أو العوبة . أن أقوال الطفل لا تعنى لديه ما تعنيه لدينا . والمعانى التى ترتبط بها عنده غير المعانى التى ترتبط بها عندنا . فأفكاره — ان كانت له أفكار — لا نظام لها ولا ارتباط بينها . فلا ثبات فيها ولا وضوح . فان كنت تعتقد أن طفلك نابغة فراقبه . انك قد تكتشف فيه بين الحين والحين نشاطا ذهنيا عظيما ووضوحا خارقا للعادة .

ولكن ستجد حتما أنه فى أغلب الأحيان بطيء التفكير ، جامد الذهن ، كأنه يهيم فى الضباب . حتى انك لا تتردد فى نعته بالعتة أو الغباء ، كما نعته من قبل بالعقرية . ولكنك مخطيء فى الحالتين ، فما هو الا طفل . ومثله كمثل فرخ النسر ، قد يخلق عاليا برهة وجيزة ، ولكن ليرتد سريعا الى هدوء الوكر وركوده .

عامل طفلك اذن على حسب سنه رغم جميع المظاهر ، واياك وارهاق قواه بما يجاوز طاقته . فان أظهر رغبة فى النشاط ذهنى ، فاترك له مطلق الحرية ، ولكن لا تدفعه الى ذلك دفعا . ومتى أبدى رغبته فى التوقف عن نشاطه ذهنى المبكر ، فدعه وشأنه ، فان البذور الأولى لذلك النشاط قد تختمر وتثمر فيما بعد ذلك بسنوات . أما الآن فانك تقتلها بالافتعال أو الاكراه .

كثيرون من الأطفال الاغبياء يصبحون مع الزمن رجالا أسوياء . ولست أعرف قاعدة أثبت وأصدق من هذه . وانه من أصعب الأمور حقا أن نميز بين الغباء الحقيقى والغباء الظاهرى الذى يدل على قوة الطبع والشخصية . وقد يبدو لأول وهلة أن هناك تناقضا فى اتفاق الضدين فى مظهر واحد . ولكن هذه هى الحقيقة . ففى الطفولة لا تكون لدى الطفل الا أفكار جوفاء مشوشة ، فكل الفرق بين العبقري وسواه من الناس ، أن العبقري يرفض تقبل تلك الأفكار ، ولا يتعامل ذهنه بها ، فيبدو كالأبله أو الغبي ،

انتظارا لا اكتمال قدرته على تكوين الأفكار السليمة الصائبة . وهكذا يتشابه في البداية العبقري والأبله . كلاهما عاجز ، لأن الأبله لا يصلح للتفكير ، والعبقري يرى ذلك التفكير الفج غير صالح له .

فلا سبيل للتمييز بينهما الا بطريق الصدفة التى قد تتيح للعبقري فكرة يحسن ادراكها ، فى حين يعجز الأبله عن ذلك . ومن يحكمون على الأطفال بهذه السرعة حريون أن يقعوا فى الخطأ الجسيم ، وأنا شخصيا أعرف رجلا فاضلا هو الأييه دى كوندياك ، الذى أقدر صداقته وأعدها شرفا عظيما لى . وأعلم أن هذا الشخص كان يعتبر فى نظر أسرته طفلا أبله ! وإذا به فجأة يلمع اسمه بين أسماء الفلاسفة ، ولا ريب عندى فى أن الخلود سيحفظ اسمه بين أسماء أعظم المفكرين وأعمق الفلاسفة المبتاهزين فى زمانه .

لذا أنصح ألا تنسرعوا بالحكم للطفل أو عليه . ودعوا الحالات الخارقة تثبت نفسها بنفسها ، وتفحصوا جيدا خصائصها قبل أن تتخذوا لها مناهج خاصة غير المناهج المتبعة فى تربية الأطفال العاديين . وامنح الطبيعة الفرصة كى تعمل عملها بهدوء تام ، ولا تفسدها بتدخلك المتسرع . انك قد تحتج بأنك تعرف قيمة الوقت وتخشى أن تضعه هدرًا . ولكنك تتناسى أنك تهدر الوقت بتدخلك واساءتك استعماله ، أكثر مما تهدره بعدم التدخل وتركه يمر وأنت ساكن . وإن الطفل الذى أسىء تعليمه أبعد عن الرشء والفضيلة مما لو لم يتعلم شيئًا على الإطلاق .

انك تخشى أن يقضى السنين الأولى من حياته لاي عمل شيئًا . على رسلك ! ألا تعتبر المرح والسعادة شيئًا مذكورًا ؟ أليس القفز والنط طول النهار شيئًا مذكورًا ؟ أن أفلاطون ، فى جمهوريته العتيدة ، على ما فيه من صرامة ، لا يعلم الأطفال الا عن طريق المهرجانات والألعاب والأغانى والمسرات والملاهى . وكأنما غايته القصوى أن يعلمهم السعادة .

وماذا عساك تقول فى رجل يأبى أن ينام حتى لا يهدر هباء جزءا من عمره ؟ اخالك قائلا فيه انه مجنون أو مخبول . فهو بذلك يهدر عمره كله ، لأنه يفسد على نفسه استمتاعه بحياته ، ويغتصب من نفسه عنصرا هاما من عناصر الحياة نفسها ، فإن الامتناع عن النوم ليس الا تعجیلا للموت .

تذكر هذا جيدا ، وتذكر أيضا أن الطفولة التى تبشر ملاهيها كالحياة التى تزداد عن النعاس . فالطفولة هى نعاس العقل .

اما سهولة التعلم عند الأطفال ، فخدعة كبرى تضلل عقولنا . ان هذه السهولة هى الدليل فى حد ذاتها على أن الطفل لا يتعلم حقا . فعقله المصقول اللامع الغض ، يعكس كل ما تلقنه له كما تعكس المرآة صور الأشياء بسطحها من غير أن تغوص فى أعماقها . كذلك الطفل يتذكر الألفاظ جيدا ويعيدها بحذافيرها ، فيفهمها السامع الكبير ، فى حين أن الطفل وهو يقولها ويعيدها لا يفقه معناها .

ومع أن الذاكرة مباينة للعقل ، فهما ملكتان مختلفتان ، الا أن احدهما لا تنمو مستقلة عن الاخرى تمام الاستقلال . وقبل سن التعقل يتلقى الطفل صوراً لا أفكاراً . واليك الفرق الفاصل بين الصور والأفكار : ان الصور ما هى الا الاشكال الخارجية للأشياء ، اما الافكار فمعلومات عن تلك الأشياء تتعلق بعلاقاتها فيما بينها . وحين تتذكر الصورة قد تتذكرها قائمة برأسها فى الذهن . اما الفكرة فلا تكون الا مرتبطة بسواها من الأفكار . ولذا حين نخال الصور لا نكون الا متصورين . اما حين نفكر فاننا نقارن ونربط ونميز . الصور احساسات ، والاحساسات سلبية . اما أفكارنا فثمرة عملية التفكير أو التعقل أو الاستدلال الايجابية .

وانى أعتقد أن الأطفال ، ماداموا عاجزين عن التمييز والحكم العقلى ، فهم أيضا لا ذاكرة بمعنى الكلمة لديهم . فهم يعون فى ذاكرتهم أصواتا

وأشكالا واحساسات . اما المعانى والافكار فقلما يعونها فى ذاكرتهم .
وأندر من هذا أيضا وعيهم للعلاقات والارتباطات . ومتى غيرت قليلا من
وضع أى شىء لم يستطيعوا تذكره . والتذكر بغير تعقل لا قيمة له ، لأنهم
سيضطرون حينما يكبرون أن يعيدوا درس ما تلقنوه وهم أطفال .

❦ ولست أزعم أن الأطفال لا تفكير لديهم إطلاقا ، بل كل مرادى أن أقول
ان الأطفال يحسنون التفكير فى أمور محدودة جدا ، هى التى تتصل
باحساساتهم واهتماماتهم الفعلية الراهنة . بيد أن الناس ينخدعون بهذا ،
فلا يحسنون تقدير مدى قدرة الأطفال الحقيقية على التفكير ، فينسبون
اليهم مدارك ومعارف ليست لهم فى الواقع . ويحملونهم على التفكير فى
موضوعات لا يستطيعون فهمها ، أو يحاولون استرعاء انتباههم الى أشياء
لا تهمهم إطلاقا ، مثل مستقبلهم وسعادتهم فى أيام شبابهم والمهنة التى
يمارسونها . وهى أمور لا معنى لها إطلاقا لدى كائنات مجردة من بعد
النظر تماما . ومع هذا نجد كل الدراسات التى تفرض على هؤلاء المساكين
تنصب على أمور كهذه بعيدة كل البعد عن عقولهم . فلا عجب الا يعيروها
التفاتا المذكوراً .

وقد يدهشكم أنى أعتبر دراسة اللغات من بين تلك المواد التى لا نفع
فيها للطفل . ولكن تذكروا أنى لا أتكلم الا عن دراسات فترة الطفولة
الأولى . ومهما قيل فى هذا الشأن ، لا أعتقد أنه الى سن الثانية عشرة أو
الخامسة عشرة يمكن لأى طفل أن يتعلم لغتين تعليميا حقيقيا . اللهم الا
إذا كان عبقرىا .

ولو كانت دراسة اللغات عبارة عن تعلم الكلمات ليس الا ، أى تعلم
أشكال أو أصوات تعبر عن الاشكال ، لقلت ان هذه الدراسة تلائم
الأطفال . ولكن أى لغة اذا غيرنا من حروفها قليلا ، تغيرت المعانى التى
تعبر عنها . ولكل لغة صورتها الذهنية الخاصة بها ، فى حين أن العقل

وحده هو المشترك بين جميع اللغات . والاختلافات بين اللغات فى الصور الذهنية للتعبير ، وفى المصطلحات والاستعارات والتوريات ، اما أن تكون نتيجة للطابع القومى ، أو سببا فيه فى بعض الاحيان . والدليل على ذلك أن كل أمة تحت الشمس تتغير لغتها بتغير عاداتها وسلوكها وظروفها ، تثبت بثبات تلك وتتحول بتحولها .

ومن هذه الصور الذهنية المتباينة يتيح الاستعمال صورة واحدة للطفل . ويحفظ بهذه الصورة الى سن التعقل . ولا تكون للكلمة صورتان فى وقت واحد الا حينما يتمكن الطفل من المضاهاة والمقارنة بين الأفكار والمعانى . وكيف يتأتى ذلك له وهو بعد فى طور التصور ؟ .

أن الشئ الواحد يمكن أن يكون له عند الطفل ألف رمز مختلف . ولكن الفكرة الواحدة لا يمكن أن يكون لها عنده الا صورة واحدة . ولهذا لا يستطيع أن يتكلم الا لغة واحدة ..

وقد يقال لى انه يتعلم فعلا عدة لغات . ولكنى أجحد هذا وأنكره . فقد رأيت أولئك النوابع الصغار الذين يقال انهم يتكلمون خمس لغات أو ستا . ولكنى سمعته يتكلمون اللغة الألمانية وحدها ، تارة بالفاظ لاتينية ، وتارة بالفاظ فرنسية ، وتارة بالفاظ ايطالية . كأنى بهم يستخدمون عدة قواميس . ولكنهم لا يتكلمون اطلاقا الا لغة واحدة هى الألمانية . وبعبارة أخرى ، لن تكون اللغات الأجنبية الا مترادفات لفظية للغة القومية التى تظل لغة الطفل الوحيدة .

وانى أؤكد أن الرموز لا قيمة لتعلمها أصلا ، فى أى نوع من أنواع الدراسة ، من غير المعانى والأفكار التى تدل عليها تلك الرموز . ومع هذا يربطون الطفل الى تلك الرموز ، ويعجزون عن تفهيمه أى شئ من مدلولاتها . فحين يعلمونه وصف الارض ، لا يعلمونه فى الحقيقة الا رسم الخرائط وأسماء البلدان والانهار والاقاليم ، وهو لا يعى لها وجودا الا

أشكالا على الورق .ولا أظن الطفل بعد سنتين من تلك الدراسة فى الفلك
والجغرافيا الطبيعية يستطيع أن يهتدى الى الطريق وحده من باريس الى
سان دنى ! بل ولا أظن الواحد منهم يستطيع ،بناء على خريطة لحديقة
أبيه ،أن يستدل على طريقه بين ممشيها المتعرجة !مع أنهم يعرفون جيدا
أسماء بكين وأصفهان وأذربيجان والمكسيك وكافة أقاليم الأرض ،
وكواكب السماء ،فتخالهم بهذه الشغشقة اللقضية من فطاحل العلماء !.
انى أنادى بأن نشغل الأطفال بدراسات لا تحتاج الا الى النظر بالعين ،
لو أن لهذه الدراسات وجودا ،ولكنى فيما أعلم لا أعتقد أن مثل هذه
الدراسات وجدت حتى الآن ..



دراسة التاريخ والأساطير ومدى جدواها للطفل

وانه لخطأ سخيف أن يفرض على الأطفال دراسة التاريخ ،على زعم أن التاريخ فى متناول ادراكهم ،لأنه ليس الا مجموعة من الوقائع والحوادث .ولكن ما الذى يعنونه بكلمة الحوادث ؟هل يعتقدون أن العلاقات التى تعين الحوادث التاريخية سهلة الادراك ،وأن الافكار التى تتكون عن هذه الحوادث يسهل تكونها فى ذهن الطفل حقا ؟ وهل يعتقدون أن المعرفة الحقيقية للحوادث يمكن أن تنفصل عن معرفة أسبابها ومعرفة نتائجها ؟وان كنتم حقا لا ترون فى أفعال الناس الا الحركات الخارجية المادية الصرفة ،فقيم دراستكم للتاريخ ؟ انه اذن يكون خاليا من كل موضوع للدرس ،ومن كل فائدة ،ومن كل متعة أيضا .اما ان كنتم تقدرون أعمال الناس على ضوء علاقاتهم الأدبية ، فعليكم أن تفهموا هذه العلاقات لتلاميذكم ،وعندئذ سترون هل يلائم التاريخ عمرهم أم لا . وتذكروا ايها القراء أن الذى يخاطبكم ليس عالما ولا فيلسوفا ،وانما هو رجل من عامة الناس ،محب للحقيقة ،غير متحيز ولا متحزب .فرد مفرد ، عصمته قلة معاشرته للناس من التشرب بمزاعمهم . وأفكارى قائمة على الواقع أكثر من قيامها على المبادئ . وأحسبني لا أقربها الى أنظاركم بشئ أجدى من أمثلة تبين وجهة نظرى .

ذهبت ذات مرة لقضاء بضعة أيام فى الريف لدى أم فاضلة معنية بأطفالها مهتمة بتربيتهم . وحضرت ذات صباح دروس أكبر هؤلاء الأطفال ،

وكان مؤدبه قد أطلعته على التاريخ القديم .فتناول فى هذا الصباح على سبيل الاعادة تاريخ الاسكندر الأكبر ،وتعرض لواقعة طبيبه وصديقه فيليب ،التي رسمها الرسامون ، ولاشك أنها تستحق ذلك العناء والتسجيل .وفحوى القصة أن الاسكندر وصلته وهو مريض رسالة من بارميتون تؤكد له أن فيليب ،صديقه وطيبه ،تلقى رشوة من دار كسرى الفرس كي يدس له السم فى الدواء .فلما قرأ الاسكندر الرسالة ،بسط يده بها الى فيليب ،وبيده الاخرى تجرع الدواء الذى كان فيليب قد أعد له بيديه ..

وعلق المؤدب على سلوك الاسكندر تعليقا لم يرق لى اطلاقا ،بيد أنى تخرجت من مناقشته فيه حتى لا أحط من قدره فى نظر تلميذه .وعلى المائدة أخذ الطفل يثرثر — على الطريقة الفرنسية — مدفوعا بحيويته ورغبته فى استدرار التصفيق ، فشر من فمه ألف عبارة تافهة ،كانت تتفق له من بينها كلمة موفقة تنسى سائر سخافاتة .. وورد على لسانه موضوع الاسكندر والطبيب فيليب ،فرواه بدقة بالغة ورشاقة عظيمة .وسر قلب الأم وانهالت عليه المدائح ، ثم بدأت التعليقات على الحادثة نفسها ، فاذا معظم الحاضرين ينحون باللائمة على الاسكندر لتهوره .وأعجب آقلهم بحزمه وثباته ، مؤيدين فى ذلك رأى الأستاذ المؤدب . فأدركت على الفور أنه لا أحد من الحاضرين فطن الى المغزى الحقيقى للمسألة . فقلت لهم رأيى ، وهو أن ما يظنونه حزما من جانب الاسكندر ليس فى الواقع الا تزييدا أو مبالغة أو تطرفا .. فأجمعوا كلهم على أنه تطرف حقا .

وأوشكت أن أستطرد وقد تحمست للمناقشة ، واذا بسيدة كانت بجوارى ولم تكن قد فتحت فمها بكلمة واحدة طول الوقت ، تميل فوق كفى وتهمس فى أذنى :

— أسكت يا جان جاك .انهم لن يفهموك .

ونظرت اليها ، وذهلت ، وسكت .

وبعد الغداء ، خطر لى أن علمنا الصغير لم يفقه شيئاً من حقيقة مغزى القصة التى أحسن سردها ، فتناولت يده ، ووطفت معه ببعض أركان الحديقة ، وأخذت أستجوبه على هواى . فاكشفت أنه شديد الإعجاب بيسالة الاسكندر التى أثنوا عليها ، ولكن أتدرون أين كانت هذه الشجاعة فى نظره ؟ فى اقدام الاسكندر على تناول الدواء جرعة واحدة ، مع أن كل دواء لابد - فى اعتقاده - أن يكون كريه الطعم ! وكان الطفل المسكين مريضاً وأجبروه منذ أسبوعين على تناول دواء لقي من تجرعه مضاضة شديدة .. ولا أنكر أن قدوة الاسكندر أجدت عليه ، فعزم على تناول الدواء فى المرة التالية بيسالة تصل الى حد البطولة ، تشبهاً بالاسكندر . وبطبيعة الحال لم أدخل معه فى تفسيرات لن يفهمها ، وثبته فى عزمه ، ورجعت الى البيت وأنا أضحك فى سريرتى من حصافة الآباء والأساتذة الذين يخالون أنهم يعلمون أطفالهم التاريخ ..

من السهل طبعاً أن نضع على ألسنتهم ألفاظاً ضخمة مثل الملوك والامبراطوريات والحروب والغزوات والثورات والقوانين . ولكن متى تعلق الأمر بإعطاء هذه الألفاظ معانى واضحة دقيقة ، فهنا المطلب العسير . ولعل بعض القراء الذين أسخطتهم كلمة جارتى « أسكت يا جان جاك » ، يتساءلون ما وجه الجمال الحقيقى فى فعلة الاسكندر فيما أرى . ويحكم ! وهل هذا بحاجة الى بيان ؟ وان كانوا بحاجة الى بيانه فهل يدركونه حق الادراك ؟ جمال فعلة الاسكندر كله فى أنه كان يؤمن بالفضيلة ايماناً جعله يجازف فى سبيله برأسه ، بحياته . لأن نفسه العظيمة كانت مجبولة على ذلك الايمان . فكان تجرعه لذلك السم اعلاناً مدوياً لذلك الايمان . وما من بشر أعلن ايمانه بالفضيلة باسمى من ذلك الاعلان وأجل . ومن زعم بين المحدثين شبهاً للاسكندر ، فليدلى عليه فى مثل تلك السجية .

وما دام لا وجود لعلم يقوم على الألفاظ ، فلا وجود لدراسة تصلح للأطفال . وما داموا عاطلين من الأفكار بمعنى الكلمة ، فلا ذاكرة لهم بمعنى الكلمة أيضا . فاني لا أعتبر ذاكرة حقيقية تلك التي لا تحفظ الا احساسات .

ما جدوى أن نسجل في رؤوسهم رموزا لاتعنى في نظرهم شيئا ؟ ألن يتعلموا الرموز حين يتعلمون مدلولاتها ؟ فلماذا اذن نرهقهم بتعلم الشيء الواحد مرتين ؟ هذا فضلا عما نلهمهم من الخلط الخطير حين نوهمهم أن تلك الألفاظ التي لا معنى لها عندهم علم وما هى بعلم ! .

ان أول لفظ يتعلمه الطفل من أفواه الناس من غير معنى عنده أو منفعة ، فيه القضاء على قوة التمييز عنده ، فتظل الألفاظ تزيع بصره طويلا ، قبل أن يتمكن من تلافي هذا النقص ! .

كلا ! لئن كانت الطبيعة قد منحت مخ الطفل هذه المرونة التي تجعله قابلا لجميع التأثيرات ، فليس ذلك كى نقش فى صفحته أسماء الملوك والتواريخ وألفاظ الفلك والجغرافيا وسائر تلك الألفاظ التي لا معنى لها اطلاقا فى سنه ، بل ولا جدوى منها فى أى سن ! والتي تكبل بها طفولته تكييلا مستمرا عقيما ، وانما لكى نقش فيها منذ البكور بحروف لاتمحي جميع المعارف اللازمة لسعادته والتي تضىء له يوما ما طريق الواجب ، وترشده سائر أيام عمره الى استخدام ملكاته .

وحتى ان لم يدرس الطفل فى الكتب ، لاتظل ذاكرته خامدة ، فكل ما يراه ويسمعه يثير انتباهه ، وينطبع فى ذاكرته . فيسجل لديه أفعال الناس وأقوالهم . فكل ما يحيط به كتاب يغترف منه من غير أن يدري ، انتظارا لوقت يستطيع فيه الاستفادة بعقله مما وعى بحافظته .

اذن فالواجب الأول هو تخير الأشياء التي تتأثر بها حافظته ، والاشخاص الذين يخالطهم ، واقصاء ما لا ينبغى أن يطلع عليه ، حتى يعرف

ما يجب ، ويجعل ما لا يجب ، وبذلك تتكون عنده مخزونات من المعارف التي تجدى في تربيته مدة حياته ، ثم في سلوكه سائر أيام حياته .

أجل ، ان هذه الطريقة لا تنشىء لنا العباقرة الصغار ، ولا تضىء اللعنان والبروز على جهود المربين والأساتذة ، ولكنها تكون الرجال ذوى الحصافة والبأس ، أصحاب العقول والابدان ، الذين ان فاتهم الاعجاب وهم صغار ، لن يفوتهم التوقير والاحترام وهم كبار .

لن يحفظ اميل شيئاً عن ظهر قلب . حتى ولا الاساطير . نعم ، حتى ولا أساطير لافوتتين على ما فيها من سحر وسذاجة وجمال . ذلك أن ألفاظ الاسطورة شىء والاسطورة شىء آخر . كما أن الفاظ التاريخ شىء ، والتاريخ شىء آخر ! .

كيف بالله يبلغ العمى بالناس أن يسموا الأساطير اخلاقيات الطفولة ، من غير أن يدركوا أن ما فى الاسطورة من أكذوبة تستهوى الأطفال بحيث يغفلون عن الحقيقة ؟ وأن ما يراد به اغراء الأطفال على التعلم ، هو الذى يفتنهم عن التعلم ويعوقهم عنه ؟ .

ان الاساطير قد تجدى فى تعليم الكبار . اما الأطفال فلا بد لهم من الحقيقة العارية . فاذا غطيناها لهم بقناع رقيق ، لم يجشموا أنفسهم عناء اماطته ...

انهم يعلمون الأطفال جميعاً أساطير لافوتتين . وما من واحد من بينهم يفقهها . وحتى حينما يصلون الى ادارك مغزاها ، سيكون الأمر او خم عقبي . لأن ذلك المغزى ملتبس ، مشوب ، لا يتناسب مع سنهم ، مما يجعله ادعى لا نزلاتهم فى الرذيلة ، لا لجنوحهم الى الفضيلة .

ورب قائل ان تلك مفارقة أو مغالطة . فلننظر مدى ما فى هذا القول من صواب . انى أزعم أن الطفل لا يفقه الاساطير التي يكره على حفظها اطلاقاً . فمهما بسطت تلك المعانى ، يظل القالب الشعرى فوق مستوى

الادراك ،وتنزل الافكار فوق مستوى الادراك .فالقالب السوى يسهل الحفظ ،ولكنه يجعل الفهم عسيرا .فاذا الوضوح والجلاء ضحية الالة والتنعيم . وكأنا اشترينا بالفهم سرور الايقاع .

ولا أريد أن أتعرض لتلك الاساطير التى لا أجد لها مفهوما ولا جدوى عند الأطفال ،والتي يحفظها الأطفال رغم ذلك فيما يكرهون على حفظه ، بل سأعرض لتلك الأساطير التي يبدو أن المؤلف نظمها للأطفال خصيصا ..

ولست أعرف فى مجموعة لافوتتين كلها الا خمس أساطير أوستا تشرق بسذاجة الطفولة .ومن بينها أختار أولها ،لأنها ذات مغزى تفهمه جميع الأعمار ويحفظها الأطفال بسرور ، ولهذا فضلها المؤلف على غيرها واقتتح بها كتابه ، وانها حقا لتعتبر آيته الفنية ، لما تدخله على الأطفال من بهجة ، ولسهولة مأتاها واستظهارها عليهم . واسمحوا لى أن أعقب هذه الاسطورة وأمتحنها فى كلمات معدودات .

وهذه الاسطورة أسطورة الغراب والشعب ..

« الاستاذ غراب ،كان فوق شجرة واقفا » .

الاستاذ ! ما معنى هذه الكلمة فى حد ذاتها ؟ وما معناها حين تأتى قبل اسم من أسماء الاعلام ؟ وما معناها فى هذا المقام ؟ . والغراب ، ما هو ؟ .

ولماذا قيل فوق شجرة واقفا ،لا واقفا فوق شجرة ؟ أليس ينبغى هنا شرح القلب والتقديم والتأخير فى الصياغة الشعرية ؟ . « وقد امسك فى منقاره قطعة من الجبن » .

أى جبن هذا ؟جبن سويسرى أم هولندى ؟وان كان الطفل لم ير فى حياته غرابا ،فما جدوى التحدث اليه عنه ؟وكيف يدرك ان الغراب يمسك الجبن بمنقاره ؟ .

« والاستاذ ثعلب ،تحلب ريقه بالرائحة »

ومرة أخرى كلمة الاستاذ ! ولكن في هذه المرة نجد للقب ما يبرره .
فهو أستاذ في الإلغيب . ثم يجب أن نشرح معنى كلمة ثعلب .

وكلمة «ثعلب ريقه» كلمة عسيرة الفهم على الطفل ، ويجب تفسيرها
له . وافهامه أنها تستخدم في الشعر فقط . وسيسأل الطفل لماذا نقول
شعرا ما لا نقوله نثرا . ولا أدري بماذا نجيبه !

ثم ما القول في رائحة الجبن التي وصلت من فوق الشجرة الى خياشيم
الثعلب من بعيد ، فتحلب لها ريقه . أى رائحة هذه ؟ .

وهكذا دواليك الى آخر تلك الاسطورة . وكل سطر منها يحتاج لفهمه
لدى الطفل الى تحليل من ورائه تحليل ، ودخول في تفاصيل بعد تفاصيل ،
حتى تنقلب تلك الاسطورة موسوعة . مع أن مغزاها يقال في خمس كلمات ! .
وانى لأتساءل ، هل من الحكمة أن نعلم الأطفال في سن السادسة أن
هناك أشخاصا يعتمدون الى الملق والكذب في سبيل منافعهم ؟ كان الأولى
أن نعلمهم أن هناك من يخدعون الأطفال ليسخروا من غرورهم . أما
قطعة الجبن فقد أفسدت المغزى في الاسطورة . فنحن نعلمهم بهذه
الاسطورة الاعجاب ببراعة من أسقطها من قم الغراب ، أكثر من الحذر
من سقوطها من فمهم ..

وأرجو أن تتعقبوا الأطفال وهم يحفظون الاساطير ، ولا شك في أنكم
ستجدونهم عند التطبيق سيعمدون الى عكس مقصود المؤلف . فاذا
بهم بدلا من النفور من العيب الذى تعالجه الاسطورة ، وقد افتنوا بما
فيها من صورة الشر . فهم في أسطورة الغراب والثعلب سيسخرون من
الغراب ، ويشمتون به ويعجبون بالثعلب البارع . فالطفل دائما يعجب
بالدور الجميل في الاسطورة ، وهو دور الماكر المنتصر . وهو اختيار طبيعي
جدا ، لأنه مبنى على حب النفس والاعتزاز بها .. فياله من درس للأطفال !
وفي جميع الاساطير التى يكون فيها للأسد دور ، يتقمص الطفل

دور الأسد ، لأنه ألمع الأدوار عادة . وسنراه يفعل فعله في جميع المناسبات التي يتاح له فيها السلطان أو التصرف في قسمة بين أقرانه .
وهلم جرا في جميع الاساطير الأخرى ، فكأنها أيسر سبيل لتعظيم الطفل القسوة والطغيان والخداع والختل والبخل ، وهي عكس المقصود طبعاً من تلك الاساطير ..

وانى أعد مسيو دى لافوتتين أن أقرأ أساطيره وأعجب بها وبه ، لأنى أرجو الا أضل عن مغزاها الحقيقي ، اما تلميذى ، فليسمح لى الا أطلعه عليها . ما لم يكن المقصود ألا يفهم الطفل مما يدرس ويحفظ الا الربع . وأن يفهم من هذا الربع عكس المراد منه تماماً ، فلا يستفيد من الخطأ ، بل يقتدى بالخساسة .

* * *

وانى اذ أعفى الأطفال من الحفظ والدرس والكتب ، أزيح عن كاهلهم أشقى ما يشقون به ، فالقراءة هى غمة الطفولة الغاشية ، وهى للأسف أكثر ما يتلى به الأطفال .

ولا أظن اميل سيعرف ما معنى كلمة كتاب قبل سن الثانية عشرة . وقد يقال ان من الواجب تعليمه القراءة على الأقل . وأنا أوافق على هذا ، وأرى أن يتعلم القراءة حين تكون القراءة مجدية له ، أما وهى لا تفيده قبل تلك السن الا السأم والضيق ، فليس هذا أوانها ! .

ولكن تدريجياً ، يمكن تعليمه القراءة بواسطة الباعث الشخصى . أى بمناسبة ما يصله من دعوات للنزهات أو للعثاء . وهى دعوات قصيرة ، يحسن أن نساعد على حل رموزها . وبذلك يتعرف الى رسم الكلمات ويتعلم بذلك الرسم والقراءة .

وعندما يجيب عن الدعوات ، أو يشكر عليها ، أو يدعو سواه ، ستكون هذه مناسبة تعليمه رسم الحروف كتابة ..

الطفل ذو البدوات

حدث أن قمت مدى بضعة أسابيع على شأن طفل كان قد تعود
لا تنفيذ هواه فحسب ، بل وكذلك املاء ارادته على جميع من حوله .
ولذا كان هذا الطفل ذا بدوات ونزوات .

ومنذ اليوم الأول حاول أن يجرب معى تلك السياسة ، ليعرف مدى
قابليتى للتساهل . فنهض من فراشه فى منتصف الليل . وقفز وأنا غارق فى
نومى . فارتدى دثار الفرقة وأخذ ينادينى . فاستيقظت وأوقدت شمعة .
ولم يكن مراده يتعدى ذلك . فبعد ربع ساعة عاوده النعاس فرقد فى
سريره راضيا عن التجربة التى قام بها .

وبعد يومين عاود الكرة ولقى من التوفيق ما لقيه فى المرة الأولى . أما
أنا فلم أظهر شيئا من ضيق الصدر أو نقاد الصبر . وكل ما هناك أنى قلت
عندما قبلنى لينام ، وبكل هدوء :

— يا صديقى الصغير . لا بأس بما حدث . ولكن اياك أن تعاود الكرة .

ولا شك أن هذه الكلمة أثارت فضوله . فمنذ اليوم التالى أراد أن
يعرف كيف سأجسر على عصيانه . فلم يتردد فى أن يستيقظ فى الساعة
عينها من منتصف الليل ، وينادينى . فسألته ماذا يريد . فقال لى انه
لا يستطيع أن ينام . فقلت له :

— هذا من سوء حظك .

ثم لذت بالصمت ولم أتحرك من موضعى . فرجاني أن أوقد الشمعة .
فسألته لماذا يريد الشمعة . ثم لم أتحرك من موضعى . فضايقتة لهجة عدم
الاكتراث التى أستخدمتها معه . فجعل يتحسس طريقه بحثا عن القداحة .

وتصنع محاولة استعمالها . فلم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك وأنا أسمعه يندق بها يده فتؤلمه . ولما يئس من النجاح في استعمالها ، أتانى في فراشى بالقداحة فقلت له انه لا حاجة لى بها . ثم أوليته ظهري ورقدت على جنبى الآخر . فراح يجرى فى الحجرة على غير هدى صائحا أو متغنيا ، محدثا ضجة كبيرة . ومتخبطا بجسمه بين المقاعد والمنضدة ، حريصا على أن تكون الصدمات هينة . ومع هذا كان يستغلها فى الصراخ بشدة . على أمل أن يدخل على نفسى القلق . ولكن هذا كله لم يكن له أثر . ورأيت أن الطفل رتب أموره على اثارة الغضب . ولم يخطر بباله أن يجد ذلك الهدوء والثبات .

الا أنه عقد النية على التغلب على صبرى بقوة عناده . فاستمر فى ضجته وصخبه الى درجة أثارتنى . فأدركت أنى سأفسد كل شىء بثورتى . فعولت على تجنب ذلك بخطة جديدة . ونهضت من فراشى من غير أن أقول شيئا . وذهبت أبحث عن القداحة فلم أجدها . فطلبتها منه . فأعطانى اياها وهو يكاد يقفز من الفرح لتمكنه فى نهاية الأمر من الانتصار على . فضربت القداحة وأوقدت الشمعة . ثم أخذت الصغير من يده وجرفته برفق الى حجرة مجاورة محكمة النوافذ ليس فيها ما يخشى عليه من تحطيمه وتركته هناك . حده من غير الشمعة ، وأقفلت عليه الباب بالمفتاح . ثم عدت ونمت فى فراشى من غير أن أقول له كلمة واحدة .

ولا تسلىنى هل كانت فى البداية ضجة هائلة . فقد كنت أتوقع ذلك طبعاً . ولم يعظنى ذلك بتاتا . وأخيرا هدأت الضجة . وأصغيت فسمعته يستقر حيث هو ويهدأ . فاطمأن بالى .

وفى اليوم التالى دخلت الخزانة فى وضح النهار . فوجدت المتمرد الصغير راقدا على أريكة غارقا فى سنة من النوم . ولا شك أنه كان فى أشد الحاجة الى ذلك النوم العميق بعد كل ذلك العناء .

بيد أن الموضوع لم يقف عند ذلك الحد . فقد علمت الأم أن الطفل
قضى ثلثي الليل خارج فراشه فكأنما تقوضت أركان الدنيا وصار
الطفل من الهالكين . ووجد الصغير الفرصة ملائمة للانتقام ،
فتصنع المرض . ولم يخطر بباله أن ذلك لن يجدى عليه شيئا .

ودعى الطبيب . وكان رجلا محبا للمزاح والارضاء ، وهذا من سوء
حظ الأم ، لأنه أراد أن يتسلى بفزعها فراح يجسم لها مخاوفها ويضخمها .
ومال على أذني يهمس لى :

— دعنى أتصرف . وأعدك أن الطفل سوف يشفى الى أمد طويل من
تلك البدوات ، وعلى الأقل من نزوة المرض .

وفعلا وصف للمريض الصغير غذاء كريها ودواء بغيضا وحتم عليه
ملازمة الفراش ملازمة دقيقة . وهذا كله مزعج للصغير غاية الازعاج .
وحز فى نفسى أن أرى تلك الأم المسكينة ضحية خداع جميع من حولها ،
فيما عداى أنا ، الذى كانت تبغضنى ، لأننى لا أخدعها ! .

وبعد تقرير قاس ، قالت لى ان ابنها رقيق البنية ، وانه الوارث الوحيد
لأسرتها ، ويجب المحافظة على حياته بالغا ما بلغ الثمن . وانها لا تحب أن
يلقى الطفل معارضة من أى نوع .

وكانت تعنى بعدم معارضته أن أطيعه فى كل ما يخطر بباله . فأدركت
أنه ينبغى أن أتخذ فى خطاب الأم ما اتخذته فى خطاب الطفل من لهجة ،
فقلت لها بأقصى برود ممكن :

— أنا لا أدرى ياسيدتى كيف ينبغى أن يربى وريث . وأكثر من هذا
انى لا أريد أن أدرى كيف يربى وريث . ويجب أن تدبرى أمورك على
ذلك الاساس .

وكانوا بحاجة الى مدة أخرى ريثما يعود المربى الأصلى من اجازته ،
فتولى الأب تهدئة الموقف . وكتبت الأم الى المربى تستعجل عودته .

أما الطفل ، فلما وجد أنه لن يجنى شيئا من اقلق نومى ولا من تصنع المرض ، قرر أخيرا أن ينام من تلقاء نفسه بهدوء ، وأن يكف عن المرض . ولا يمكن أن تتخيل أنواع البدوات والنزوات التى كان هذا الطفل يتفنن فيها لتتغص حياة مربيه المسكين . لأن تربيته كانت تحت سمع الأم وبصرها . والأم كانت لا تحتمل أن يعصى لوريثها المدلل أمر .

فى أى لحظة من لحظات النهار يخطر للطفل أن يخرج ، كان ينبغى على المربي أن يكون متأهبا تمام الأهبة للخروج به من غير معارضة أو استمهال . وكان الطفل الماكر يختار دواما الوقت الذى يرى فيه مربيه مشغولا جدا . وأراد الطفل أن يفرض على تلك السلطة بعينها ، فينتقم من راحتي النهارية للراحة الليلية التى أجبرته أن يدعها لى . وكنت متأهبا لخطته تلك . فأظهرت له باستمرار السرور بتنفيذ رغباته . ثم بعد ذلك عولت على أن أنتهج سياسة أخرى لشفائه من بدواته .

ولما كنت أعلم أن الأطفال لا يفكرون الا فى اللحظة الحاضرة . فقد حرصت على أن أوفر له فى البيت تسليات مما أعلم أنه يحبها جدا . ومتى وجدته منغمسا فى التسلية تماما . اقترحت عليه أن نخرج للنزهة . وألح . فلا يجيبنى . فأخرج وأتركه غير مقيد به .

وفى اليوم التالى انقلب الوضع . لم يكن لديه ما يسليه فى البيت . فتضجر . أما أنا فكنت أبدو على العكس مشغولا جدا . وكان فى هذا الكفاية لكى يقرر ماذا يعمل . فلم يتأخر عن الحضور لينتزعنى من عملى كى أنطلق به فى نزهته ، فرفضت . وأصر هو . فقلت له :

— كلا . فانك حين نفذت أمس ارادتك علمتنى أن أتمسك بإرادتى .

وأنا لا أريد الخروج .

— وهو كذلك ! سأخرج وحدى .

— كما تشاء .

وعدت الى التشاغل بعملى . فارتدى ثيابه وهو قلق لعدم نشاطى
لارتداء ثيابى . وقبل أن يخرج أنى يحيينى . فحييته . فحاول أن يفزعنى
بذكر الجهات التى سيذهب اليها ، ومن سمعه كان يظنه ينوى الذهاب
الى آخر الدنيا . فلم أكثرث . وتمنيت له رحلة سعيدة . فتضاعف ضيقه ،
بيد أنه تظاهر بالهدوء . وقال لخادمه الخاص أن يتبعه فى نزهته .

وكانت لدى الخادم أوامر سابقة ، فأجابه أنه مشغول فى تنفيذ أشياء
أمرته أنا بها . وأنه يجب أن يطيعنى . ولم يتصور الطفل أن تتركه يخرج
وحده وهو الذى كان يظن نفسه أهم شخصية فى البيت . ويعتقد أن
السما والارض ليست لهما مهمة أخرى سوى المحافظة عليه ! .

وبدأ يشعر بضعفه . وبأنه سيواجه وحده أناسا لا يعرفونه . وتصور
المخاطر التى سيتعرض لها . الا أن العناد وحده هو الذى كان يشد أزره .
فنزل السلم ببطء ومشى فى الشارع متعزيا عن المتاعب التى ستصادفه .
وألوان الأذى التى سيتعرض لها ، بأن ذلك كله سوف تقع جريته على
عاتقى . ولكنى كنت قد أعددت للأمر اخراجا دقيقا بموافقة والده . فما
مشى فى الشارع بضع خطوات . حتى سمع عن يمين ويسار تعليقات
جارحة لشخصه تسخر منه .

— أنظر أيها الجار هذا السيد الجميل . أين تراه يذهب هكذا

وحده ؟ .

— انه يا جارتى سيضل طريقه . أرى أن أدعوه للدخول عندنا .

— احذر من ذلك يا جارى . ألا ترى أنه طفل مغضوب عليه فطرده أبوه
من بيته لما يئس من استقامته وطاعته ؟ ان الأطفال العصاة يجب أن يتركوا
وشأنهم مهما تعرضوا لضلال الطريق .

وبعد خطوات قليلة أخرى . التقى بشرذمة من الأطفال أبناء السبيل
من عمره ، فأخذوا يغيظونه ويتندرون به . فشعر أنه فى وحدته ضعيف

لا حامى له ،ألعبوبة فى يد جميع الناس .وتبين أن شارات النبالة التى يحملها على صدره لا تكفل له الاحترام .

وزادت الأمور سوءا حين عاد الى البيت ،ليجد والده يهبط السلم . فكان على الطفل أن يفسر لأبيه أين كان ولماذا خرج وحده .فتمنى المسكين لو أن الأرض ابتلعتة . وأفهمه أبوه أنه عاص . وعليه فى المرة القادمة التى يغادر فيها البيت بمفرده أن يرتب عزمه كى لا يعود اليه . فهو لا يقبل فى بيته العصاة والخارجين على النظام .

أما أنا فقد استقبلته بغير تأنيب أو سخرية . ولكن يرود وصرامة حتى لا يتبادر الى ذهنه أن المسألة كلها كانت مدبرة .وعاقبته بعدم الخروج معه فى ذلك اليوم فى ساعة النزهة المعتادة .

وفى اليوم التالى حرصت أن أخرج معه ، فمر ويده فى يدي فخورا على تلك الجماعات التى هزئت منه بالأمس حين مر بها وحده . ومن المفروغ منه أنه لم يجرب بعد ذلك مطلقا ارغامى على الخروج معه .

وبهذه الوسائل ومايجرى مجراها استطعت فى غضون المدة التى قضيتها مع ذلك الطفل أن أسيره كما أشاء من غير مواعظ ومن غير تحذيرات ونواه أو ضجر بدروس لا نفع منها .

كنت أصمت فيكون صمتى مصدر قلق له لأنه يعلم أن خطتى العملية ستكون هى الدرس الحازم الذى يتعلم منه ما أريده أن يتعلمه .

رياضة الحواس وعلاج الخوف

ان تمرين الحواس أو رياضتها ليس مجرد استعمالها . بل هو في الواقع تدريبها على أن تكون وسيلة صالحة للتمييز . فرياضة الحواس هي بعينها أن تتعلم كيف نحس . لأننا لا نعرف كيف نلمس أو كيف نرى أو كيف نسمع ، إلا كما تعلمنا ذلك .

وهناك رياضة طبيعية ميكانيكية بحتة ، تجعل الجسم قويا من غير أن يكون لها تأثير في التمييز . ومن ذلك السباحة ، والجري ، والقفز ، وقذف الأحجار ؟ وهذا كله حسن . ولكن أليست لنا أعضاء سوى الأذرع والسيقان ؟ أليست لنا كذلك عيون وأليست لنا آذان ؟ وهل هذه الجوارح أقل مرتبة وخطرا بالقياس الى سابقتها ؟ .

اذن ، لا تكتفوا برياضة القوة البدنية ، بل ينبغي علينا أن نغنى برياضة جميع الحواس التي توجه قوانا وتهديها . ويجب أن نستخلص من كل حاسة من حواسنا أقصى ما تستطيعه . ثم نقوم تأثير كل حاسة في الحواس الأخرى . ولا ينبغي أن نستخدم قوة من قوانا من غير حساب دقيق للمقاومة وللمجهود . وليكن رائدنا أن يسبق تقدير الأثر استخدام الوسيلة . وعودوا الطفل ألا يبذل مطلقا جهودا قاصرة أو سطحية . ولو أنكم عودتموه أن يتوقع النتيجة الطبيعية لجميع حركاته . وأن يصحح أخطائه بالتجربة ، ألا يكون من الواضح أن يزداد تمييزه ويزداد حصافته بازدياد خبرته .

ولنفرض أن المطلوب هو زحزحة كتلة ثقيلة من موضعها . فعلى الطفل أن يستخدم رافعة . فان تناول رافعة أطول مما ينبغي ، احتاج الى حركة أكثر مما ينبغي . وان استعمل رافعة أكثر مما ينبغي ، لم يتوافر له الجهد

الكافى لاستخدامها . فيجب أن يتعلم من التجربة اختيار الرافعة اللازمة بالذات . وهذه الحصافة ليست فوق سنه .

واذا كان المراد حمل ثقل . وأراد أن يعرف هل يستطيع ذلك أم لا من غير تجربة لرفعه . أليس الواجب أن يتعلم تقدير الأثقال بالنظر . ويجب أيضا أن يعرف كيف يقارن بين كتل متفاوتة الحجم من مادة واحدة ، وبين كتل متساوية الحجم من مواد مختلفة . وهكذا يتعلم دروسا عملية في الوزن النوعى .

وقد رأيت بعينى شابا متعلما يأبى أن يصدق الا بعد تجربة عملية أن دلوا مملوءا بكتل ضخمة من خشب البلوط أقل ثقلا من ذلك الدلو نفسه وهو مملوء بالماء .

ولسنا مسيطرين على حد سواء على استخدام جميع حواسنا . فهناك حاسة معينة هى اللمس لا يتوقف عملها طوال مدة يقظتنا . وهذه الحاسة منتشرة فوق سطح جسمنا كله وكأنها حارس متصل حلقات الحراسة ينبهنا الى كل ما يمكن أن يؤذينا . وباستمرار الاستعمال لتلك الحاسة تتدرب عليها قبل غيرها . ولهذا نجد حاجتنا الى رياضتها أقل من حاجتنا لرياضة سائر الجواس . ومع ذلك نلاحظ أن العميان يتمتعون بحاسة لمس أقوى وأرهف مما لدينا ، ذلك أن افتقارهم للبصر جعلهم يعولون على تلك الحاسة الأولى وحدها فى معرفة الأشياء والتمييز بينها . فلماذا لانروض نحن تلك الحاسة بأن نمشى كالعميان فى الظلام ، ونعرف الأجسام التى نلمسها ونميز بين ما يحيط بنا منها ، بحيث نعمل ليلا ومن غير ضوء كل ما يعمله العميان نهارا من غير عيون ؟ .

انى أعترف أنه ما دامت الشمس مشرقة فلنا التفوق على العميان . أما فى الظلام فهم متفوقون علينا . وجميع الناس عميان نصف أعمارهم ، ولكن

العميان الحقيقيين يعرفون في جميع الأحوال كيف يتجهون عن طريق
اللمس . أما نحن فلا نجسر أن نخطو خطوة في حلقة الليل .

وقد يقال لى ان لدينا وسائل الاضاءة . وانى لشديد الضيق بهذه
الآلات كلها التى تخضع لها فى حياتنا ! ومن الذى يضمن لكم أن هذه
الآلات والأدوات ستكون ميسورة لكم أينما احتجتم إليها ؟ أما أنا
فأفضل لأميل أن تكون له عيان على أطراف بنائه ، على أن تكون عيناه
فى حانوت بائع الشموع ! .

وإذا وجدت نفسك محبوسا فى بناء فى جوف الليل ، فصفق بيديك
وستدرك من رنين الصوت مدى ضخامة البناء . وهل هو كبير أم صغير
وهل أنت فى وسطه أو فى ركن منه .

أنك حين تكون على مسافة نصف قدم من حائط ستشعر من لمس الهواء
لوجهك أنك قريب من جدار . فقف فى مكانك ودر على عقبيك فى جميع
الجهات . والجهة التى تهب على وجهك منها نسمة خفيفة هى الجهة المقابلة
للباب أو النافذة .

وهذه الملاحظات الهينة ، وآلاف مما تجرى مجراها لا يمكن تحصيلها
الا فى الليل . وجميع محاولات القيام بها نهارا ستعوقها حاسة النظر . هذا
مع أننا لم نستخدم اللمس المباشر والعصى كالعميان . الا أن حاسة اللمس
للحواء قد تكون كافية ويجب رياضتها ليلا .

والكثير من ألعاب الليل يحقق ذلك الغرض . بل له فائدة أعظم مما
يبدو لأول وهلة . فالليل مخيف بالفطرة للناس . بل وأحيانا للحيوانات ،
بدليل ما تظهره من الذعر عند كسوف الشمس . وقلما تجدى الشجاعة
والعقل والمعرفة الناس فى النجاة من ذلك الخوف . وقد رأيت بعينى
مفكرين من كبار العقول والفلاسفة ومحاربين لا يهابون شيئا فى ضوء
النهار ، يرتجفون ليلا كما ترتجف النساء من أصوات خفيف الأشجار ،

ويعزو بعضهم ذلك الفزع الى أقاصيص المريبات والمراضع . وهذا خطأ . فلذلك الخوف علة فطرية . فما هى هذه العلة ؟ .

انها بعينها العلة التى تجعل الأصم نفورا وتجعل الناس عموما متطيرين . فجهل الأشياء التى تحيط بنا أو تدور حولنا هو السبب . ولأننا تعودنا بالنظر نهارة أن نرى الأشياء عن بعد ونتوقع تأثيراتها مقدما . فحين يحن الليل لا نرى شيئا مما يحيط بنا . أليس طبيعيا إذن أن نفترض آلاف الأشياء وآلاف الحركات التى يمكن أن تؤذينا ومن المستحيل أن نضمن عدم وجودها ؟ .

انى قد أعرف أنى فى أمان حيث أنا موجود . ولكنى لا أوقن بذلك الا حين أبصره فعلا . فهناك دائما سبب للخوف غير موجود نهارة .

وأنا أعلم أيضا أنه من الصحيح أن جسما غريبا لا يمكن مطلقا أن يؤثر فى جسسى من غير أن ينبهنى لذلك صوت أو حس . ولذا تكون أذنى مرهفة جدا أثناء الليل . وأقل صوت لا أميز مصدره يستثير حاسة حفظ الذات . ويجعلنى أفترض أولا كل ما يقتضيه الحذر . أى أسوأ بواعث الخوف والفزع .

وحتى حينما لا أسمع أدنى صوت فى الليل ، لا يكون ذلك باعثا على الاطمئنان . لأن انعدام الصوت يجعل المفاجأة أدهى وأخطر ، فلا بد لى فى الليل من افتراض كل ما لا أراه بعينى . والافتراض استخدام المخيلة . وأنا لا سلطان لى على مخيلتى . فان سمعت صوتا خيل الى أن اللصوص مصدره . وإن لم أسمع صوتا . فالسكون سكون الأشباح . وهذا أدعى للخوف والفزع . ولا حيلة للعقل هنا ، لأن غريزة حفظ الذات أقوى منه ، ولا سبيل للتغلب على الخوف الا بالعقل وهو عاجز عن ذلك .

ومتى عرفنا علة الداء اهتدينا الى الدواء . والعادة فى جميع الأمور تقتل المخيلة . ولا شئ يثير المخيلة الا ما هو خارج عن المألوف . فالأشياء

التي نراها كل يوم لا تختص بالمخيلة ، بل بالذاكرة . ولهذا يقال ان العادة عدو العاطفة . فمتى ألفنا شيئا هبطت قيمته العاطفية لدينا لخروجه من دائرة المخيلة . والمخيلة هي التي توقد بنيرانها جذوة العواطف .

فلا تحاول اذن أن تناقش بالمنطق من تريد شفاءه من رعب الظلام . بل عوده عمليا السير فيه . وثق أن جميع حجج الفلسفة لا تضارع ذلك التعود العملى . وتذكر أن الدوار لا يصيب من يصلحون السقوف الأرتوازية المنحدرة لأنهم تعودوا ذلك الموقف . وكذلك الخوف من الظلام لا يصيب من تعودوا السير فى الظلمات .

وهذه فى حد ذاتها فائدة جلية نجنحها من الألعاب الليلية . ولكنى أوصى وألح فى أن تكون هذه الألعاب الليلية غاية فى المرح والبهجة . فما من شئ أشد كآبة من الظلمات . فلا تذهب الى حد ارهاق طفلك بألعاب مخيفة أو صامتة . بل يجب أن يضحك وهو يخوض الظلام . وأن يعاوده الضحك قبل أن يغادره . وأن تصحبه طول مدة وجوده فى الظلام فكرة المتعة والتسلية التى يحصل عليها . أما الفزع فلا ينبغى أن يخطر بباله . واسمحوا لى أن أستعين هنا بأمثلة مما وقع لى فى طفولتى . وكنت مرة فى الريف مقيما لدى قسيس بروتستانتى اسمه السيد لامبارسييه . وكان معى زميل أغنى منى هو ابن عم لى . كانت عائلة القسيس تعامله معاملة الوارثين الجديرين بالرعاية دونى . وكان ابن عمى هذا اسمه برنار . وهو أكبر منى ولكنه جبان جدا ولا سيما فى الليل . فكنت أسخر دائما من فزعه ، حتى إن السيد لامبارسييه ضاق بى وأراد أن يضع شجاعتى موضع الامتحان .

وذات مساء من أمسيات الخريف حالكة الجلباب ، أعطانى مفتاح الكنيسة وطلب منى أن أحضر من فوق منبرها التوراة التى كان تركها

هناك ، وشفع ذلك الطلب بكلمات ثناء على أقدامى ، جعلتني عاجزا عن التراجع .

وانطلقت الى مهمتى من غير ضوء . ومررت بالجبانة وأنا فى غاية الاطمئنان والبشاشة . اذ لم يكن من عادتى وأنا صغير أن أشعر بأى خوف ليلا مادمت فى الهواء الطلق .

ولما فتحت باب الكنيسة سمعت فى جوفها ما خيل الى أنه أصوات فتزعزعت شجاعتي الراسخة . وما خطوت الى الداخل حتى توقفت أمام الظلمة المخيفة داخل المعبد . ووقف شعر رأسى . فتراجعت وخرجت ووليت الأدبار وأنا أرتعد . فوجدت فى الفناء كلبا صغيرا اسمه سلطان جعل يداعبنى فعادت الى الطمأنينة . وشعرت بالخجل من خوفى . فرجعت الى الكنيسة وحاولت أن أقنع السلطان بالذهاب معى فأبى .

وتجاوزت عتبة الكنيسة بسرعة . واذا بالفزع يعاودنى بشدة أعنف حتى طاش صوابى . ومع أنى أعلم أن المنبر عن يمين الكنيسة ، رحت أبحث عنه طويلا عن يسارها . وتخبّطت بين المقاعد حتى لم أعد أدري أين أنا ولم أعرف طريق الباب . فاستولى على ذهول شديد . الى أن تعودت عيناي الظلمة ولمحت الباب . فأسرعت بالخروج وقد عولت على ألا أعود الى الكنيسة الا فى وضح النهار .

وعدت الى البيت وتأهببت للدخول . ولكنى تبينت صوت القس لامبارسييه يضحك ضحكات مدوية فخيّل الى أنه يتندر بى . وتصورت نفسى معرضا لتلك السخرية فترددت فى فتح الباب . ثم سمعت أبنته الآنسة لامبارسييه تسأل عنى قلقا وتأمر الخادمة بأعداد القانوس . ثم تأهب القس لامبارسييه نفسه أن يذهب للبحث عنى ومعه ابن عمى الذى سيظفر بالانتصار على فى تلك المناسبة .

وعلى الفور تبخرت مخاوفى الا الخوف من اكتشافهم لفرارى . وجريت
كالسهم الى الكنيسة . وفى هذه المرة لم أضل طريقى . بل وصلت فورا الى
المنبر وصعدته وتناولت التوراة . وفى ثلاث قفزات كنت فى الفناء
وأسرعت عائدا الى البيت قبيل أن تخرج البعثة للبحث عنى .

وقد تسألنى هل أنصح باحتذاء هذا المثال . وأنا لا أعتبره مثالا صالحا
لخلوه من البهجة والسرور . والأفضل فى نظرى أن أدعو مع تلميذى
أطفالا من سنه يخرجون جماعات فى الليل للسمر والغناء واللعب بحيث
لا تساورهم فكرة الفزع . وقد أصطنع لهم ألعابا فى الظلام للبحث عن
أشياء واحضارها من أماكن منعزلة مظلمة . وأجعل للفائز جائزة شهية
من الحلوى أو غيرها مما يجعل المسألة تنافسا محبوبا .

وأترك للمربين تنويع أفانين هذه الألعاب . فالمهم أن ينشأ الطفل
متعودا على الظلام والسلوك فى الليل ، واستعمال رجليه ويديه مهما كانت
شدة الظلام من غير وجل . فان مخيلته حين تكون ممتلئة بالألعاب
البهيجة التى اقترنت بالظلام فى حدائته ، لن تخيل اليه الأشياء المفزعة .
ولن يفرعه الليل . بل يحبه ويثير فى نفسه الطمأنينة والابتهاج .



منافع السباق

ان كل ما يتيح للجسم الحركة من غير أن يرهقه ،يمكن دائما حث الأطفال على فعله بسهولة . وهناك ألف وسيلة لاثارة اهتمامهم ودفعهم الى قياس ومعرفة وتقدير المسافات .

فان كانت أمامنا مثلاً شجرة كرز عالية جدا ،نثير أمام الطفل مشكلة قطف الكرز منها . وتتساءل هل يكفى سلم مخزن القمح للصعود اليها؟. وان كان أمامنا مجرى ماء عريض . تتساءل كيف يمكننا أن نعبه؟ هل يكفى لذلك لوح من ألواح الفناء نضعه على إحدى الضفتين فيصل بنا الى الضفة الأخرى؟.

ولنفرض أننا نريد أن نصيد السمك من الخندق المحيط بالقصر ونحن نطل من شرفة القصر . فكم ينبغي أن يكون طول خيط الشعر ؟ .

أو لنفرض أنى أريد عمل أرجوحة ما بين شجرتين . فكم طول الحبل الذى يلزم لذلك؟ وان قيل لنا ان هناك حجرة مساحتها خمسة وعشرون قدما مربعة ،فهل يحتمل أن تكون مساحتها كافية لاقامتنا ؟ وهل تكون أوسع من الحجرة التى نحن فيها الآن ؟ .

وحيثما نكون فى نزهة فى الخلاء ونشعر بالجوع ، وهناك قريتان عن يمين ويسار ، فالى أى القريتين يكون وصولنا أسرع لنظفر بالطعام ؟ وهكذا ..

واذا كان المراد تمرين طفل مدلل كسول على السباق والجري ،وكان هذا الطفل غير ميال لهذه الرياضة ولا لغيرها ،مع أن المفروض أن يتهيأ هذا الطفل لمستقبل فى الجندية . ذلك أنه استقر فى ذهنه لا أدرى كيف

أن رجلا من طبقته لا ينبغي أن يعمل شيئا . وأن نبالته يجب أن تكون فيها الكفاية له عن الأذرع والسيقان وجميع أنواع الكفاية .

ومن الصعب أن تقنع طفلا بممارسة السباق . ولا سيما أنني أخذت نفسى بالامتناع عن الترغيب والرغبة والتهديد . فكيف يمكن أن أثير لديه الرغبة فى الجرى من غير أن أقول له شيئا من هذا القبيل ؟

لو أننى شخصا جريت لما أجدى ذلك فى ترغيبه واليكم ما فعلته . كنت آخذ معى حين نخرج للنزهة بعد الظهر قطعتين من الحلوى من النوع الذى يحبه تلميذى غاية الحب وأضعهما فى جيبى . ويأكل كل واحد منا واحدة ونحن نتمشى بين الحقول ثم نعود مسرورين الى البيت .

ولاحظ ذات يوم أنى أخذت معى ثلاث قطع من تلك الحلاوى ، ولو تركته لشأنه لأكل ستا منها بغير تردد . فأسرع يلتهم قطعه كى يطلب منى القطعة الثالثة قبل أن أفرغ من قطعنى . فقلت له :

— كلا . انى أريد أن أكلها أنا . أو تقسمها فيما بيننا . بيد أنى أفضل ان أجعلها موضوع نزاع بين هذين الفلاحين الواقفين هناك . ينالها أسبقهما فى الجرى الى موضعها .

وناديت الفلاحين . وأريتهما الحلوى . واقترحت عليهما الشرط . فلقى منهما قبولا عظيما . فاخترت حجرا مرتفعا جعلته غاية السباق ووضعت فوقه الحلوى . ثم رسمت على الأرض خطا وقف عنده الغلامان . ولما أصدرت الإشارة أسرع الغلامان فى الجرى وأدرك الظافر منهما الغاية قبل صاحبه ، فاستولى على الحلوى والتهمها بغير رحمة تحت أنظار المتفرجين وصاحبه المغلوب .

ولم يحدث هذا المنظر الأثر المطلوب لدى التلميذ فى اليوم الأول . ولكنى لم أكرث ولم أتعجل . فترية الأطفال مهنة يجب أن نعرف فيها كيف نضيع الوقت لنوفره فيما بعد .

واستمرت نزهاتنا اليومية على وتيرتها الأولى. وكنت أحيانا آخذ معى ثلاث قطع من الحلوى وأحيانا أربعا. وبين حين وآخر كنت أعقد سباقا بين غلمان الطريق جائزته القطعة أو القطعتان من تلك الحلوى ، ولكن لم تكن الجائزة ذات بال ،الا أن الظافر كان يحظى دائما بالثناء العريض والمديح والتصفيق . مما يثير الحماسة فى المتنافسين . وفى أحيان كثيرة كنت أشرك فى السباق مجموعة بأسرها من الغلمان ، وأجعل مسافة السباق طويلة . فكان المارة يتجمعون مدفوعين بالفضول . ويرتفع الصياح والتشجيع . فتشتد حمية المتسابقين . وكنت أحيانا أرى تلميذى يشتعل حماسة ، فيقف ويصيح مشجعا ومحبذا . فكان هذا السباق الريفى الساذج هو الألعاب الأولمبية بالنسبة له . وبمرور الوقت صار يضايقه أن يرى الحلوى التى يحبها تذهب الى حلوق الغلمان وهو واقف يتطلع اليها . وبدأ النبيل الصغير يدرك أن الجرى مسألة لا تخلو من فوائد لذيدة الطعم . وتذكر أن له ساقين مثل سائر الغلمان . وشرع يتمرن على الجرى وحده خلصة .

وتظاهرت أنا بأنى لا أرى شيئا ولا ألاحظ شيئا . ولكنى أدركت أن خطتى نجحت . ولما اعتقد أنه صار على قسط وافر من القوة والقدرة على الجرى . قال لى ذات يوم :

— اعطنى قطعة الحلوى الفائزة ، فانى أريد أن آكلها .

فأبيت . وألح أن يأكلها . وأخيرا قال بأسلوب التحدى :

— ليكن اذن . ضعها فوق الحجر ودعنى أتسابق اليها مع الآخرين . فضحكت وقلت له :

— وهل يستطيع النبلاء الجرى ؟ ان الجرى سيزيد شهيتك للأكل . ولكنك لن تخرج من السباق ظافرا بما يشبع تلك الشهية ! .

فحزت فى نفسه هذه السخرية . واجتهد فى ذلك اليوم أن يحصل على

السبق . وتيسر له ذلك فعلا . لأننى حرصت فى ذلك اليوم أن يكون الشوط قصيرا جدا . واستبعدت أسرع المتسابقين . حتى يكون فوز تلميذى مؤكدا فى المحاولة الأولى فینبت فى قلبه حب السباق .

وبمرور الأيام تعلق بهذه الرياضة حتى صار قادرا من غير محابة على الفوز على الغلمان جميعا بالغاما بلغ طول الشوط .

ومع مرور الوقت أيضا نشأت لديه عادة أخرى لم أكن أحلم بها . ففى بداية الأمر كان يأكل الحلوى التى يفوز بها بمفرده كما يفعل سائر المتسابقين . ولما تعود الانتصار أصبح كريما وصار يقاسم المغلوبين الغنيمة . فتعلمت من هذا الذى حدث معنى السخاء الحقيقى .

* * *

ويجب أن يتعلم اميل الرسم ولن أجعل معلمه فى هذا الفن سوى الطبيعة . ولم يكن النموذج الذى ينقل عنه سوى موضوعاتها .

أما دراسة الهندسة فتكون عن طريق القياس الدقيق للأشياء والأشكال ثم عليه بعد ذلك أن يبحث عن العلاقات التى بينها . لست أرى أن تتبع الطريقة المقلوبة فى تعليم الهندسة بعرض منطوق النظرية ثم البحث بعد ذلك عن اثباتها . ومن المرغوب فيه أيضا تنمية الملاحظة أثناء اللعب عن طريق العين والأذن والأصوات لتقدير المسافات .



أميل طفلاً

لقد اتخذت منهج الطبيعة نفسها فى تربية تلميذى . وما لم أكن أخطأت فى تطبيق هذا المنهج ، فانى أفلح ولاشك فى توجيه هذا التلميذ عن طريق مملكة الحواس الى حدود العقل الطفلى . وأول خطوة تتجاوز بها تلك الحدود يجب أن تكون خطوة رجل لا طفل .

ولكن قبل أن ندخل فى هذه المرحلة الجديدة ، يجب أن نلقى بِنظارنا لحظة على المرحلة التى اجتزناها .

والآن متى نحس بلذة حقيقية من مشاهدة رجل ؟ .

انما يكون ذلك عندما ترد أفعاله ذاكرتنا الى باكورة عمره فتصغر سن هذا الرجل فى عيوننا . أما ان رأيناه كما هو ، أو كما سيكون فى شيخوخته ، فان فكرة الذبول والوهن تقضى على كل سرور به . فلا سرور مطلقاً من مشاهدة رجل يتقدم بخطوات واسعة نحو القبر . اذ أن صورة الموت تزيد كل شىء قبحاً . أما عندما أتصور طفلاً فى العاشرة أو الثانية عشرة من عمره ، سليم البنية قوى الصحة حسن التكوين بالنسبة لسنة . تتكون عندى فكرة عنه مرضية لطيفة سواء بالنسبة للحاضر أو بالنسبة للمستقبل . فأنا أراه متوقد الحيوية بريئاً من الهموم المضنية . ومن الحصافة البعيدة المدى الشديدة العناء . يفيض بالحياة فيضاً يكاد يمتد الى خارجه . فأتصوره فى سن أخرى وقد اكتملت له حواسه وقواه وذهنه يوماً بعد يوم . وهو يحسن استعمالها جميعاً . وهكذا أشاهده طفلاً فيعجبنى . وأتخيله رجلاً فيزداد اعجابى به . وكأنما دمه الحار يبعث

الحرارة في دمي . فأحس أني أحيأ بحياته ، وأن حيويته تردني الى الشباب .

وفي تلك السن تدق الساعة غالبا ، فيحدث تغير ، وياله من تغير ! فإذا بعينه وقد خمد لمعانها ، وبهيجته وقد انمحت . فودعا للسرور وللألعاب الالهية ! ان رجلا قاسيا متجهما يتناول يده ويقول له :
— هيا أيها السيد بنا ! .

ويدخل به الى حجرة الملح فيها أكواما من الكتب .

الكتب ! ياله من زاد كتيب قاتم في سنه ! وينقاد الطفل المسكين ويلتقي بنظرة حسرة على كل ما حوله ويسكت الى أن يخرج من الحجرة وقد انتفخت عيناه بالدموع الحبيسة وانتفخ قلبه بالتهنيدات المكثومة ! .

انك أيها الطفل الذي أربيه لن تخشى موقفا كهذا الموقف . فانك نشأت بلا خوف أو وجل ، لا يقلقك طلوع النهار ولا يزعجك سدول الليل ولا تعرف مشغلة لوقتك الا المسرات . ومريك ليس شخصا مرهوبا لديك ، وانما هو رفيق لهوك ومسراتك وألعابك .

ان اميل في هذه السن يفيض صحة وتوقدا . بشرته رقيقة ولكنها ناضرة . وليس فيه تخنث . وعضلاته بدأت تتكون . ونظراته لامعة لم تطفئها الأحزان الطويلة . ورأسه الذي لم يدفن بين الكتب لا يعرف التدلى فوق صدره .

فلنأخذ اميل أيها السادة ولنحاول أن نمتحنه . اسألوه عن كل شيء بكل ثقة . ولا تخشوا أن يتلعثم أو يحاول اثاره اهتمامكم بشخصه الى أن تضيق به . ولكن لا تنتظر منه عبارات منمقة أو صيغا محفوظة . وانما هي الحقائق مجردة في بساطتها بلا زخرف وبلا غرور . انه سيعترف لكم بما فعل من شر أو جال بخاطره ، كما يعترف لكم بما فعل من خير ، غير مفكر أو مخرج بالآثر الذي سيتركه في نفوسكم ، ذلك أنه يستخدم الكلام ببساطة وصراحة متناهية .

ولئن كانت أفكاره محدودة . الا أنها واضحة ، ولئن كان لا يعرف شيئا عن ظهر قلب . فهو يعرف الكثير عن خبرة وتجربة . ولئن كان قليل القراءة في كتبنا على خلاف سواه من الأطفال ، فهو يحسن القراءة في كتاب الطبيعة . وعقله ليس فى لسانه ، بل فى دماغه . وحافظته أقل نموا من واعيته وإدراكه . ولئن كان لا يتكلم الا لغته القومية فحسب ، فهو يدري ماذا يقول بها . وان كان لا يحسن تنميق القول مثل غيره . فهو يحسن العمل أكثر من غيره .

ان اميل لا يعرف ما هى الآلية الروتينية وليدة العادة . فما صنعه بالأمس ، لا يؤثر فيما يصنعه اليوم . والحق أن العادة تستمد تأثيرها من الكسل القطرى فى الانسان ، وكلما استسلمنا للعادة زاد كسلنا ، لأن العمل العادى أسهل ، من حيث أن تكرار العادة يشق الطريق ويمهده فيزداد السير فيه سهولة علينا . ولذا نلاحظ أن سلطان العادة أقوى ما يكون على الشيوخ والمدللين . وهو أضعف ما يكون على الشباب وذوى الهمة . فتربية العادات ليست فى صالح الأطفال لأنها توهم همتهم ونفوسهم يوما بعد يوم . والعادة الوحيدة التى يحسن تربية الأطفال عليها هى عادة الانصياع للعقل . وكل عادة سوى هذه شر ورذيلة .

اميل اذن لا يتبع عادة معينة ، ولا يخضع اطلاقا لسلطة أو قدوة . ولا يعمل أو يتكلم الا بما يروق له . فلا تنتظروا منه خطبا متحذقة ، بل تعبيراً صادقا أميناً عن أفكاره . وسلوكاً وليداً من ميوله ونزعاته .

ولئن وجدتم معلوماته الأدبية والأخلاقية قليلة ، ومحدودة بعمره وحالته الطفلية ، ولا دراية لديه بالمفاهيم الخلقية التى تتصل بحياة الرجال . فما قيمة ذلك بالنسبة له ، ما دام طفلاً لم يصبح بعد عضواً عاملاً فى المجتمع ؟

اسألوه أو حدثوه عن الحرية وعن الملكية بل وعن العرف . وسيعرف

كيف يوفى الموضوع حقه فى حدود أن ماله له ،وما ليس له فهو ليس له .
ولماذا ينبغى ألا يؤذى سواه كى لا يؤذيه أحد . ويعرف تلك الأسباب
جيذا . أما فيما عدا ذلك فلا يعرف شيئا .

حدثوه عن الواجب ، وعن الطاعة ، فلن يدرك ماذا تعنون بذلك . مروه
بشيء أن يفعله ، فلن يفهم ولن يسمع . ولكن قولوا له :
— ان أديت لى هذه الخدمة رددتها لك بمثلها فى حينها .

وستجدونه يخف لأداء الخدمة على الفور . لأنه حريص أن تكون له
عليكم تلك الحقوق المقدسة ، حقوق المعروف المتبادل .

ومن جانبه ، ان احتاج الى مساعدتكم ، فسيطلبها من أول من يلقاه
منكم بلا تردد ، أيا كان هذا الشخص . سيطلب المعونة من الملك كما
يطلبها من خادمه . فجميع الناس سواسية فى نظره . وسترون أنه حين
يلتمس شيئا لا يلتمسه فى مذلة ولا فى الزام . بيد أنه يشعر أن ما يطلبه
منة منكم . ولكنه يشعر فى الوقت نفسه أن الصلة الانسانية تحمل الناس
على اسداء تلك المنة .

واذا أنتم أجبتم ملتمسه ، فلا تنتظروا منه أن يشكركم . ولكن ثقوا
أنه يشعر بمقدار دينه لكم . فان رفضتم اجابة ملتمسه لن يتدمر ولن
يلج . بل سيقول لنفسه ان طلبه كان فوق طاقتكم . والتمرد على حكم
الطبيعة والضرورة ليس من طبعه ولا من نشأته .

اتركوه وحده طليقا حرا . وانظروا ماذا يعمل من غير أن تقولوا له
شيئا . ولا حظوا طريقة عمله . ولأنه مطبوع على الحرية فهو ليس بحاجة
الى توكيد شعوره بالحرية عن طريق الأعمال الطائشة .

وسترونه متيقظا خفيفا بارعا مرنا الحركات . ولكن ما من حركة يأتيها
بلا هدف . ولا يحاول مطلقا أى أمر يتجاوز حدود قدرته . ذلك أنه

يعرف جيدا بالخبرة حدود تلك القدرة . ويعرف كيف يلائم بين أغراضه وقدرته ولذا قلما يجانب التوفيق في أعماله .

ان نظرته ثاقبة ويحسن بها التمييز والتقدير . وهو معتمد على نفسه لا يسأل الناس أبدا عن أشياء يعرف هو كيف يحصل على معلوماتها بالملاحظة . فهو ميال لبذل المجهود كي يحصل بنفسه على المعلومات من دون سؤال .

واذا حدث أن وقع في مأزق ، فلا تجده مرتبكا مذعورا . ولا تخيفه المخاطر . لأن مخيلته لم تنشط بعد وتربيته لم تساعد على الاشتغال ، فنظرته الى الأشياء واقعية . وهذا سبب احتفاظه بشبابه .

وسواء كان بصدد عمل أو بصدد لهو ، فالإنسان لديه واحد . فألعابه أشغال . ولذا فهو لا يفرق بين الشغل والتسلية أو الهواية . فهو لا يعمل الا ما يهوى .

أليس هذا المنظر في تلك السن مما يشرح الصدر ويسر الخاطر ؟ فالطفل جميل متوقد النظرة طلق المحيا مطمئن النفس ، يقدم على الأعمال الجدية وكأنه يلهو ، ويقدم على اللهو بمجموع نفسه وذهنه .

أتريدون الآن أن تقارنوا بينه وبين سواه من أبناء سنه ؟ .

اخلطوه بين سواه من الأطفال واتركوه يتصرف . وسترون على الفور أيهم أقوم تكويننا ، وأقرب الى الكمال في تلك المرحلة من العمر .

لن تجدوا بين أبناء المدن من يفوقه براعة . ومع هذا فهو أقوى منهم جميعا بنية . أما بين أبناء الريف فهو يضارعهم قوة ويفوقهم مهارة . ولديه حكم صائب وتمييز صادق في كل ما يتصل بأحوال الطفولة .

أما الجرى والقفز ورفع الأثقال وتقدير المسافات وإبتكار الألعاب والفوز في المسابقات فهو في كل ذلك لا يشق له غبار .

وهو مفطور على الزعامة والقيادة ، لا لايमानه بفضلله على غيره حسبا
أو سلطانا ، بل لأن مهارته وتجربته تؤهلانه لذلك . وفى أى مجموعة من
أى طبقة ستجد له المكانة المرموقة . وسيشعر الجميع بتفوقه عليهم .
وسيكون هو السيد من غير رغبة فى السيطرة . وسيطيعونه وهم
لا يشعرون .

لقد وصل اميل الى نضوج الطفولة . ولم ينزل فى سبيل ذلك النضوج
عن مباحج الطفولة وسعاداتها . بل سارت المسرات والنضوج جنباً الى جنب
فاكتسب كل حكمة سنه وهو سعيد حر الى أقصى حد . فان وافاه الموت
الآن فلن نبكى موته وحياته معا ولن نتحسر لما حرماناه من ملذات الطفولة
وسيناه له من آلام . بل سنجد العزاء فى أنه استمتع بطفولته فى كل
لحظة ولم نحرمه من أى نعمة أفاضتها عليه الطبيعة .

وأسوأ ما فى هذه التربية الاستقلالية الأولى أن عقلاء الناس وحدهم
هم الذين يقدرونها قدرها . أما سواهم من الدهماء فلا يرون فى مثل
ذلك الطفل الا متشردا عديم التربية . والمعلمون يفضلون كسب السمعة
على حساب تكوين الطفل ، وكأن الطفل سلعة كل همهم منها الربح .



الكتاب الثالث

الغلام من الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة :

التربية الذهنية

- التعليم التجريبي
- فكرة المنفعة
- أميل نجارا
- تكوين الحكم
- أميل في الخامسة عشرة

التعليم التجريبي

فلنحول احساساتنا الى أفكار ، ولكن ينبغي ألا نقفز طرفة واحدة من الأشياء المحسوسة الى الأشياء الذهنية أو المعقولة . بل يجب أن يكون وصولنا الى تلك الأشياء المعقولة عن طريق الأشياء المحسوسة . ولذا يجب أن تكون الحواس مرشد الفكر ودليله في عملياته الأولى . ولا ينبغي أن يكون هناك كتاب لدى الفتى غير كتاب الدنيا من حوله . ولا ينبغي أن يكون هناك تعليم أو ارشاد الا ما تلقنه اياه الحوادث والوقائع .

ان الطفل الذي يقرأ لا يفكر . فهو يقرأ فحسب . انه لا يتعلم حقا . بل هو يحفظ ألفاظا فحسب .

اجعل تلميذك يتتبع لظواهر الطبيعة ، وسرعان ما يصبح متطلعا يملؤه الفضول اليها . ولكن اياك أن تتعجل اشباع هذا الفضول الذي أيقظته عنده . بل ضع المسائل في متناول يده ، ثم دعه يتول حل كل مسألة منها بنفسه . اذ يجب ألا يعرف شيئا على أساس أنك قلت له أو لقتته اياه ، بل لأنه فهمه بنفسه . انه يجب أن يخترع العلم ويكتشفه ، لا أن يحفظه ويتلقنه . فانك ان أحللت يوما قى عقله سلطانك مكان تفكيره ، فلن يفكر بعدها ولن يعقل ، ولن يصبح الا ألعبوبة لآراء سواه من الناس .

لنفرض أنك تريد أن تعلم ذلك الطفل الجغرافيا ، وأراك تريد أن تأتيه بمجموعة من الكرات الأرضية والأفلاك والخرائط . يا لها من أدوات ! ما لزوم كل هذا ؟ ولماذا كل هذه النماذج ؟ أليس الأولى ثم الأولى أن تبدأ باطلاعه على الشيء الأصلي نفسه ، حتى يعرف على الأقل ما الذي تكلمه عنه ؟!

اخرج معه للنزهة فى ليلة صافية فى مكان مناسب ، حيث أفق السماء منكشف بحيث تريان معا غروب الشمس بوضوح تام. وستلاحظان المعالم التى تحدد المكان الذى اختفى فيه قرص الشمس . ثم فى اليوم التالى تخرجان الى ذلك الموضع نفسه فى ساعة مبكرة لاستنشاق نسيم الفجر . وستريان الشمس تعلن عن بزوغها بتلك الأضواء النارية كالسنة الذهب التى تندلع فى الأفق ويزداد منظر الحريق استفحالا كأنما شبت النار فى الأفق الشرقى كله . ويطول انتظار ظهور قرص الشمس نفسه . وأخيرا يظهر . وتتهتك آخر أستار الظلام ثم لا تلبث أن تتهاوى جميعا . فإذا كل ما فى الأرض قد اكتسى جلبابا جديدا من رواء ونضارة . وإذا الزرع قد زهت خضرته . والطيور أطلقت حناجرها فى صوت واحد لتحية مصدر الحرارة والحياة فى عالمنا . وأنه لمنظر يستغرق نصف ساعة على الأقل يفتتن به أى انسان مهما تكرر على حواسه هذا المشهد .

وقد يخطر للمعلم أن ينقل حماسه الى تلميذه بشروح وتعبيرات وتعليقات ، ولكن يالها من حماقة ! فإن جمال الطبيعة لا يمكن أن يحس بالألفاظ ، بل بالمشاهدة المباشرة . وإدراك العلاقات التى بين الأشياء الجميلة لا يتم بالشرح ، بل بالتجربة المتفاوتة لأجواء مختلفة ومناظر متباينة . فدع عنك الوصف والبيان والاستعارة والشعر . بل اتركه لاحساساته .

ولكن انتهر هذه الفرصة ، بعد أن تترك له فسحة من الوقت لتأمل الجمال فى موكب الشروق ، وأشر الى الأشياء التى تجاور مطلع الشمس ، ثم در معه بصفة طبيعية لمشاهدة المعالم المحيطة بذلك المكان . وقف صامتا أمام كل اتجاه كأنك تفكر تفكيرا عميقا فيما تراه ، ثم قل له أخيرا :
— يخيّل الى أن الشمس أمس مشاء غربت هناك فى ذلك الموضع .

وها هي قد أشرقت علينا من هناك هذا الصباح . فكيف أمكن أن يحدث هذا ؟ كيف تشرق الشمس من غير الموضع الذي غربت منه ؟ .

ولا تزد على ذلك حرفا . وان رماك بالأسئلة ، فلا تجبه عنها ، بل تكلم في موضوع آخر . واتركه لنفسه . وثق أنه سيفكر فيطيل التفكير في تلك المسألة .

أجل . لكى يتعود الطفل الابتاه واليقظة ، ولكى تجابه حقيقة من الحقائق الحسية ، يجب أن تسبب له تلك الحقيقة عجبا يدوم بضعة أيام قبل أن تتكشف له . فان لم يتصور تلك الحقيقة بهذه القوة على هذا النحو ، يجب أن نجعله يحسها بمزيد من القوة وذلك بأن نعود الى إثارة المسألة . فان لم يعرف بعدها كيف تنتقل الشمس من مغربها الى مشرقها فسيعرف بالمشاهدة المباشرة كيف تنتقل الشمس من مشرقها الى مغربها . فهو ليس بحاجة في هذا الادراك الا الى عينية المجردتين .

قم بعد ذلك بتوضيح المسألة الأولى بالمسألة الثانية . أى بتوضيح حركة الشمس الخفية عن الأنظار من المغرب الى المشرق بحركة الشمس الظاهرية من المشرق الى المغرب . وما لم يكن تلميذك آية فى الغباء ، فسيدرك حتما وجه الشبه الواضح للغاية بين المسألتين . وبهذا يتم له أول درس فى الجغرافيا الفلكية .

وليكن تأدينا بطيئا دائما من فكرة محسوسة الى فكرة محسوسة ، بحيث نألفها طويلا ونربط بينها وبين سابقتها قبل أن تنتقل الى فكرة تالية لها . ويجب على الخصوص ألا نجبر تلميذنا اطلاقا على الابتاه لمسألة ما بوجه الارغام . ويكفى أن نوجه أنظار التلميذ بعد اكتشافه لحركة الشمس الدائرية ولشكل الأرض الكروي كى يكتشف أن جميع الحركات الظاهرية للأجرام السماوية قائمة على هذا المبدأ بعينه .

ولما كانت الشمس تدور حول الأرض على شكل دائرة . فكل دائرة

يجب أن يكون لها مركز . وهذا المركز طبيعي لا نراه لأنه في جوف الأرض . ولكن يمكننا تصوره . وتصور عامود يخترقه ، هو محور الأرض . وفي السهرات الليلية يمكن أن تتسلى مع التلييد باكتشاف الدب القطبي ، ونخبره بأنه سمي بالقطب لأن محور الأرض متجه إليه دائما . ومن مثل هذه التسلية يترى لديه الذوق الفلكي وحب ملاحظة الكواكب والنجوم في مساراتها .

وننتقل عندما يأتى موسم عيد الميلاد للنزهة فى الموضع الذى راقبنا منه شروق الشمس صيفا . وسنلاحظ أن الشروق فى موسم عيد الميلاد منحرف عن ذلك الموضع فى الصيف . ومن هنا نثير مسألة تحديد الشروق فى الصيف ، وتحديد الشروق فى الشتاء . ويجرنا ذلك الى اكتشاف أصول جغرافية أخرى ، لا على نماذج من الدمى ، بل بمشاهدة الشمس ذاتها والأرض ذاتها .

وعلى الجملة لا تستعص مطلقا بالرمز عن الشئ ذاته الا عند استحالة الدراسة على الطبيعة ، لأن الرمز يستغرق انتباه الطفل وينسيه المرموز اليه .

* * *

وأما عن دراسة العلوم فألاحظ أننا لا نتجح مطلقا فى وضع أنفسنا موضع الطفل ، ولهذا تتصور أفكاره كأفكارنا ونحاول أن نعلمه العلوم عن طريق منهجنا فى الاستدلال . فنصب فى أدمغة الأطفال سلسلات من الحقائق التى تغدو فى تلك الأدمغة أكواما من التهاويل والأخطاء .

وهناك خلاف حول اختيار منهج التحليل أو منهج التركيب لدراسة العلوم . ولا لزوم فى الواقع للاختيار بينهما . فأحيانا يمكننا أن نحلل ونركب فى البحث الواحد . ونقود الطفل بينما هو يظن أنه منصرف للتحليل . فالطريقتان متكاملتان . وإذا استخدمناهما معا ، فسيدهش

الطفل اذ يجد أنهما تتلاقيان . وذلك حين نجمع بين اكتشاف الحقائق
بالتحليل وبين عمل التجارب التطبيقية التى تؤدى الى نوع من التركيب .
ويمكن استخدام ذلك فى الجغرافيا مثلا بأن نحاول مع دراسة حركة
الأرض أن نقيس أجزاءها ، فنبدأ بالمنطقة التى نسكنها . وبذلك يجمع
التلميذ بين ملاحظة السماء وملاحظة الأرض . فليحدد الطفل أولا موقع البيت
الريفى من المدينة . ثم يحدد الأماكن والمواضع التى بينهما ، ثم الأنهار
المجاورة ، وأخيرا اتجاه الشمس . وبذلك يتم الربط بين جميع هذه
التفاصيل .

وليقيم التلميذ بنفسه بعمل خريطة ذلك كله . ولتكن خريطة بسيطة
جدا لا تتضمن فى البداية الا شيئين . ثم يضيف شيئا فشيئا التفاصيل
الأخرى ، بحيث يعرف أو يقدر المسافات فيما بينها ومواضعها . ومن هذا
يتضح جدوى تربيتنا لحاسة النظر منذ الطفولة كى يتقن الطفل تقدير
الأبعاد والمواقع .

ومع هذا يجب أن نرشده قليلا جدا من غير أن نظهر ذلك . وان أخطأ
فلنتركه يخطئ ولا نصحح خطأه . بل ننتظر صامتين الى أن يكتشف
أخطائه ويصححها بنفسه . أو على الأقل فلننتهز فرصة موالية كى نقوم
بعملية تجعله يفتن الى وجه الخطأ من تلقاء نفسه . فانه ما لم يخطئ .
اطلاقا لن يتعلم حق التعلم .

وعلى كل حال ليس المقصود أن يعرف معالم الاقليم بالضبط ، بل
المقصود أن يكون ذلك وسيلة لتعلمه بوجه عام مبادئ الجغرافيا .
بالاستنباط من دراسة اقليمه .

أجل ليس المقصود أن يحشو دماغه بالخرائط ، بل المهم أن يتصور
ما تمثله تلك الخرائط ، وأن تكون لديه فكرة محددة عن الفن الذى

يستخدم فى عملها . وهكذا يعرف التلاميذ الآخرون الخرائط ، أما تلميذى
فبصنعها . وتلك نمارق جديدة يزين بها حجرته الخاصة .

وتذكروا دائما أن هدفى من التعليم ليس الاكثار من المعلومات ، بل
ألا أدع شيئا يتسرب الى ذهن التلميذ سوى الأفكار الدقيقة الواضحة .
فليس يعنينى ألا يعرف شيئا ، ما دام لا يعرف شيئا خاطئا مغلوطا . وليس
همى أن أودع دماغه الحقائق الا لأحميه من الأخطاء التى كان حريا أن
يتعلمها بدلا منها .

ان العقل والتمييز يتحققان لديه على مهل . أما المزاعم فتنهال عليه
أفواجا . ومن هذه المزاعم المتدققة ينبغى أن نجتهد فى حمايته . أما اذا
نظرتم الى العلم فى ذاته ، فستتورطون فى بحر ليس له قرار وليس له
شاطىء ، محافل بالأصداغ ، ولن تجدوا الى الخروج منه سبيلا على
الاطلاق .

* * *

لقد كان الوقت فى فترة الطفولة طويلا ، وكان همنا منصرفا الى
تضييعه ، خشية أن نزلق الى سوء استخدامه . أما الآن فالأمر بالعكس
وليس لدينا ما يكفى من الوقت لنعمل كل ما هو نافع . فتذكر أن العواطف
قد اقترب أوانها . وأنها متى طرقت باب تلميذك ، فلن يهتم تلميذك
بسواها .

ان عمر الذكاء الهادى الوادع قصير ، وسرعان ما ينقضى . وأمامك
الكثير الذى ينبغى أن تستغل هذا العمر فيه . فمن الغباء أن تظن أنه
يكفى ذلك الأمد لجعل الطفل عالما من العلماء .

ليس الغرض فى هذه الفترة اطلاقا أن نعلمه العلوم ، بل الغرض أن
نربى فيه الذوق ليجبها ، ونربى لديه مناهج تعلمها بنفسه عندما يبلغ
ذلك الذوق أشده . وهذا يقينا هو المبدأ الأساسى لكل تربية جيدة .

وهذا أيضا هو أوان تعويده شيئا فشيئا على الانتباه المتصل بموضوع بعينه . ولكن ليس بالارغام اطلاقا بل بالسرور أو الرغبة التي يجب أن تنتج هذا الانتباه . فالحذر كل الحذر من ثقل الموضوع على نفسه بما يدفعه الى الملل .

ان سألك التلميذ بنفسه فليكن جوابك بحيث يذكى فضوله بدلا من أن يشبعه . وخصوصا حينما تلمس أن سؤاله صدر عن اهتمام سطحي بالموضوع . فليكن اتبهاك لا الى لفظ السؤال بل الى باعشه على القائه . وهذا التحذير ربما لم تكن له أهمية في الطفولة الأولى ، أما الآن وقد بلغ الفتى سن التعقل ، فينبغى أن يكون اهتمامه بما يسأل اهتماما عقليا صحيحا .

وهناك سلسلة من الحقائق الكلية تربط بين جميع العلوم بمبادئ مشتركة . وهذه السلسلة هي التي نجدها في منهج الفلاسفة . وليست هي التي تعنينا . ولكن السلسلة التي تعنينا هي ترابط كل موضوع جزئى بموضوع جزئى آخر . وهذا الترابط هو الذى يثير الفضول وينقل الاهتمام من حقيقة الى أخرى ، ويحتاج لاهتمام شديد . وهذا هو ما ينبغى أن نعلمه للأطفال .

لقد لاحظت مثلا أنا وتلميذى منذ زمن طويل أن الزجاج والشمع والكهرمان ، وأجساما أخرى ، متى دلكت جذبت القش . وأن سائر الأجسام لا تجذبه . ثم نكتشف صدفة خاصة أخرى أشد غرابة . وهي أن جسما معيناً يجذب على مسافة ومن غير ذلك برادة الحديد والدبابيس . فتسلينا هذه الظاهرة ونلهو بها وقتا طويلا من غير أن نفطن الى شيء آخر .

وأخيرا نكتشف أن هذه الخاصة تنتقل الى الدبابيس نفسها فتصبح

ممغنطة وتجذب سواها على نحو خاص . وبالتدريج نكتشف قوانين الفيزياء المغناطيسية بكل تفاصيلها وقوانينها .

وسيكشف اميل بنجارب مماثلة قوانين الاستاتيكية . على أن يركب أجهزته بنفسه ويخترعها بنفسه وبهذا يشارك جسمه كله في النشاط الذى يقوم به الذهن .

ولمساعدة الذاكرة يجب أن يكون الانتقال من تجربة الى أخرى بحسب نظام منطقى .



فكرة المنفعة

ينبغي أن نعود الطفل على الشعور بمنفعة ما يتعلمه وجدواه . وبذلك يتعود ألا ينقاد انقيادا أعمى فى أعماله وأفكاره . ونسمى فيه روح المبادأة . فلنفرض أنى بينما أدرس مع تلميذى مجرى الشمس وطريقة الاتجاه أنه استوقفنى ليسألنى ما جدوى كل هذا . وانها لمناسبة فذة كى أعرفه أشياء ثمينة جدا . وألقى عليه خطبة بليغة عن منافع الرحلات وفوائد التجارة ، والحاصلات الخاصة بكل اقليم من أقاليم الأرض والعادات الخاصة بكل شعب من شعوبها ، وعن استخدام التقويم ، وفائدة تعاقب الفصول لتنظيم مواسم الزراعة . وعلاقة كل ذلك بالتاريخ الطبيعى والسياسة والفلك والأخلاق نفسها .

ولو فعلتها لأتيت شيئا رنانا يبهز السامعين ولكنه يجعل من تلميذى قدما لا يفهم شيئا مما قلت . أما اميل فلن يسمع منى شيئا من ذلك . ولو شرعت فيه لأوقفنى عند أول عبارة ولتركنى وغادر الحجرة لأن ما أقوله لا يعنيه . بل ينبغي أن أتخذ لتفهمه فائدة اتجاه الشمس ومسارها أن أقدم له تجربة عملية .

سأخذه الى غابة فى شمال القرية بمجرد أن يسألنى سؤاله عن جدوى تلك الدراسة ، وأقول له :

— معك حق . فهذا سؤال يحتاج التفكير فيه لفراغ . ولهذا سنترك الدراسة الى أن نهتدى لمنفعتها . فان ثبتت لها منفعة عدنا اليها على بينة . والا وفرنا تعبنا . فهيا تنتزه بقية يومنا فى الغابة .

وفى اليوم التالى أيضا آخذه منذ الصباح الباكر للنزهة قبل الافطار .

وهذا شيء يستهويه طبعاً ، لأنه فرصة للجري والنط في الخلاء . ونوغل في الغابة ونضل الطريق في داخلها فلا نعرف أين نحن ولا كيف نعود . وينقضى الوقت . ويهجم الحر . ويهجم الجوع . وتتعجل العودة . وتتخبط يميناً وشمالاً فلا نرى إلا أشجاراً ولا نجد ما يهديننا إلى المخرج من التيه . فكل خطوة تزيد من ضلالنا . وأخيراً ينال منا التعب فنجلس على العشب ونفكر . ولما كان اميل تربي على الشجاعة فلن يبكى . وبعد لحظات من الصمت أقول له بلهجة القلق :

- يا عزيزي كيف نخرج من هنا ؟ .
- لا أدري . لقد تعبت وجعت وعطشت . ولم أعد أطيق أكثر من ذلك .
- ألا تظن أنني في مثل حالتك ؟ كم الساعة الآن ؟ .
- نحن في الظهر . وأنا لم أفطر .
- آه ! لا بد أنك جعت .
- طبعاً . وأنت ؟ .
- وأنا أيضاً . ولكن الكارثة أن غذائي لا يسكن أن يأتيني إلى هنا . بل يجب أن أذهب أنا إليه . نحن الآن في الظهر . أي بالضبط في الوقت الذي وقفنا فيه بالأمس عند القرية لنلاحظ موقع الغابة . فلو استطعنا أن نلاحظ من الغابة موقع القرية لنحل الاشكال .
- طبعاً . ولكننا بالأمس كنا نرى الغابة ونحن في القرية . أما هنا في الغابة فلا نرى القرية ! .
- وهذه هي الكارثة . فلو استطعنا أن نستغنى عن مشاهدة القرية عند تحديد موضعها من هنا ؟ .
- على رسلك يا صديقي ! .
- ألم نكن نقول بالأمس ان الغابة كانت إلى ..
- شمال القرية ! .

— اذن يجب أن تكون القرية الى ...

— جنوب الغابة .

— وهل لدينا وسيلة لمعرفة الشمال وقت الظهر ؟ .

— نعم . باتجاه الظل .

— والجنوب كيف نعرفه ؟ .

— ما العمل ؟ .

— ان الجنوب عكس الشمال .

— هذا صحيح . ليس علينا الا البحث عن عكس الظل .

من هنا الجنوب ! من هنا الجنوب ! لابد أن القرية فى هذه الجهة .
فلنذهب من هذه الناحية .

— ربما كنت على حق . هيا بنا .

وبعد مسافة يسيرة يصفق اميل بيديه ويطلق صيحات السرور

والفرح ويهتف :

— ها هى القرية ! هيا بنا تتعدى ! اسرع ! حقا ان الجغرافيا الفلكية

شئ نافع ! .

وثقوا أنه ان لم يقل هذه العبارة الأخيرة بلسانه ، فسيثقلها فى
ذهنه . وليس هذا هو المهم . انما المهم أن أقولها أنا له . وثقوا أيضا أنه
لن ينسى ما عاش الدرس الذى تلقنه فى ذلك اليوم . أما لو قلت له
بلسانى جميع منافع تلك الدراسة ونحن فى الحجرة لنسى كل ما سمع
فى آخر النهار . فالواجب أن نكلم التلميذ بلغة الأفعال والحوادث .
ولا نقول باللسان الا ما نعجز عنه عمليا .

* * *

وبمجرد أن يبدأ الطفل فى التفكير والتعقل ، يجب أن نحول بينه

وبين مقارنة نفسه بسواه من الأطفال . لأنه لن يجنى من ذلك الا احدى
سيتين : اما الحسد واما الغرور . فليكن هو معيار نفسه . فذلك وحده
أنفع وأجدى .

ان الكتب ضارة لأنها تعلمه أن يخوض بالكلام فيما لا يعرف . ولن
أترك بيد اميل الا كتاب روبنسون كروزو لأنه صورة رجل عمل بمفرده
على حفظ حياته . فهو جدير أن يرتفع باميل فوق مستوى المزاعم المنقولة
عن الغير ويعلمه الحكم السليم الصائب على العلاقات التي بين الأشياء .



اميل نجارا

اميل يعيش في المجتمع . فينبغي اذن أن يدرس العلاقات الاجتماعية . ولكن ينبغي ألا نطلعه على تلك العلاقات من جانبها المعنوي الأخلاقي ، بل نوجه انتباهه أولا نحو الصناعة والفنون الميكانيكية التي تجعل الناس بعضهم نافعا لبعض .

وعلى خلاف العقيدة الشائعة سيتعلم اميل كيف يقدر الفنون المختلفة على أساس منفعتها الحقيقية وحدها . ويجب أن نضع في المقام الأول بين الفنون تلك التي يعم استخدامها ولا غنى عنها للبشرية . وأعني بذلك الزراعة والحدادة والنجارة .. الخ . أما الاقتصاد السياسي فسوف لا يعرف عنه اميل الا ما يتصل بالملكية وباستخدام النقود . فالتقود هي الرباط الحقيقي في المجتمع بين الناس . من حيث هي تتيح تحقيق تبادل العمل ، وتبادل العمل هو أساس المجتمع بعينه .

فلنفرض أن لدينا عشرة رجال . وكل منهم لديه عشرة احتياجات . فمعنى هذا أن كلا منهم يجب عليه للوفاء بضرورياته أن يمارس عشرة أنواع من العمل . ولكن اذا راعينا اختلاف الذكاء والمواهب ، فسنجد أن الواحد منهم يتفوق في نوع من العمل على زملائه ، ويتخلف في نوع آخر من العمل عن هؤلاء الزملاء .

فاذا قام الجميع على اختلاف قدراتهم بأعمال واحدة حدث لدى كل منهم نوع أو أكثر من النقص وسوء الخدمة . أما اذا كونا مجتمعا من هؤلاء الرجال العشرة ، وتخصص كل واحد منهم في نوع العمل الذي نبغ فيه ، بحيث ينتج منه ما يكفيه ويكفي زملاءه التسعة ، استفاد كل

واحد من أفراد ذلك المجتمع من مواهب الآخرين كأنه متمتع بتلك المواهب جميعا . وبذلك يزداد ازدهار ذلك المجتمع ، وبالتمرين المستمر والتخصص الدقيق ينتج كل واحد منهم مزيدا من السلعة ، بحيث يجد المجتمع بعد برهة وجيزة أنه يملك فائضا من انتاجه يربو عن حاجته الضيقة .

وهذا هو المبدأ الظاهري لجميع المجتمعات . وعلى أساس هذا المبدأ نجد أن الرجل الذي يريد أن يعتبر نفسه كائنا منعزلا ، لا يرتبط إطلاقا بشيء ، ويكفى حاجاته بنفسه ، لن يكون الا كائنا شقيا . بل سيكون من المستحيل عليه أن يثابر على ذلك المنوال من الحياة . لأنه سيجد الأرض بأكملها تسودها روح اجتماعية . فلا يجد له من حطام الدنيا ما يملكه سوى نفسه . فمن أين اذن يستطيع أن يكفى حاجاته ؟ .

أما اذا خرج هذا الكائن المنعزل من حال الطبيعة البدائية فالموقف يتغير . ذلك أن خروجنا عن حال الطبيعة الأولى أجبر أقراننا على الخروج أيضا من حال العزلة الأولى . فما من أحد يستطيع أن يبقى في عزلة بغير ارادة الآخرين . ولا بد للشخص من الخروج من عزلته ، ما لم يكن راغبا في البقاء في حالة استحالة الحياة . لأن القانون الأول للطبيعة هو المحافظة على بقاء الذات .

وهكذا تتكون شيئا فشيئا في ذهن الطفل معانى العلاقات الاجتماعية، حتى قبل أن يصبح فعلا عضوا عاملا في المجتمع . فاميل يرى أنه لكي يحصل على أدوات لاستعماله الخاص ، كذلك يجب أن تكون لديه أدوات تصلح لاستعمال الآخرين الخاص . وببداية هذه بتلك يحصل من الآخرين على احتياجاته مقابل حصولهم منه على احتياجاتهم . وبهذا أقوده في سر الى الاحساس بالحاجة الى ذلك التبادل ، ويجدوى ذلك التبادل في الوقت نفسه .

ولما كان أشد ما تنفرنا منه الطبيعة هو الموت ، فمن الواضح أن كل شيء مباح عند الضرورة للاستمرار في الحياة ودفع غائلة الموت . أما المبادئ التى يتعلم منها الرجل الفاضل ازدراء حياته واهدائها فى سبيل واجبه ، فما أبعدها عن هذه القاعدة الطبيعية التى تقرر حفظ النفس .

وانى أقرر أنه ان وجدت فى الأرض دولة لا يستطيع كل واحد من أفرادها أن يعيش من غير أن يلحق الأذى ويقترب الأثم ، وحيث المواطنون لصوص بالضرورة ، فليس الأثم هو الذى ينبغى أن يشنق ، بل ذلك الذى أجبر الأثم على أن يغدو آثما كى يعيش ! .

وبمجرد أن يعرف اميل ما هى الحياة ، سيكون واجبي الأول أن أعلمه كيف يحافظ عليها .

وانى حتى الآن لم أميز الطبقات والمقامات والثروات . وليس فى نيتى أن أفرق بينها ، لأن الانسان هو الانسان بعينه فى جميع أحواله . وهيهات أن يكون للغنى معدة أكبر من معدة الفقير ، أو أن يكون أجود منه هضمًا . وهيهات لكبير أن يكون أكبر من رجل من عامة الشعب . فالاحتياجات الطبيعية واحدة لدى الجميع . ووسائل كفايتها يجب أن تكون متساوية لدى الجميع .

فلتكن التربية تربية الانسان من حيث هو ، لا تربية الانسان من حيث ما ليس هو ! ألا ترون أنكم اذ تعملون على تنشئة الرجل ليعيش فى طبقة معينة مما يجعله غير صالح لطبقة سواها . وأنه عند أى تغير يروق للأقدار سيكون هذا الشخص شقيا ، وستكون تربيتكم له مجهودا متواصلا للامعان فى شقائه ؟ .

أى شيء أسخف من سيد عظيم صار صعلوكا محملا مع فاقته بكل مزاعم حسبه ونسبه ؟ وأى شيء أخط من ثرى افتقر ، وكلما تذكر ما تعلمه من احتقار الفقر زاد شعوره بحقارة مصيره ؟ .

انكم تكونون الى النظام الاجتماعى الحالى من غير أن تفكروا فى أن ذلك النظام عرضة لثورات لا مناص منها . وانه من المستحيل أن تتوقعوا سلفا أو تتنبأوا سلفا بما يمكن أن يحدث لأطفالكم غدا . ان الكبير يسمى صغيرا ، والغنى يسمى فقيرا ، والملك يسمى رعية . وضربات القدر ليست من القلة بحيث تظنون أنفسكم بمنجاة منها . اننا تقترب من قمة الأزمة، وتقترب من عصر الثورات . فمن ذا الذى يضمن لكم ماذا ستكونون عندئذ ؟ .

انى أقرر أنه من المستحيل أن تبقى الملكيات فى أوروبا طويلا . لقد ازدهرت جميعها ببريق خلاب . وكل دولة تبلغ أوج البريق والازدهار تبدأ فى الانحدار . بل وعندى من الأسباب ما هو أخص من هذا المبدأ العام . ولكنى أمسك عن الخوض فى التفاصيل ، ولا سيما أن الحالة واضحة لكل ذى عينين .

انما ما أقامه البشر فى وسع البشر أن ينقضوه . وما من شيء مستعص على الالغاء الا ذلك الشيء الذى صنعتها الطبيعة . والطبيعة فيما أعلم لا تصنع الأمراء والملوك والأغنياء ولا كبار الملاك والسادة ! .

فماذا يستطيع فى أيام محنته أن يصنع ذلك الفتى الذى لم تربوه الا للمجد والبذخ والسلطان ؟ ماذا يستطيع فى أيام فاقتة ذلك الذى ربيتوه بحيث لا يستطيع أن يعيش الا على الذهب ؟ ماذا يستطيع فى أيام عوزه ذلك المترف الأبله الذى لا يعرف كيف يخدم نفسه وكل قيمته فى أشياء غريبة عنه ؟ سعيد من استطاع أن يفارق الطبقة التى تفارقه ، ثم يبقى بعدها رجلا رغم أنف القدر ! .

فليمدح المادحون ما شاءوا ذلك الملك المهزوم الذى أبى الا أن يدفن قتिला تحت أبقاض عرشه . أما أنا فأحتقره . فانى أراه غير موجود الا بالاضافة الى عرشه . فما لم يكن ملكا فهو ليس شيئا . أما من فقد

عرشه واستطاع أن يعيش من دونه فهو أسمى من عرشه .
لأنه ارتفع فوق طبقة الملوك . فأیما جیان أو وغد أو
مجنون يمكن أن يشغل مكانة الملك كأي انسان آخر . أما طبقة الرجال
بمعنى الكلمة فقلما نجد رجلا يرقى اليها .

ان الرجل والمواطن أيا كان لا يملك ما يسهم به في المجتمع الا نفسه .
وجميع ممتلكاته الأخرى لا يعطيها للمجتمع الا مرغما . فالرجل الغنى اما
أن يكف عن التمتع بثروته أو يتمتع بها الجمهور منه ، وفي الحالة
الأولى يحرم الناس مما يحرم منه نفسه . وفي الحالة الثانية لا يعطى
الناس شيئا . وهكذا يبقى دينه للمجتمع كاملا ما دام لا يدفع للمجتمع
الا ما يملكه .

يبد أن أباه خدم المجتمع حين جمع تلك الثروة . وأنا أسلم بذلك .
فيكون أبوه وفي دينه . أما دين الأب فباق بغير وفاء .

انك أيها الغنى مدين للآخرين أكثر مما لو كنت ولدت بدون ميراث .
لأنك ولدت متمتعا بمحابة . وليس من العدل اطلاقا أن يفى انسان بدين
انسان آخر للمجتمع . اذ أن كل انسان مدين بنفسه كلها للمجتمع فلا
يمكن أن يؤدي للمجتمع دينا سوى دينه . ولهذا فليس من حق أى أب
أن ينقل الى ابنه حق عدم النفع لنظرائه في المجتمع . وهذا ما تفعله أنت
أيها الوارث الغنى وقد انتقل اليك ثراء أبيك ، هذا الثراء الذى كان
ثمرة عمله ، فبات في يديك وسيلة للبطالة .

ان من يأكل خبز البطالة الذى لم يكسبه بعمله يسرق ذلك الخبز .
والثرى الذى يتقاضى من المجتمع ما يعفيه من كل عمل لا يختلف في نظرى
اطلاقا عن قاطع الطريق الذى يعيش على حساب السابلة ! .

ان الرجل الذى يعيش خارج المجتمع منعزلا ليس مدينا بشيء لأحد .
ومن حقه أن يعيش كما يشاء . أما داخل المجتمع حيث يعيش بالضرورة

على حساب الآخرين ، فهو مدين لهم بالعمل ثمنا لمعاشه به ومنهم . وليس لهذه القاعدة أى استثناء .

فالعامل اذن واجب لا مناص منه للشخص الاجتماعى . وكل مواطن من أهل البطالة غنيا كان أو فقيرا ، وقويا كان أو ضعيفا ، فهو لص ! .
والعامل اليدوى هو أقرب جميع الأعمال البشرية الى حالة الطبيعة .
وخير طبقة من حيث الاستقلال عن عوادي الزمن هى طبقة الصناع .
فالصانع غير مرتبط الا بعمله . فهو حر ، فى حين نجد الزارع عبدا . لأن الزارع يتمسك بحقله ، ومحصول ذلك الحقل تحت رحمة غيره . فالعدو أو الأمير أو الجار القوى أو حجز قضائى يمكن أن يجرمه من ذلك الحقل . ويمكن النيل من الزارع عن طريق حقله بألاف الوسائل . أما الصانع فمتى آنس مضايقة ، فسرعان ما يعد حقايبه ويأخذ ذراعيه معه ويرحل .

ومع هذا فالزراعة هى المهنة الأولى للانسان . وهى أشرف المهن وأنفعها . وهى لهذا أسمى مهنة يمكن أن يمارسها البشر . ولئن لم أقل لأميل تعلم الزراعة . فما ذلك الا لأنه يعرفها . فقد خبر جميع الأشغال الزراعية . وبدأ بها تعلمه ، واليها يعود بين حين وحين .

انى أقول لأميل :

— ازرع ماشئت من ميراثك عن أبويك . ولكن ان أنت فقدت هذا الميراث ، أو لو لم يكن لك ميراث ، فماذا تراك صانعا ؟ تعلم مهنة يدوية تتكسب بها عند الحاجة .

وانى أسمع الاعتراض من أبويه . ومن والدته على الخصوص . ولكنى أريد له أن يكون أكثر من دمية تؤدى دور اللورد أو الماركيز أو الأمير ، ثم تتغير الأيام ، فاذا به أقل من لا شئ . انى أريد له أن يكون أهلا

لمكانة لا تعلوها مكانة ، ولا يسلبه اياها أحد . أريد له أن يكون أهلا
لمكانة الرجولة . وانها لمكانة يقل نظراؤه فيها كثيرا عن نظرائه في المكانة
الرسمية التي تريد أمه أن تعدده لها .

وليس الغرض من تعلم المهنة التكسب بها حتما ، بل الغرض بالأكثر
القضاء على المزاعم الخاطئة التي تفشت بين الناس بصدد العمل اليدوى .
انى أريد لاميل أن يتعلم مهنة شريفة نافعة ، لا مهنة ترف . لا أريد له
أن يكون مطرزا أو مذهبا أو موسيقيا أو ممثلا أو مؤلفا . بل
أفضل أن يكون اسكافا على أن يكون شاعرا .

وربما قيل ان الجلاد والجاسوس ورامى السهام صناع . ولكنى
أقول ان هذه مهن مرتبطة بالحكومة . وأنا أريد له أن يكون مستقلا .
وأن يكون عمله من الأعمال غير المكروهة أو المزدرة . ولهذا أفضل له مهنة
كالنجارة أو الحدادة .

وله هو أن يختار ، فليس ذلك من حقى . وسيهتدى بما قرأه في
كتاب روبنسون كروزو ، الى اختيار مهنة مما احتاج أن يتعلمه . وسيسهل
عليه الاختيار لأن تربيته الأولى ساعدته على تمرين عضلاته وحواسه
فسوف لا يلزمه سوى وقت قصير لاتقان تفاصيل المهنة . ولذا أتمنى أن
يختار اميل مهنة النجار . فهي مهنة نظيفة نافعة ، يستطيع أن يمارسها
في البيت ، ومنشطة للجسم وتحتاج لمهارة ودقة وشئ من الذوق .

وعندما يتعلم اميل مهنته هذه سأتعلمها معه فلا أحسبه يجب أن
يعمل شيئا وحده . وفى هذه الإثناء نريد أن نعامل على أننا صبيان من
صبيان النجار حقا ، لا على سبيل الهزل .

ولم لا ؟ أليس القيصر بطرس الأكبر كان يعمل بيديه فى منشر الخشب
بالأجر كأى عامل ، ويقرع الطبل فى فرق جيشه كأى جندى ؟ .

ولكننا للأسف لا نستطيع أن نقضى كل وقتنا فى ورشة النجار . وأفضل طريقة أن نذهب مرة أو مرتين فى الأسبوع على الأقل لتمضية النهار بطوله عند المعلم ، نستيقظ مبكرين فى ساعة العمل ونعمل تحت إشرافه ونأكل على مائدته . ثم نعود فى آخر النهار . فنتعلم بهذه الوسيلة أكثر من مهنة واحدة . لأننا فى الوقت عينه سنذهب فى أيام أخرى من الأسبوع عند الحداد أو الاسكاف ، فتتدرب أيدينا على مهن متعددة .



تكوين الحكم

ها هو فتانا أوشك أن يفارق الطفولة تماما . وقد شعر أكثر من ذى قبل بالضرورة التي تربطه بالأشياء . وبعد أن بدأ بتدريب جسمه وحواسه ، قمنا برياضة فكره وتمييزه . وأخيرا ألفنا بين عمل أعضائه وعمل ملكاته فجعلنا منه كائنا عاملا مفكرا ، ولم يعد أمامنا كى تتم تكوين الرجل الا أن نجعله كائنا محبا معقولا ، أى أن نعمل على تكوين عقله بعواطفه .

ولكن قبل أن ندخل فى هذه المرحلة الجديدة ، يجب أن نلقى نظرة على المرحلة التي تفارقها لندرك الى أى مدى كان وصولنا .

إن تلميذنا لم تكن لديه فى البداية الا احساسات . أما الآن فلهذه معان وأفكار . كان من قبل يحس فحسب ، أما الآن فيميز ويحكم . لأنه من المقارنة بين احساسات متعاقبة أو متأنية ، ومن الحكم الذى نحكم به عليها تتولد احساسات معقدة يمكن أن نسميها فكرة أو معنى .

والطريقة التي تتكون بها المعانى هي خاصة الذهن البشرى . فالذهن الذى لا يكون المعانى الا على أساس علاقات واقعية ذهن صلد ، والذهن الذى تكفيه العلاقات الظاهرية ذهن سطحي . والذهن الذى يرى العلاقات كما هي ذهن دقيق . والذهن الذى يسىء تقديرها ذهن مختل . والذهن الذى يختلق علاقات لا وجود لها فى الحقيقة ولا فى الظاهر ذهن مخبول . والذهن الذى لا يقارن اطلاقا بين الأشياء ذهن معتوه .

والمعانى البسيطة ليست سوى احساسات قورن بينها . وهناك أحكام

فى الاحساسات البسيطة وفى الاحساسات المعقدة التى أسميها معانى بسيطة .

والحكم الذى يتضمنه الاحساس البسيط حكم سلبى محض . مجرد اثبات أن الشخص يحس ما يحسه . أما الحكم المتضمن فى التصور أو المعنى فحكم ايجابى لأنه يقرب ويقارن ويحدد العلاقات التى لا تحددها الحواس . وهذا كل الفرق بين الاحساس والمعنى . ولكنه فرق جسيم . اذ المقارنة بين الحواس هى التى تصحح أخطاء بعضها أحيانا . لأن الخطأ لا يكون فى الاحساس بل فى حكمنا المتضمن فيه . والمقارنة تصحح ذلك الحكم . كما فى حالة العصا التى تظنها وهى مغموسة فى الماء مكسورة . اذن يجب أن أدرب اميل على تصحيح أحكام حواسه بالمقارنة بينها . وبهذه الطريقة يتعلم الحكم العقلى والتمييز الذهنى وتكون لديه المعانى . وسيكون ذلك التدريب بواسطة تجارب مبسطة بحيث يفتن من تلقاء نفسه الى خطأ الحكم الظاهرى ويستخدم التمييز العقلى .

ومن قبيل تجربة العصا التى تبدو مكسورة فى الماء ، ما يترأى لراكب سفينة متحركة من أن الأرض هى التى تتحرك ، أما هو فثابت فى مكانه . وما يبدو للسارى فى الليل من أن القمر يجرى بسرعة حين يمر بيننا وبينه سحاب سريع .

وعلى هذه الوتيرة أعلمه التفكير العلمى وتكون لديه ملكة الحكم التى تقوده فى طريق تحصيل المعارف العلمية بنفسه .



اميل فى الخامسة عشرة

سوف لا أعلمه بنفسى . فكل مهمتى أن أضع قدمه على طريق المعرفة السوى . ومتى تبين أن عليه تحصيل ما يريد من العلم ، فسوف يستخدم عقله لا عقل سواه من الناس فى ذلك السبيل . وسأعلمه أن من الخطأ الاعتماد على السماع من الناس أو تلقين المعلمين .

فمعظم أخطائنا تأتينا من هذين الطريقين . ولا شك أن عقله سيستفيد من ذلك التمرين فائدة عظيمة ، كما تستفيد العضلات بممارسة الرياضة . وبهذه الطريقة لن يحمل ذهنه من المعلومات الا ما يقدر على حمله فعلا . لأنه لن يتعلم الا ما يكتسبه ويكتشفه بتجربته . فلا يعنى فى ذاكرته الا ما هو واثق سلفا من صوابه . وهكذا يستطيع الاعتماد على ما فى ذاكرته من غير تحفظ .

قد تكون معلومات اميل العلمية بهذه الطريقة محدودة . ولكنها على قاتها جيدة كلها وصائبة . انه قد يجهل الكثير . ولكن ما من شىء مما يجهله سيعجز عن معرفته يوما بهذا التكوين العقلى . فذهنه متفتح ذكى مستعد لمعرفة كل شىء . فهو على حد تعبير مونتاني ان لم يكن متعلما فهو قابل للتعلم . وحسبى منه أنه يعرف كيف يكتشف المراد من كل ما يفعله ، والسبب فى كل ما يعتقد .

ومرة أخرى ليس هدفى اطلاقا أن أمنحه العلم ، بل أن أعلمه كيف يكتسبه عند الحاجة ، وكيف يقدره حق قدره ، وأن يحب الحقيقة ويغلبها فوق كافة الأشياء .

آجل . ان التقدم بهذا المنهج بطيء . ولكن ما من خطوة نخطوها به
يمكن أن تكون عقيمة ، أو نضطر بعدها للتراجع .

ان كل معلومات اميل طبيعية وجسمية . فهو لا يعرف من التاريخ
اسمه ، ولا يعرف ما بعد الطبيعة والأخلاق . يعرف الصلات الجوهرية
بين الانسان والأشياء . ولا يعرف شيئاً عن الصلات الاخلاقية بين انسان
وانسان . يعرف كيف يعمم المعانى بعض الشئ ويجردها . ويرى
الخواص المشتركة بين عدة أجسام ولكنه لا يفكر فى هذه الخواص من
حيث هى مجردة عن الأجسام .

انه يعرف الامتداد المجرد عن طريق الأشكال الهندسية . ويعرف
الكمية المجردة عن طريق الرموز الجبرية . ولكنه لا يحاول اطلاقاً معرفة
الأشياء فى ذاتها ، بل من حيث علاقاتها التى تعنيه فحسب . فهو لا يكثر
للعرف ، بل للمنفعة . ولا يقيم وزناً لرأى الناس فى الأشياء .

ان اميل مجد فى عمله مرن صبور حازم شجاع . ومخيلته لم تشتعل ،
فهى لا تجسم له المخاطر . وقابليته للمرض ضئيلة ، ويعرف كيف يتألم
بثبات لأنه تعلم ألا يعاند القدر .

وأما من جهة الموت فهو لا يعرف ما هو . بيد أنه تعود الخضوع بلا
مقاومة لقانون الضرورة . فمتى وجب أن يموت سيموت من غير تأوه .
وهذا كل ما تسمح به الطبيعة فى تلك اللحظة البغيضة لدى الجميع .
فان تعيش حراً غير متعلق بالأمور الدنيوية ، ذلك خير وسيلة تتعلم بها
كيف تموت .

وقصارى القول ، أن اميل لديه من الفضيلة كل ما يتصل بشخصه . أما
الفضائل الاجتماعية فينبغى لكى يحصل عليها أن يعرف الصلات

الاجتماعية التى تقتضيها تلك الفضائل . وهى معلومات أصبح ذهنه متأهبا لتلقيها . فهو اذ نراه فى الخامسة عشرة يعتبر نفسه غير ذى أفضلية على سواه ويرى طبيعيا ألا يفكر فيه الناس .

انه لا يطالب أحدا بشيء . ولا يرى نفسه مدينا بشيء لأحد . فهو بمفرده فى المجتمع الانسانى ولا يعتمد الا على نفسه . وله فى ذلك الحق كل الحق ، لأنه أكمل ما يمكن أن يكون انسان فى سنه .

ليست له أخطاء . أو على الأصح ليست له الا الأخطاء التى لا مناص منها . وليست له رذائل . أو على الأصح ليست له الا الرذائل التى لا يستطيع أى انسان أن يتوقاها .

ان جسمه سليم وأطرافه قوية وذهنه دقيق خال من المزاعم . وقلبه حر خال من الأهواء . وحب البقاء والكرامة فيه طبيعى بازغ . وقد عاش لا يقلق أحدا ، راضيا مطمئنا حرا بقدر ما سمحت له الطبيعة بذلك .

فهل ترون أن طفلا بهذه الصورة بلغ الخامسة عشرة ، قد أضاع سنوات عمره السالفة هباء ؟ .



الكتاب الرابع

المراهقة ولنعم سليم الدين

- التعاطف والرحمة
- دراسة التاريخ
- فائدة الأساطير
- التربية الدينية
- اعترافات كاهن ساقوا
- التربية العاطفية
- الذوق

اللطائف والرحمة

لم يعد اميل طفلا . والمراهقة تبدأ بنذر من التغيرات في المزاج وفي الشكل وفي سحنة الوجه . فهذا هو الأوان الذي توشك أن تظهر فيه الأهواء . ولا بأس بالأهواء في حد ذاتها . فهي الوسائل الرئيسية لحفظ الذات وحفظ النوع ، وهذان هما قوام غريزة الحياة لدينا .

وتختلف سن البلوغ على حسب الأجواء والأمزجة . ولطريقة التربية المتبعة مع الأطفال ضلع كبير في تأخير البلوغ أو التعجيل به .

وبهذه المناسبة ينبغي أن نتساءل :

— هل من الواجب تنوير الأطفال منذ وقت مبكر بخصوص الأمور التي جرت العادة على اخفائها عنهم ؟ .

من المستحسن أن تؤخر ما استطعنا فضولهم في هذا الخصوص . وإذا وجهوا إلينا أسئلة فمن المستحسن أن نلزمهم الصمت خيرا من أن نكذب عليهم . أما إذا قررنا تنوير الأطفال في هذه المسائل ، فليكن كلامنا معهم فيها مصطبعا بطابع الجد . ولا ينبغي إطلاقا أن نتخذ سذاجتهم فيها وجهلهم بها موضوعا للمزاح . فإن المزاح في هذه الأمور يمهّد للتهتك والاباحية فيما بعد .

* * *

ومن الخير أن تنمو الأهواء والانفعالات نموا بطيئا بحيث يعد بعضها للبعض الآخر ، وتنتظم فيما بينها بمجرد تولدها . فإن الشاب إذا ظل طاهرا ، يتفتح قلبه أولا للانفعالات الطيبة كالصدقة .

ان ضعف الانسان هو الذى يجعله اجتماعيا . وعناصر الشقاء المشتركة بيننا هى التى تدفع قلوبنا الى الانسانية . فما كنا لنحس أننا مدينون للانسانية بشئ لو لم نكن بشرا .

أما كل ارتباط فهو دليل على نقص أو حاجة . ولو أن كل واحد منا لم تكن به أدنى حاجة الى الآخرين ، لما فكر اطلاقا الى الارتباط بأحد .

وكذلك ، من عجزنا نفسه تتولد سعادتنا اليسيرة . والشخص السعيد حقا هو الشخص المنعزل تماما . فالله وحده هو الذى له السعادة المطلقة . ولكن من منا لديه فكرة عن هذه السعادة ؟ .

لو أن كائنا ناقصا استطاع أن يكفى نفسه بنفسه . فبماذا يتمتع ؟ انه سيكون دائما وحده فى شقاء . وأنا لا أتصور أن من لا يحتاج الى شئ يمكن أن يحب شيئا . ولا أتصور أن من لا يحب شيئا يمكن أن يكون سعيدا ! .

ويترب على هذا أن ارتباطنا بنظرائنا يكون أقل اذا شعرنا أنهم سعداء . فارتباطنا بهم من حيث آلامهم أشد من ارتباطنا بهم من حيث شقائهم . لأننا نرى فى آلامهم صورة طبيعتنا .

ولئن كانت الحاجات المشتركة توحد بيننا برباط المنفعة ، فان الشقاء المشترك يوحد بيننا برباط المودة . ان منظر الرجل السعيد لا يلهم الناس الحب قدر ما يثير فيهم الحسد . فهم أقرب الى اتهامه باغتصاب حق ليس له اذ يسعد سعادة يستأثر بها لنفسه . ونعانى من جرح الكرامة اذ نشعر أن هذا الرجل لا حاجة به الينا اطلاقا .

ولكن من ذا الذى لا يعطف على شقى يراه متألما ؟ من ذا الذى لا يود أن يخلصه من آلامه ، لو أن ذلك الخلاص كان لا يقتضى منا الا التمنى ؟ .

ان المخيلة تضعنا فى موضع الشقى أكثر مما تضعنا فى موضع الرجل السعيد . فنشعر أن حال الشقاء تؤثر فينا أكثر مما تحركنا حال السعادة . والرحمة شعور رقيق ، لأننا اذ نضع أنفسنا فى موضع من يتألم نشعر مع ذلك باللذة لأننا لا نتألم كما يتألم . أما الحسد فطعمه مر ، لأن منظر الرجل السعيد لا يتيح للحاسد أن يرى نفسه فى مكانه ، بل يثير فيه الأسى لأنه ليس فى مكانه فعلا .

فكأنما يعطينا الشقى من الآلام التى يعانىها . أما السعيد فكأنما قد انتزع منا الخير الذى ينعم به .

أفهل تريد أن تثير فى قلب الشاب وتغذى أولى بوادر الحساسية ، وتحول طباعه نحو فعل الخير والطيبة ؟ اذن لا تبذر فى نفسه بذور الكبرياء أو الغرور أو الحسد ، ولا تعرض على أنظاره منذ البداية صورة السعادة والرفاهية . كما تنبدى فى أبهة القصور وبذخ البلاط . ولا تصحبه الى المنتديات الراقية والمجتمعات الزاهرة ، ولا أطلعه على مظاهر الطبقة العليا الا بعد أن تمكنه من تقدير وزنها فى حد ذاتها . فانك ان أريته المجتمع الراقى قبل أن يعرف البشر من حيث هم ، لا تكون قد كوتته ، بل هدمته . ولا تكون قد علمته بل غررت به ! .

ان الناس من حيث طبيعتهم ليسوا ملوكا ولا عظماء ولا رجال بلاط ولا ثروة . فكافة الناس يولدون عرايا فقراء . معرضين للأوجاع ومنغصات الحياة والهموم والأمراض والحاجات وسائر صنوف الآلام . فقصارى القول أنهم جميعا محكوم عليهم فى النهاية بالاعدام . هذه هى حقيقة الانسان أيا كان . وما من بشر يستثنى من هذه القاعدة المطلقة . فابدأ اذن بدراسة الطبيعة البشرية التى لا تنفصل أبدا عن البشر ، لأنها جوهرهم الباقى .

فى سن السادسة عشرة يعرف المراهق ما هو معنى الألم . لأنه يكون

قد تألم شخصيا . ولكنه لا يكاد يعرف أن الآخرين يتألمون أيضا .
ربما يكون قد شاهد أحدا يتألم . ولكن المشاهدة غير الاحساس .
فالطفل كما قلت مائة مرة لا يتصور اطلاقا ما يحسه الآخرون .
ولا يعرف آلاما غير آلامه . ولكن متى بدأ نمو الحواس يذكرى فيه نار
المخيلة ، يبدأ بالاحساس بما يعاينه نظراؤه ، ويتأثر لشكواهم ويتألم
لآلامهم . وعندئذ يجب أن تصل الى قلبه صورة البشرية انكسيفة
وتحمل اليه أول احساس بالعطف والحنان .

وبذلك تتولد لديه الشفقة التى هى أول شعور رابط يمس قلب
الانسان . ولكى يغدو الطفل ذا حساسية ورحمة يجب أن يعلم أن
له نظراء يعانون مثل ما عاناه ، ويحسون الآلام التى أحس بها ، وآلاما
أخرى أيضا يجب أن تكون لديه عنها فكرة ، لأنها ربما نزلت به يوما .
والواقع أنه لا يمكن أن تتأثر بالشفقة والرحمة ما لم نخرج من
أنفسنا وتقمص الكائن الذى يتألم ، متجربين من أشخاصنا .

فنحن لا نتألم الا بمقدار ما نحكم بأنه يقاسيه . ذلك أننا لا نتألم
فى أنفسنا ولأنفسنا ، بل نتألم فى أنفسنا له هو . ولهذا ما من شخص
يمكن أن يغدو ذا حساسية الا عندما تتقد مخيلته وتبدأ فى اخراجه من
ذاتيه .

ولاذكاء هذه الحساسية وتغذيتها وتوجيهها أو متابعتها فى نموها
الفطرى واتجاهها الطبيعى ، ما علينا الا أن تقدم للشباب موضوعات
يمكن أن يمارس فيها قوة التفتح التى فى قلبه . فتمرس حساسيته على
الاتساع لتشمل أشخاصا آخرين . وبهذا تثار لديه الطيبة الانسانية
والشفقة والاحسان والرحمة والحنان وسائر العواطف الرقيقة التى
تسر الناس بطبيعتهم ، وتمنع بزوغ الحسد والغيرة والحقد وسائر

العواطف القاسية المنفرة ، التي لا تلغى رهافة الحس فحسب ، بل تجعلها في صورة سلبية غليظة .

ويمكن ايجاز هذه الخواطر في قواعد ثلاث بسيطة :

القاعدة الأولى

لا يميل القلب البشرى الى أن يضع نفسه في موضع من هم أسعد حالا منه ، بل في موضع من هم أولى بالاشفاق .

القاعدة الثانية

نحن لانشفق على الآخرين اطلاقا الا بسبب الآلام التي لانعتقد أننا محصنون ضدها معصومون منها .

القاعدة الثالثة

الرحمة والرفقة بالآلام الغير لا تقاس بكمية الآلام في ذاتها ، بل بمقدار ما تقتضيه في المتألم من احساس نعيه اياه من ذواتنا .

ولا ينبغي أن نخشى من سوء تأثير مناظر الشقاء على احساس اميل بالسعادة . وأولى من اميل بالاشفاق من ينغمسون في المجتمعات اللامعة ويعبون من ملذاتها . فانهم يقاسون ألف مرة من رغباتهم التي لا تتحقق، وكراماتهم المجرحة ، ومن الغيرة والحسد .

أما اميل فيتمتع بسعادة هادئة أكيدة . والرحمة التي يشعر بها نحو المعذنين رقيقة لطيفة . وتزيد من ارتباطه بالناس ، فيقدر منافع الصداقة والمعروف .

وهكذا تنمى فيه معرفة الحياة حساسية انسانية مرهفة تحول دون نمو العواطف الشريرة والأهواء . وتمنحه أول فكرة صحيحة عقليا عن العدل والطيبة .

دراسة النتائج

من الطبيعي أن يميل اميل حين يرى المجتمع الكبير الى احتلال المكان الأول فيه . ولذلك يتجه نحو الطموح . ما لم يفهم أين يجب أن يقف . ولذا يجب الآن أن نبين له الفروق التى بين الناس ونبسط أمام ناظره صورة النظام الاجتماعى .

ان حالة الطبيعة توجد فيها تلك المساواة الحقيقية التى لاشدوذ عنها ولا خروج عليها . لأن تلك الحالة الفطرية لا يمكن أن تسمح بفروق بين رجل ورجل تجعل من أحدهما تابعا للآخر .

أما فى الحالة المدنية فالمساواة القانونية فى الحقوق خيالية وهمية فارغة . ذلك أن وسائل صيانة تلك المساواة تؤدى بذاتها للقضاء على المساواة . والقوة العامة التى تسند الى أقوى الأفراد تستخدم فى سحق الضعيف مما يخل بالتوازن الذى أقامته الطبيعة بين الأقوى والأضعف .

ومن هذه المفارقة الأولى تنجم جميع المفارقات الأخرى التى نلاحظها فى النظام المدنى بين الظاهر والحقيقة . وستظل الغالبية دائما ضحية للأقلية ، وسيظل الصالح العام ضحية للصالح الخاص . أما ألفاظ العدالة والتنظيم فهى أدوات للاغتصاب وأسلحة للظلم .

ويترب على هذا أن المكانات الرفيعة التى تزعم نفسها نافعة للناس، ليست نافعة فى الواقع الا لنفسها على حساب الناس . فلا يحق لتلك المكانات الرفيعة فى الواقع أى اعتبار أساسه العدل والعقل .

ويبقى علينا بعد ذلك أن ننظر هل المكانات التى انتحلوها لأنفسهم ادعى لسعادة أشخاصهم ، كى نحكم على المصير الذى يختاره كل منا

مكاته الاجتماعية . فيختار اميل عن بيئة ، وهو عالم ، قيمة المكانة التي يختارها بالنسبة للناس وبالنسبة لسعادته .

وهذه هي الدراسة التي سنقوم بها الآن . ولكن يجب لكى نبدأ بها أن نعرف أولا القلب البشرى .

ومن أراد أن يعرف الناس يجب أن يراهم في أعمالهم لا في أقوالهم . فنحن اذ نلسمعهم نجاهم يخفون أفعالهم . ولا تبدو تلك الأفعال للعيان مجردة الا في ضوء التاريخ . فهناك يكون الحكم على الوقائع . وأقوالهم نفسها توزن على ضوء أفعالهم . بمقارنتها بها ، فيتضح لنا كيف كانوا فعلا ، وكيف كانوا يريدون أن يبدووا لنا . وهكذا تنهك الحجب في التاريخ وتتضاعف الفضيحة للمرائين .

ولسوء الحظ أن لدراسة التاريخ أخطارها وعيوبها من أكثر من وجه . فمن الصعب أن يضع الانسان نفسه في موقف يمكن منه أن يحكم على نظرائه بالعدل . فمن أكبر عيوب التاريخ أنه يصور الناس من جوانبهم المظلمة أكثر مما يصورهم من جوانبهم المشرقة .

ان التاريخ لا يهتم الا بانثورات والكوارث . وطالما ينعم الشعب بالرخاء والهدوء في ظل حكومة مسالمة ، لا يقول التاريخ عنه شيئا . أما اذا بدأ هذا الشعب يشعر بعدم كفايته بذاته وشرع يتدخل في شئون جيرانه ، أو يسمح لجيرانه بالتدخل في شئونه ، فعندئذ يهتم به التاريخ مع أن هذه المرحلة تكون بداية الاضمحلال .

ويجب ألا ننسى ، أن الوقائع التي يذكرها التاريخ ليست صورة مطابقة تماما للوقائع التي حدثت فعلا . لأنها تتخذ صورة جديدة في دماغ المؤرخ . على حسب وجهة نظره أو مصالحه . فمن ذا الذي يعرف كيف يضع القارئ في نفسه مسرح الحوادث كما وقعت ؟

ان الجهل أو التحيز يشوهان كل شيء . وتحت لو لم تتغير أى لحظة

تاريخية واقعية ، فان الاسهاب فى بعضها والايجاز فى بعضها ، يعطيان الظروف صورة مخالفة ، وبالتالي يلقيان على الحوادث ظلا مخالفا .

ضع أى موضوع فى وجهات نظر مختلفة ، فلا يكاد يبدو أنه موضوع واحد . مع أنه هو بعينه ، والذي اختلف هو عين الناظر اليه . فهل يكفى أن تسرد لى حادثة حقيقية وأن تجعلنى أراها على غير ما وقعت ؟ .

ثم ما قيمة حوادث التاريخ ذاتها ما دامت أسبابها تظل خافية على ؟ وما هو الذى يمكن أن أستخلصه من حادثة أجهل سببها الحقيقى ؟ ان المؤرخ يقدم لى سببا . ولكنه سبب من وجهة نظره . وحتى النقد الذى يطنطنون به ليس الا ضربا من التخمين . لأنه محاولة لاختيار أقرب اكذوبة الى الحقيقة من حيث الشبه .

أن أسوأ المؤرخين بالنسبة لشاب حديث السن هم أولئك الذين يعلقون على الحوادث ويصدرون أحكاما . الوقائع الوقائع ! ودع الشاب يحكم بنفسه عليها . فبذلك وحده معرفة الناس . أما اذا ظل المؤلف يرشده ويقوده باستمرار ، فلن يرى الناس الا بعين غيره ، ومتى تخلت عنه تلك العين لم يستطع أن يرى شيئا .

ان التاريخ على العموم ناقص معيب . لأنه لا يسجل الا الوقائع المحسوسة البارزة . التى يمكن اثباتها بالأسماء والأماكن والتواريخ . أما الأسباب الكامنة لتلك الوقائع فتظل مجهولة خافية . اننا قد نجد فى معركة رابحة أو خاسرة سبب قيام ثورة . وتكون هذه الثورة فى الحقيقة أمرا لا مناص من حدوثه حتى قبل تلك الموقعة . ان الحرب ليست الا مظهرا معبرا عن أحداث قررتها أسباب معنوية يندر أن يفطن اليها المؤرخون .

وزد على هذا أن التاريخ يبرز الحوادث أكثر مما يبرز الرجال .

لأنه لا يتعرض للرجال الا فى مواقف محددة من حياتهم ، وفى لحظات مختارة ، فلا يتعقبهم فى حياتهم الخاصة ويوتهم . فصورتهم التاريخية هى صورة كسوة التشرىفة . لا صورة الشخص الذى هو انسان لا ثوب .

انى أفضل قراءة الحياة الخاصة ، لأبدأ بها دراسة القلب البشرى . لأن الرجل يتجرد من التصنع فى بيته ، والمؤرخ يتعقبه هناك ، ولا يدع له لحظة من الراحة .

وفى مثل هذا الضوء تتكشف حقيقة الرجل . لأنه يبدو مجردا من ثياب التمثيل وكلفة التصنع ، وخير مؤرخ للرجال على هذا المنوال هو بلوتارك بلا جدال .

وانه لصحيح أن روح الجماعة تختلف عن طبيعة الرجل الفرد . وأن من أراد أن يعرف القلب البشرى يجب ألا يقصر فى معرفة الجماهير . ولكن لا جدال أيضا أننا يجب أن نبدأ بدراسة الشخص الفرد كى نتدرج الى دراسة الناس عموما . فمن عرف تمام المعرفة ميول كل فرد استطاع أن يتنبأ بمجموع الميول المتداخلة فى كتلة الشعب .

وبلوتارك ممتاز فى ذكره لتلك التفاصيل الدقيقة من حياة العظماء الخاصة . فله موهبة لا تبارى فى تصور كبار الرجال بتوافه الأمور . وهو موفق غاية التوفيق فى اختيار تلك اللوحات . فكثيرا ما تكفى كلمة أو ابتسامة أو اشارة لرسم شخصية البطل . وأذكر لذلك مثال الاسكندر الأكبر وهو يتجرع الدواء الذى أعده له صديقه وطيبه فيليب بغير تردد بعد أن قرأ تقريراً بأن هذا الطيبب الصديق مكلف من عدوه كسرى أن يدس له السم فى الدواء . فهذه الحركة الصامتة من الاسكندر هى قمة الجمال فى حياته كلها .

وهكذا يكون فن التصوير الراقى . فالروح لا تبدو فى الملامح
الكبيرة والطبع لا يظهر فى جلائل الأعمال ، بل فى توافه الأمور التى
تكشف عنها الفطرة بلا حذر .

ومثل هذه القراءة تترك أثرها الحاسم فى ذهن شاب حديث السن
لم يتعود القراءة ولكنه تعود الاحساس والتفكير الشخصى . فيتأثر
تأثرا عميقا بقراءة سير بلوتارك ويعرف عظماء العالم عن طريق نفوسهم
وطواياهم لا فى ضوء المعارك الصاخبة والأبهة الكاذبة . وينتهى به الأمر
الى ادراك الحقيقة الكبرى وراء حياة جميع العظماء .

ما نهاية جميع هؤلاء الفاتحين ؟ انه لن يقدرهم الا بحسب طوايا
نفوسهم وصورهم الخلقية . وسيدرك مقدار شقائهم وعذابهم وهم فى
أوج السلطان . وسيتعلم أن متاعب الانسان تتضخم وتنمو مع نمو
ثروته ومكانته ومسئوليته .

وسيتعلم اميل أيضا احتقار المطامع والشهوات .



قاعدة الأساطير

يحسن اميل الحكم على الناس لأنه يحسن مراقبتهم . وهو يشفق على من كانوا منهم عبيد أخطائهم وأهوائهم . ولكن يجب الحذر من أن يركبه الغرور لشعوره بتفوقه الخلقى عليهم .

وأعظم وقاية من الغرور اختبار الدنيا . وهى مناسبة طيبة لتعريض التلميذ طواعية وباختياره لجميع أنواع المغامرات التى تثبت له ضعفه . فمن الخير أن يشارك المربي تلميذه فى جميع الأخطار التى يعرضها له . ولا يليق بالمعلم أن يتعلق بالوقار المزيف وهو يتصنع الحكمة والرزانة . بل يجب أن يشارك اميل فى أخطائه كى يصححها له ويقومها .

ومتى وقع اميل فى الأخطاء فهذا ايدان ببداية عصر الأسطورة فى تربيته . فان التنديد بالمدنّب تحت ستار شخصية أسطورية يتيح للمعلم تهذيب التلميذ من غير أن يهينه . وسيدرك عندئذ أن الأسطورة ليست أكذوبة، بل هى حقيقة قابلة للتطبيق .

ان الطفل الذى لم تفسد تربيته بالتدليل والتملق الكاذب لا يمكن أن يفهم الأسطورة على وجهها الأخلاقى، بل سيعجب بالشخصية الشريرة فى الأسطورة . أما المجنى عليه فى الأسطورة أو الضحية أو الضعيف المظلوم فسيراه فى نظره أبله يستحق ما نزل به على يد ظالمه الأثيم ، الذى يراه هو لبيبا أريبا .

ان الأسطورة تعين التلميذ على استخلاص قاعدة اخلاقية من حداثتها

الفردية ، وتساعد تلك الحادثة المنظومة على رسوخ القاعدة في ذاكرته .
وما من فكرة اخلاقية يستحيل اكتسابها عن طريق تجربة الآخرين أو
تجربتنا الخاصة . فحينما تكون التجربة الخاصة المطلوبة لتكوين تلك
الفكرة المعينة غاية في الخطورة ، فلا بد من استخلاصها من تجربة الآخرين ،
اما عن طريق التاريخ أو عن طريق الأسطورة .

ولا يفوتني أن أندد هنا بالقواعد الأخلاقية التي تختتم بها معظم
الأساطير المنظومة . فالحاسة الأخلاقية تتربى عند التلميذ بأن يستخلص
هو العبرة بنفسه من الحادثة التي أوردتها الأسطورة . أما أراد العبرة
بألفاظها في ختام الأسطورة فبلاهة ، كأنما العبرة ليست متضمنة بما
فيه الكفاية في صلب الأسطورة نفسها .

ان سر التربية كله في أن ندع للتلميذ لذة تعليم نفسه عن طريق
الموضوعات والوقائع . فهذا هو ما يربى لديه ملكة التفكير والتمييز
والقياس والضمير .

وانها لأثانية من المعلم أن يستأثر بلذة التعليم كلها ولا يتركه لتلميذه
غبطة الاكتشاف التي ترضيه عن نفسه وتشعره بالنمو والنجاح . وسوف
لا أكتفى بالنظريات الأخلاقية . بل سأجعل اميل يمارس الفضائل
الاجتماعية بنفسه عمليا . فيعطى من ماله الصدقات . ويساعد في رفع
الغبين عن المظلومين . وهكذا يتكون لديه ضمير أخلاقي عملي يسع
الناس كافة بغير فرق في الجنس أو الوطن أو الدين .



التربية الدينية

وعلى ما بلغه اميل من نمو ملكاته ، لم تتكون لديه حتى الآن أى فكرة عن الخالق (عز وجل) . وأرجو ألا يصيح الناس مستكرين أو غير مصدقين . فمن الصعب على ادراك بشرى مشغول باستمرار بموضوعات حسية أن يرتفع بصورة طبيعية الى التصورات المجردة من قبيل الروح والطبيعة الالهية .

وانى أتخيل مبلغ دهشة كثير من القراء أن أصحب تلميذى مدة حديثه كلها من غير أن أحدثه عن الدين . فالى أن بلغ الخامسة عشرة كان لايعلم أن له روحا . وربما لم يكن الوقت مناسبا لكى يعلم أن له روحا وهو فى الثامنة عشرة ! .

انه اذا ما علم ذلك قبل الوقت المناسب كان هناك احتمال بل مجازفة ألا يعرف ذلك الأمر على وجهه الصحيح اطلاقا . وانى لا أرى أشد حماقة وغباء من معلم الدين الكاثوليكي وهو يلقي الأطفال الصغار تلك الأسرار العويصة . فانى ان رميت الى خيال طفل ، لكفانى أن أطلب منه تفسير ما يتلوه من دروس ذلك الدين وطقوسه .

فلنحذر كل الحذر من اعلان الحقيقة لأولئك الذين لم يتأهبوا بعد لادراكها (١) . فان ذلك أدعى لقيام الضلال مقام ما نرمى اليه من الحق . وخير ألف مرة ألا تكون لدى الفتى فكرة اطلاقا عن الالهيات ، من أن تتكون لديه عنها أفكار مسفة خرافية مهينة لا تليق بجلالها . فذلك أهون

(١) شبيه هذا برأى الامام الغزالي فى المضمون به على غير أهله
(المترجم)

الضررين . ان الجهل بالمقام الأسمى اطلاقا وبصفة مؤقتة أفضل من التنقص منه .

ان اميل لن تتكون لديه صورة خاطئة مزيفة عن الأمور الالهية . لأنه تعود عدم الاهتمام الا بما هو في متناول حواسه وادراكه ومع هذا ليس في نية معلمه أن يتركه في هذا الموضوع نهبا للتأثيرات . فلن يفرض عليه عقيدة دينية معينة . بل سيعده للقدرة على اختيار العقيدة المثلى التى يهديه اليها عقله عن اقتناع وتميز .



والآن أستأذن القراء بمناسبة الخوض فى التربية الدينية أن أسرد قصة فى هذا الموضوع قد تفيدنا أكثر مما تفيد النظريات المجردة التى لا تقوم على خبرة عملية وتجربة مباشرة .

منذ نحو ثلاثين سنة ، وجد شاب نازح عن وطنه فى احدى مدن ايطاليا أنه قد عدم القوت والمعين . وكان بروتستانتيا بمولده . فاضطر كى يجد القوت أن يغير دينه . فتلقفه الكاثوليك . وكان لهم فى تلك المدينة ملجأ خاص للمهتدين الى الكشكة متخلين عن دياناتهم الأصلية . فأدخلوه ذلك الملجأ . وأخذوا يلقنونه مبادئ الدين الجديد ويفندون دينه القديم . فزعزعوا ايمانه من أساسه وأذكوا لديه شكوكا لم تجل بخاطره من قبل . وعرفوه عن الشر ما لم يكن يعرف . وشاهد هناك من الرذائل التى تستباح ما أوشك أن يعدو فريسة له . ففكر فى الهرب . وعندئذ حبسوه . فأخذ يشكو . فعاقبوه على شكواه . ووجد نفسه تحت رحمة هؤلاء الطغاة يسام ما يسامه المجرمون من العذاب ، لأنه أبى الخضوع للأجرام .

ولا شك أن من يعرفون كيف تكون قسوة أول تجربة للعنف والظلم والبغى ، وكيف يكون وقعها أليما على قلب بكر ، سيقدرسون سوء حاله .

قدموع الغيظ كانت تنهمر من عينيه ، والاستنكار يكاد يخنقه ، وهو يستصرخ السماء والأرض ، ولكنه لم يجد من أحد سميعا ولا مجيبا . فلم يكن يدخل عليه الا خدم أسافل ، خضعوا لما أبى هو أن يخضع له ، أو أفراد من العصابة متواطئون شركاء فى هذا الاثم الفاجر . فكانوا يسخرون من تمنعه ويستحثونه على الانصياع .

كان مقضيا عليه لولا أن قيضت العناية له كاهنا شريفا كان يحضر الى الملجأ لبعض الأمور العارضة فتمكن الفتى من الافضاء اليه خلسة بما كان من أمره . وكان ذلك الكاهن فقيرا محتاجا ، بيد أن الفتى المظلوم كان أشد منه حاجة فلم يتردد فى مساعدته على الهرب ، مجازفا بعداء خصم عنيد هو المهيمن على تلك البؤرة التى تسمى ملجأ . وهكذا أفلت الفتى من الاثم ليتردى فى الاملاق . فكافح الفاقة . وخيل اليه فى وقت من الأوقات أنه انتصر عليها . واذا به عند أول بارقة من بوارق اليسر قد نسى متاعبه ، بل ونسى منقذه أيضا . فعاقبته الأقدار على هذا الجحود ، وباءت آماله جميعا بالفشل . واذا به يلغى نفسه بغير قوت وبغير مأوى ، يكاد يهلكه الجوع ، وعندئذ تذكر منقذه فعاد اليه . واستقبله الرجل خير استقبال . اذ كان طيب القلب كريم النفس . وبحث الكاهن للفتى عن مأوى ، وأوصى به خيرا ، وقاسمه مآلديه من نشب على قاته . وأخذ يعلمه ويسرى عنه ويربى فيه فضيلة الصبر على المكاره .

وكان هذا الكاهن الشريف قسيسا فقيرا فى مقاطعة سافوا . ثم تورط فى مغامرة من مغامرات الشباب ، فسخط عليه أسقفه . فغبر الألب الى ايطاليا ينشد ما يعيش منه بعد أن عز عليه القوت فى وطنه . ولم يكن عابلا من الذكاء أو الثقافة أو الوسامة فوجد من يوصى به خيرا لدى أحد الوزراء فاتخذة مؤدبا لولده . بيد أنه كان يفضل الفاقة على حياة الأتباع .

وكان يجهل مراسم السلوك في بيوت الكبراء فسرعان ما غادر تلك الدار من غير أن يفقد تقدير صاحبها وعكف على العبادة وكل مرجوه أن يسترد عطف أسقفه فيمنحه رعاية كنيسة صغيرة في الجبال يقضى فيها بقية أيام حياته .

وشعر الكاهن بميل فطرى نحو ذلك الشاب الشريد . فأخذ يرقبه عن كئيب ، فتبين أن قسوة الأيام قد صدعت قلبه ، وأن الزراية والمذلة قد قوضتا شجاعته ، حتى انقلبت الكرامة عنده الى مرارة ، وبات يسيء الظن بالناس فلا يرى في قسوتهم الا الفجور والاثم الفطرى . أما الفضيلة فبات يراها حديث خرافة .

لقد رأى بعينه القناع يتمزق عن ذلك الدين المزعوم . فاذا به وقد اتخذ ستارا للأهواء والرياء . وعلمته تجربته في ذلك الملجأ الدينى ، أن الجنة والنار رهن بالفاظ تتلى . وأن قدسية الأمور الالهية قد ابتذلت على يد هؤلاء الناس . وكأنما الايمان بالله على ذلك المتوال ثمنه التخلي عن العقل الذى وهبنا سبحانه اياه .

وتجاهل الدين يؤدى الى تجاهل الواجبات الانسانية . ولكن ذلك الخراب الروحى لم يكن قد وصل عند هذا الفتى المستهتر الا الى منتصف الطريق . فلم يكن لحسن حظه خيس المولد . والظروف السيئة وحدها هى التى كادت تقضى عليه قضاء مبرما . ولم يكن عاطلا من التربية أو المعرفة اطلاقا . وكان فى السن الناضرة التى تقاوم المفسد ولم تستسلم بعد لطغيان الحواس . وما خبره من فساد الناس ، ذلك الفساد القبيح الذى لا فتنة فيه ولا سحر ، لم يوقد فيه جذوة الفسق والشر ، بل أصابه بغثيان بغض اليه الفجور . وظل هذا التقرز يقوم مقام الفضيلة فى حماية طهارته وتقائه . فلم يسقط فى مهاوى الرذيلة الا بعد أن تعرضت له الفتنة فى أسلوب رقيق جميل .

أدرك الكاهن كل هذا . ولكنه لم يدخر وسعا على ما يعلمه من صعوبة تقويم ما أفسدته الأيام من هذا الغلام . وآلى على نفسه أن يرد الفضيلة والعفة الى ذلك المسكين . ولا شك أن النية المعقودة على الخير توطئء لصاحبها آكفاف النجاح .

وبدأ باكتساب ثقة الشاب ، بأنه امتنع عن تأنيبه أو وعظه ، بل تعتمد أن ينزل بمستواه ليشعره أنه ند له ورفيق . فان جاءه ليروى له شيئا فعله أو جال بفكره مهما كان مفزعا رهيبا ، أصغى اليه في صبر واهتمام . ومن غير أن يقره على ما اقترف من شر أو يلومه عليه ، كان يكتفى بدور المنصت وكان هذا حسب الفتى من سرور لشعوره بأنه ليس وحيدا في الدنيا . وأغراه ذلك بزيادة الافضاء والمصارحة . فاذا به يعترف دائما لذلك الكاهن من غير رسميات الاعتراف ، ومن غير أن يدري أنه يعترف .

وبذلك تمكن الكاهن من دراسة عواطف هذا الفتى وطبعه . ومعرفة مواطن الداء فيه . وتبين أن الفتى ليس جاهلا وانما العار الذي تكالب عليه في فقره هو الذي خنق لديه كل تمييز بين الخير والشر . ولا عجب ! فان صوت الضمير لا يمكن أن يصل الى من لا يفكر الا في طلب القوت .

وكى ينقذه من هذه الوهدة بدأ بتنبية الكرامة لديه ليسترد اعتداده بنفسه . وصور له مستقبلا زاهرا ينتظره ان هو أحسن استخدام مواهبه . ودفعه الى الاعجاب بالخير عن طريق حمله على سرد ما يفعله الآخرون من الأفضال . وكى ينتشله من البطالة والتشرد أوهمه أنه بحاجة الى نسخ مقتبسات من الكتب المختارة . فأخذ الفتى يقوم بذلك العمل مدفوعا بالوفاء ولكن الرجل كان يعلمه بواسطة تلك الكتب ، وبأسلوب غير مباشر . وجعله يحس في الوقت نفسه أنه ذو قيمة ، من حيث أنه يصلح لشيء .

ولست أدري لماذا أتحدث عن ذلك الفتى بضمير الغائب . فما كان ذلك الفتى أحدا سوى . واني اعتبر أن بعد المدة وفارق السلوك قد جعلنا منى شخصا آخر ، بحيث أجد الجرأة على ذلك الاعتراف ، وعلى اسداء الشكر والاجلال لصاحب تلك اليد الطولى فى هدايتى ^(١).

وأهم ما أدهشنى هو ما شاهدته فى الحياة الخاصة لأستاذى الجليل من عفة بغير رياء ومن انسانية بغير ضعف ، ومن استقامة وبساطة فى التعبير ، ومطابقة بين القول والعمل . ولم أره مطلقا يهتم هل من يساعدهم بالصدقات يواظبون على حضور الصلاة فى الكنيسة ومزاولة الاعتراف والصوم أم لا . مع أن ذلك كله كان شرطا يهلك بدونه المحتاجون جوعا قبل أن ينالوا من صدقات أدعياء التقوى شيئا .

ولما رأيت منه ذلك صارحته به ، وخصوصا أنى كنت أسمعه أحيانا يثنى على بعض معتقدات الملل الأخرى . حتى أوشكت أحسبه بروتستانتيا متخفيا . لو لم أره بعينى حريصا على أداء فروض دينه الكاثوليكي سرا وعلنا . فزاد ذلك من حيرتى . وأصبحت متشوقا لمعرفة المبدأ الحقيقى الذى تقوم عليه حياة ذلك الرجل الصالح الذى ازدادت له كل يوم احتراما واجلالا بما ألسه من صادق عفته واخلاص سريره ومطابقة ظاهره لباطنه .

ولم تسمح الأيام بذلك سريعا ، لأن الرجل كان حريصا قبل ذلك على بذر بذور الطيبة والعقل فى روحى . وكان أصعب مأتعين عليه هدمه فى نفسى هو ذلك الحقد الشديد على كل ميسور الحال ، كأنما هو سرق منى ما يتمتع به من نعماء . فأخذ بيدي حتى رأيت شقاء ذوى النعمة تحت مظهرهم الخادع ، حتى حرك قلبى بالرحمة لهم . وكان يقول لى :

(١) هذا الكاهن هو السيد جيم Goime ، كما ورد فى اعترافات روسو فى الكتابين الثانى والثالث .

(المترجم)

— ان راحة النفس قوامها اختصار كل ما يمكن أن يعكر صفوها .
فأكثر الناس تعلقا بالحياة هم أقلهم من متاعها نصيبا . ومن يطمع الى
السعادة هو أشد الناس شقاء .

فأجبت في مرارة صادقة :

— يالها من صورة قاتمة ! ولماذا ولدنا اذن اذا كان حتما علينا
أن نتخلى عن كل شيء في الدنيا ؟ واذا وجب علينا أن نزرى السعادة
نفسها فمن اذن يستطيع أن يكون سعيدا ؟ .
— أنا !

فدهشت ، بل ذهلت وصحت :

— أنت سعيد ؟ ! على فقرك وسوء حظك ومنفاك وما وقع عليك
من ظلم واضطهاد ؟ فكيف اذن وفقت الى هذا ؟ .

— يا بنى العزيز . سأحدثك بكل ذلك يوما ما . سأفرغ لك نفسى
وأفتح لك قلبى حتى ترانى على حقيقتى . ان لم يكن كما أنا فى انواقع ،
فعلى الأقل كما أرى نفسى . ومتى تلقيت اعترافى وعرفت حقيقة روحى
ستدرك لماذا أعتبر نفسى سعيدا . وعندئذ ستعرف ماذا ينبغى أن تفعل
حتى تغدو سعيدا مثلى . ولكن حديثى يستغرق وقتا طويلا فلنتخير له
مكانا وزمانا يصلحان لذلك ، حيث نجد الهدوء والعزلة .

وأظهرت اللهفة على سماع اعترافه ، فحدد لى موعدا صباح اليوم
التالى . وكان الوقت صيفا . فاستيقظنا عند انبثاق النهار . وأخذنى الى
خارج المدينة . فوق ربوة عالية ينساب من تحتها نهر البو . وعلى الأفق
الشرقى كانت أشعة الصباح الأولى تغمر ذلك المنظر الرائع من الماء
والخضرة والسهل والجبل بما يفيض على النفس الأمن والسلام .

وبعد أن فرغنا لتأمل ذلك الجمال البديع برهة من الزمن ، أخذ
رجل السلام يحدثنى عن تاريخه الروحى .

اعترافات كاهن ساوثا

لا تنتظر منى يا بنى خطبا منمقة وأحاديث متعمقة ، ولا حججا على طريقة الفلاسفة . فما أنا بفيلسوف من أولئك الفلاسفة الكبار . ولا يعنينى فى كثير أو قليل أن أكون من هؤلاء . بيد أن لى فى بعض الأحيان بداهة سديدة ، وتجدرنى على الدوام متعلقا بالحق . ولست أريد أن أدخل معك فى جدل . بل ليس فى عزمى أن أحاول اقناعك . وحسبى أن أبسط لك ما أعتقد على قلب سليم . وأحب أن ترجع الى قلبك وأنا أحدثك بحديثى هذا . وهذا كل ما أطلبه اليك . وان أخطأت فبحسن نية . وهذا حسبى كى لا تحتسب غلطتى اجراما . وان اخطأت أنت خطأ من هذا القبيل . فما عليك من ذلك بأس .

ولدت فقيرا من أسرة فلاحين . وكان مفروضا بحكم ظروفى أن أفرغ لفلاحة الأرض . بيد أنهم استصوبوا أن أتأهب لاحتراف مهنة الكاهن . واستطاعوا أن يتدبروا الوسائل لتعليمى . وبطبيعة الحال لم يخطر ببالى ولا بال ذوى ، أن تتجرى الحق والخير والمصلحة فى ذلك . بل كان همى موجها لدرس ما طلب منى . ثم خضعت لارادتهم فانخرطت فى سلك الكهنة . الا أنى لم ألبث أن تبينت أننى حين تعهدت ألا أكون رجلا ، تعهدت بما لا طاقة لى أن أفى به .

وقالوا لنا ان الشعور تصنعه الأهواء . ولكنى عرفت بتجربتى الخاصة أنه يصر على متابعة الطبيعة ساخرا ومعرضا عن أحكام البشر وقوانينهم .

ومهما حرموا علينا هذا الشيء أو ذاك ، فإن الندم لا يثقل علينا
فيما أباحت لنا الطبيعة السوية ، ومن باب أولى فيما فرضته علينا .

وكنت منذ حدثتني أحترم الزواج باعتباره أول وأقدس نظام من
نظم الطبيعة . فلما نزعوا منى حقى البشرى فى الزواج ، قررت ألا أدنسه .
وكان هذا القرار سبب مالحقنى من أذى . لأننى اذا احترمت فراش
سواى من الرجال ، صارت أخطائى مكشوفة فى العراء .

ووجب اخماد الفضيحة وتطهير الرجس . فألقى القبض على وصدر
قرار بطردى من الكهنوت . فتعلمت من التجربة أنه ينبغى فى كثير من
الأحيان تجسيم الخطأ كى تنجو من العقاب . وأوشك هذا أن يقلب فى
نفسى مقاييس العدل والشرف وجميع واجبات الانسان . وكاد يختلط
على أمر التفكير والاعتقاد . حتى وصلت الى مثل حالتك الآن .

كنت فى موقف الارتياح والشك الذى يحتمه ديكارت للبحث عن
الحقيقة . وهى حالة لا يكتب لها الدوام لأن الاستقرار عليها مزعج
شاق . ولولا استمرار الاثم أو خمول الروح لما أطلقنا البقاء فيها
لحظة . ولم يكن بلغ بى الفساد مبلغ الراحة الى ذلك الموقف .

وأخذت أمعن الفكر فى مصير البشر وقدرهم المحزن ، ورحت أمخر
عباب ذلك البحر المتلاطم من الآراء ، بغير ربان يوجهنى ، أو بوصلة ،
ولا مرشد لى الا ربان لا خبرة لديه ، فلا عجب أن يضل طريقه فلا يعرف
من أين أتى ولا أين يذهب . فقلت لنفسى :

— انى أحب الحق ، وأنشده ، ولا أستطيع الاهتداء اليه . فان
أرشدنى اليه أحد تعلقت به .

ومع أنى جربت آلاما بالغة الشدة ، لم أشعر بالضيق والضنك الا
فى أوقات القلق والاضطراب تلك ، حيث تتقاذبنى الشكوك بلا
انقطاع . ولم أظفر من سبحاتى الطويلة الا بالرب والغموض والتناقض
فى كل ما يتعلق بسبب وجودى وأساس واجباتى .

وانى لأعجب كيف يمكن أن يكون الانسان شكوكيا عن عمد
وبقلب سليم ؟ هذا أمر يستعصى على فهمى . والفلاسفة الشكوكيون
فعلا ان وجدوا هم أشقى بنى آدم . فالشك فى الأمور التى تعيننا
معرفتها حالة شديدة العنف بالفكر البشرى . فلا يستطيع أن يقاومها
طويلا . فيقرر راغما اختيار أحد الجانبين أيا كان ، فأهون عنده أن
يؤمن بشيء خطأ ، من ألا يؤمن اطلاقا .

ومما ضاعف ضيقى أتنى ولدت فى حضن كنيسة تجزم بكل شيء ،
ولا تسمح بأى شك . فلما رفضت نقطة واحدة تعين بذلك رفض سائر
الأمور . وانه لسخف أن يفرض اعتقاد كامل العناصر على فرد من الناس .
فان ذلك بمثابة الجيلولة بينهم وبين الايمان .

وتركت الكنيسة وتعاليمها وأخذت أستشير الفلاسفة . فنظرت فى
آرائهم المتباينة . فوجدتهم جميعا أصحاب خيلاء ، يجزمون بما يرونه
فى أسلوب تقريرى ، حتى حين يزعمون الارتياح . وقصاراهم فى عجزهم
عن اليقين أن يسخر بعضهم من بعض . وأكاد أعتقد أن هذه السجية
المشتركة بينهم جميعا هى عنصر الصواب الوحيد لديهم . فرأى كل
واحد منهم فى أقرانه صائب . ولكن الاصغاء اليهم ليس هو سبيلى
للخروج من ريتى وشكوكى .

وخطر لى أن قصور الفكر البشرى هو السبب الأول لهذا التباين
الهائل فى الآراء . وأن الخيلاء هى السبب الثانى . فنحن لا قدرة لنا
على ادراك أنفسنا ، فلا نعرف عللنا الأولى أو غاياتنا القصوى
ولا نعرف طبيعتنا ولا مبدأ فعلنا . بل لا نكاد نعرف هل الانسان
كائن بسيط أو مركب . ومن حولنا أسرار وغوامض تكتنفنا لا ندرى
لها كنها . لأنها فوق متناول الحس . ونزعم أن لنا من الذكاء ما يتيح
لنا النظر فيها . وحقيقة الأمر أن لدينا مخيلة نخالها ذكاء .

وكل منا يشق لنفسه في ذلك العالم المتخيل طريقا يعتقد أنه الطريق القويم . مع أنه ما من أحد منا يمكن أن يتحقق من عقبى ذلك الطريق . الا أن كلامنا يأبى الاقرار بعجزه ، بل يصر على الايغال لمعرفة كل شيء . ان أجهل ما نجهله هو ما الذى يعجزنا معرفته . لأننا نفضل الركون الى الصدفة ، وتصديق ما لا وجود له ، على الاقرار بعجزنا عن معرفة ما هو موجود فعلا .

اننا جزء ضئيل من كل ضخيم يفوتنا أو يعيننا ادراك حدوده ومع هذا يبلغ بنا الغرور الى التطاول الى الحكم عليه ، على ذلك الكل في ذاته ، ومدى علاقتنا به .

وأول ثمرة خرجت بها من هذا التفكير هي وجوب قصر أبحاثي على ما يهمنى ويعيننى مباشرة ، والحرص على الجهل العميق في سائر الأمور ، فلا أصل فيها الى الشك . وهكذا لا أخوض الا فيما تعيننى مسرفته .

وأدركت كذلك أن آراء الفلاسفة أعجز ما تكون عن تخليصى من شكوكى الفضولية ، بل من شأنها أن تضاعف لى عذاب تلك الشكوك ! فاتخذت لنفسى مرشدا آخر غير الفلاسفة ، وقلت لنفسى :

— فلنرجع الى النور الداخلى ، فهذا النور سيضللنى ضلالا أهون من ضلالهم ، لأن خطئى عندئذ سيكون من نفسى ، وضرره لهذا أسلم من الانسياق وراء أكاذيب وأخطاء غيرى .

ورجعت الى نفسى أستعرض الآراء التى خطرت لى منذ مولدى . فلم أجد منها رأيا يديهيا الى حد الاقتناع المباشر . بل كانت تتفاوت فى الرجحان وكان ارتياحى الباطنى اليها متفاوتا كذلك .

وسألت نفسى بعد ذلك :

— من أنا ؟ وأى حق لى فى الحكم على الأشياء ؟ وما هو الفيصل

بين تلك الأحكام ؟ يجب اذن أن أبحث في نفسى أولا عن معيار الحق حتى أعرف الى أى مدى يمكننى الركون اليه .

أنا موجود . ولى حواس أتأثر بها . هذه هى أول حقيقة تخطر لى وأجدنى مضطرا للخضوع لها . فهل لدى احساس خاص لوجودى أو لعلنى أحسه بواسطة حواسى ؟ .

هذا أول شك عجزت عن الاهتداء الى حله . لأننى واقع باستمرار تحت تأثير احساساتى الراهنة أو خلال التذكر . فكيف أعرف ان كان لى احساس بذاتى منفصلا عن تلك الاحساسات نفسها ؟ .

ان احساساتى تحدث فى داخلى . بما أنها تجعلنى أحس بوجودى . ولكن علة هذه الاحساسات غريبة عنى . ما دامت هذه الاحساسات تجرى مستقلة عن ارادتى وأهوائى . فلا أملك أن أحدثها ولا أملك أن ألغىها . فلا بد أن موضوع احساساتى خارج عنى وأنه غيرى .

اذن لست موجودا فحسب ، بل توجد أيضا كائنات أخرى سوى ؟ هى موضوعات احساساتى . وحتى ان فرضنا أن هذه الموضوعات ان هى الا معان ، بقى صحيحا أن هذه المعانى ليست أنا . وأنها شئ غيرى .

كل ما أحس به خارجى ويؤثر فى حواسى . سأدعوه مادة . وكل أجزاء المادة التى أتصورها متجمعة فى كائنات فردية متميزة ، سأدعوها أجساما . وهكذا لا أعانى من خلافاً التصوريين والماديين ، بأن هذه الخلافاً لا تعنى شيئا لدى . فتميزهم بين المظهر والحقيقة فى الأجسام انما هو أضغاث أحلام .

وهأنذا أصبحت موقنا بوجود الكون ووجودى . وبعد ذلك سأفكر فى موضوعات احساساتى . وأجدنى قادرا على المقارنة بينها . فأحس أنى حائز لقوة ايجابية لم أكن أعلم بحصولها عندى من قبل .

الحس فردى . أما المقارنة بين جملة احساسات فهذا يكون حكما .

فالحكم والاحساس ليسا شيئا واحدا . لأن الاحساسات تقدم لى موضوعاتها متميزة منفصلة كما هى فى الطبيعة . وبالمقارنة فيما بينها أقيس تلك الموضوعات بعضها الى بعض لأدرك أوجه الاختلاف والتشابه فيما بينهما . وعبثا أفتش عن هذه القوة العاقلة الحاكمة فى الموجود الحاس . فذلك الموجود الحاس سلبى ، ويحس كل موضوع على حده . أما المقارنة بين عدد من الموضوعات فلا سبيل له اليها . ولا سبيل له بالتالى الى الحكم عليها اطلاقا . فالحكم فرع عن ادراك العلاقة بين الموضوعات .

وهناك مسألة لا شك عندى أنك ستقرنى عليها متى فكرت فيها . وهى أننا لو كنا مخلوقات سلبية حاسة فحسب ، لما كان بين احساساتنا أى اتصال . ولكن مستحيلا أن نعرف أن الجسم الذى نلمسه والشكل الذى نراه شيء واحد . ولأصبح لكل موضوع خمسة احساسات متباينة أى خمسة موضوعات حسية ، لكل حاسة موضوعها المستقل ، ولما كان لدينا أى سبيل لادراك ذاتيتها الواحدة .

ويلتق من شاء أى اسم على تلك القوة الحاكمة المفكرة التى تقارن بين الاحساسات . فليدعها انتباها أو تفكيرا أو عقلا . فهى على كل حال قوة مستقلة حاصلة لى . وليست حاصلة للأشياء موضوعات الاحساس ، حتى ولو لم تنشط الا بمناسبة الاحساسات . فانى وان لم أكن مخيرا فيما أحس أولا أحس ، الا أنى حر تماما فى ممارسة فكرى ومدى نظرى فى احساساتى .

أنا اذن لست كائنا حاسا سلبيا فحسب ، بل كائن ايجابى عاقل . وشأت الفلسفة أو لم تشأ فمن حقى أن أزعم لنفسى شرف الفكر . ولكنى أعلم أن الحقيقة قائمة فى الأشياء وليست فى فكرى الذى يحكم على الأشياء . وكلما ابتعدت عن التدخل فى أحكامى التى أصدرها على الأشياء ، كان ذلك أدعى لاقترابى من الحقيقة .

أما وقد وثقت من أمر نفسى . فأنى أتطلع خارجى . فأجد رعدة
تنتابنى . لأننى أرى نفسى ضائعا فى هذا الكون المترامى ، كالغريق
بين الموجودات التى لا حصر لها . وأنا لا أعرف شيئا عنها ، ولا عن
علاقاتها فيما بينها ، ولا علاقاتها بى .

ان جميع ما أدركه بالحواس هو مادة . فأستنتج الخواص الجوهرية
للمادة من الصفات الحسية الملازمة لاحساسى بالمادة .

وأجد المادة فى بعض الأحيان متحركة ، وفى بعضها الآخر ساكنة .
فأستنتج أنه لا السكون ولا الحركة جوهرى فى المادة . ولكن الحركة
من حيث هى فعل نتيجة علة لا بد أن يكون السكون نتيجة لازمة من
غيابها . فما لم تؤثر علة محرّكة فى المادة لا تتحرك اطلاقا . ومن حيث
ان المادة يستوى عندها السكون والحركة . فحالتها الطبيعية الأصلية
أن تكون ساكنة .

وأدرك فى الأجسام نوعين من الحركة . هما الحركة المنقولة ،
والحركة التلقائية أو الارادية .

وفى الحالة الأولى تكون العلة المحركة غريبة على الجسم المتحرك .
وفى الحالة الأخرى تكون العلة المحركة فى الجسم المتحرك نفسه .

ولا يترتب على هذا طبعا أن حركة الساعة مثلا تلقائية . لأنه لو لم
تؤثر علة خارجية غريبة على زنبرك الساعة لما تحرك وحرك سائر
أجهزة الساعة .

وربما سألتنى هل حركات الحيوانات تلقائية ؟ وجوابى أنى لا أدرى .
ولكن من المرجح أنها تلقائية .

وقد تسألنى أيضا من أين عرفت أن هناك حركات تلقائية . والجواب
أنى عرفت ذلك لأننى أحسّه فى نفسى . فعندما أريد تحريك ذراعى أحركه
من غير أن يكون لتلك الحركة علة مباشرة غير ارادتى . وعبثا يحاول

المحاولون بالجدل اهدار هذا الاحساس عندى . فهو أقوى من كل حجة . وكأنى بمن يريد اقناعى ببطلان احساسى بحركتى الارادية ، يريد أن يقنعنى بالحجة أنى غير موجود .

ان هذا الكون المنظور مادة ؛ مادة مبثرة ميتة ، لا يربط بينه ما يربط بين أعضاء الجسم الحى . وهذا العالم متحرك . وفى حركاته المنتظمة المتجانسة يخضع لقوانين ثابتة ، ليست فيها تلك الحرية البادية فى حركات الانسان والحيوان التلقائية .

اذن فهذا العالم ليس حيوانا كبيرا متحركا بذاته . واذن فهناك علة لهذه الحركات غريبة عن هذا العالم . وان كنت لا أدرك بحسى هذه العلة . بيد أن الاقتناع الداخلى يجعل هذه العلة محسوسة جدا بحيث أنى لا أرى دوران الشمس من غير أن أتصور قوة تدفعها للدوران . وان كانت الأرض تدور فأنا أكاد أحس يدا تدفعها للدوران .

واذا وجب أن أعترف بقوانين كلية لا أدرك باحساسى علاقاتها الجوهرية بالمادة . فما جدوى ذلك ؟ ان هذه القوانين بما أنها غير محسوسة ، فلها أساس أجهله .

أجل ان التجربة والملاحظة عرفتنا قوانين الحركة . فهذه القوانين تحدد النتائج من غير أن تظهرنا على العلل . فهذه القوانين اذن غير كافية لتفسير نظام العالم ومسار الكون .

وعلى هذا تكون العلل الأولى للحركة ليست فى المادة ، فالمادة تتلقى الحركة وتنقلها وتوصلها . ولكنها لا تحدثها . وكلما لاحظت تبادل الأثر بين قوى الطبيعة زاد اقتناعى بوجوب الرجوع الى ارادة تكون هى العلة الأولى . لأن العلل لا يمكن أن تتداعى الى غير نهاية . ولا بد من الوصول بسلسلة الحركات المفروضة الى حركة تلقائية . فلا حركة بمعنى الكلمة بغير ارادة .

هذا هو أول مبدأ . فأنا اذن أومن أن هناك ارادة تحرك الكون والطبيعة . وهذا هو أول لبنة في بنيان عقيدتى .

* * *

كيف يمكن لارادة أن تنتج فعلا جسيما أو طبيعيا ؟ لأدرى . ولكنى أعهد فى نفسى أن ارادتى تنتج تلك الحركة الجسمية . فأنا حين أريد أن أفعل . وحين أريد أن أحرك جسمى يتحرك جسمى . أما أن جسما غير حى فى حالة سكون يشرع فى الحركة من ذاته ، فهذا ما لا أتصوره ولا أعهد له مثالا .

ان الارادة معروفة لى بأفعالها لا بطبيعتها . فأنا أعرف تلك الارادة من حيث هى علة محرركة . ولكن تصور مادة منتجة للحركة انه -ا هو بمشابة تصور نتيجة بغير علة . وذلك باطل قطعاً .

وليسست معرفتى بكيفية تأثير احساساتى فى نفسى أيسر من تصور كيفية تحريك ارادتى لجسمى . ان اضافة الحركة المجردة الى المادة قول ايس له معنى . وأما اضافة حركة محددة الى المادة فيقتضى القول بعلة لهذا التحديد . ومما لا شك فيه أن حركة العالم محددة . وأنا لا أستطيع أن أتصور الكون بغير تصور التناسق فى حركاته .

وأستطيع أن أفهم أن يكون تركيب الكون بعيدا عن طاقة الفكر البشرى . ولكن اذا أراد بشر أن يزج بنفسه فى تفسير الكون فيجب أن يقول قولاً يعقله البشر . ولئن كانت المادة المتحركة تنبىء عن ارادة ، فان المادة التى تخضع حركتها لقوانين خاصة تدلنى على وجود عقل مدبر وراء تلك الحركات .

وهذا هو ثانى مبدأ أدين به : ان هناك عقلامدبرا وراء تناسق حركات الكون . كما أن هناك ارادة تحرك الكون والطبيعة ، وتلك ثانى لبنة فى عقيدتى .

فان الفعل والمقارنة والاختيار بين الممكنات عمليات يختص بها
الكائن الفعال الايجابى المفكر . اذن فهذا الكائن موجود .
وربما سألتنى :

— وأين ترى هذا الكائن موجودا ؟

والجواب أنى لا أراه فى الأفلاك التى تدور فحسب ، ولا فى النجوم
التي تنير لنا فحسب ، ولا فى نفسى فحسب ، بل فى النعجة التى ترعى
العشب ، وفى الطائر الذى يحلق فى الجو ، وفى الحجر الذى يسقط من
شاهق ، وفى الورقة التى تحملها الريح الى بعيد .
انى أحكم بوجود نظام الكون مع جهلى بغاية ذلك النظام .
فحسبى للحكم بوجود ذلك النظام أن أقارن الأجزاء فيما بينها ، وأدرس
علاقاتها وألاحظ تناسقها .

انى أجهل لماذا وجد العالم . ولكنى لا أنفك أدرك كيفية وجوده ،
وكيفية تناسق وتعاون الموجودات التى يتألف منها العالم . ومثلنى فى
ذلك كمثل رجل يرى لأول مرة فى حياته ساعة مفتوحة ، فيأخذها الإعجاب
بصناعتها مع أنه لا يعرف الغرض من تلك الآلة ، ولم تقع عينه على
مينائها . فمن شأنه أن يقول :

— لست أدري الغرض الذى من أجله كان هذا الشئ فى مجموعه ،
ولكنى أرى أن كل قطعة متناسقة مع غيرها ، وأعجب بالصانع من خلال
تفاصيل عمله . لأنى موقن أن جميع هذه التروس لا تسير بهذه الدقة
والتناسق الا لغاية مشتركة يستحيل على ادراكها على وجه التحديد .

ولو جاء أحدهم وقال لى ان حروف المطبعة قد نثرت اعتباطا فخرجت
لنا ملحمة الالياذة (للشاعر فيرجيل) بتمامها وكمالها ، لما كلفت
نفسى خطوة واحدة للتحقق من أن هذا القول أكذوبة فاجرة . فالصدفة
لا تخلق النظام المحكم .

وربما قيل لى ان عدد الرميات الهائل يجعل هناك نسبة لتحقيق هذا النظام بالصدفة . ولكنى أعتقد أن أى عدد لا يمكن أن يبرر تلك الصدفة . وحتى مع افتراض ذلك فلن يخرج من اختلاط المواد الا ماهو من جنس تلك المواد المختلطة . أما النظام والحياة فلا يمكن أن يخرج من الاختلاط الاتفاقى للذرات الجامدة .

ان الفكر ليضل ويحار فى العلاقات غير المتناهية التى بين عناصر الكون ، وهى علاقات غاية فى الدقة والاحكام ، وما من علاقة منها يمكن اغفالها أو اهدارها فى ذلك الزحام . فمن البلاهة والسخف أن نعزو كل هذا التناسق الى آلية عمياء لمادة متحركة بالصدفة الخالصة .

فليس يسعنى اذن أن أعتقد أن المادة السلبية الميتة استطاعت أن تنتج كائنات حية حاسة . وأن قدرا أعمى استطاع أن يخلق موجودات ذات ذكاء . وأن ما لا يعقل ولا يفكر استطاع أن يوجد موجودات عاقلة مفكرة .

فأنا اذن أومن بأن العالم تحكمه ارادة قوية حكيمة . انى أرى ذلك . بل انى أحسه . وهذا أمر يعينى أن أعرفه . أما هل هذا العالم أزلى أم مخلوق ؟ وهل هناك مبدأ واحد لجميع الأشياء أو مبدأن أو أكثر ؟ هذا كله لا أعرف عنه شيئا . ولا يعينى أن أعرف عنه شيئا .

ان الثابت عندى على كل حال أن الكون فى مجموعه شىء واحد بدليل تناسق عناصره فى الفعل والحركة ، وهذا يدل على أن عقلا واحدا يدبر الكون كله . وهذا الكائن الذى يريد ويقدر ويفعل بذاته محرك الكون ومدبر النظام هو الذى أدعوه الله . وأضيف الى اسمه معانى التدبير والقدرة والارادة التى تجمعت عندى من ملاحظة الكون ، ومعنى الخير الذى هو لاحق ضرورى لتلك المعانى . بيد أنى لا أعرف كنه ذلك الموجود الأعظم الذى هذه صفاته . وان كنت أعلم يقينا أنه موجود،

وأنه موجود بذاته ، وأن وجودى فرع عن وجوده . وأن جميع الأشياء التى أعرفها ، وجودها كذلك فرع عن وجوده .

انى أعرف الله فى كل مكان من خلال مخلوقاته . أحس به فى نفسى وأراه فى كل ما حولى . أما كنهه وحقيقته وماهيته فخارج نطاق عقلى . انها مسائل تند عن ادراكى ولا يستطيع عقلى الكليل أن يجلو غوامضها . وبسبب هذا العجز آليت على نفسى ألا أفكر اطلاقا فى طبيعة الله ، الا فى حدود احساسى بما بينى وبينه من علاقات . ولكن أفكر فى ذلك الموضوع خاشعة على الدوام ، أستشعر لها الاضطراب والردة . فخلق بنا أن نعلم أن الله ليس كمثل شئ . وليس تقصيرا منا ألا نفكر فى ماهيته ، ولكن التقصير كل التقصير أن نفكر فى ماهيته بغير ما يحق لها من جلال .

* * *

أما وقد أيقنت بصفات الله التى أثبتت عندى وجوده تعالى ، فانى أعود الى نفسى ، وأبحث عن الطبقة التى أحتلها فى ترتيب الأشياء ونظام العالم . فأجد أنى بالتأكيد فى الطبقة الأولى بحكم جنسى . فلى ارادة ، ولدى وسائل لتنفيذ ارادتى ، وعندى القدرة فى التأثير على الأجسام المحيطة بى ولتجنب تأثيرها ، وليست لدى تلك الأجسام المحيطة بى قوة مماثلة لذكائى . فأين هو المخلوق غير البشرى فى هذا العالم الذى يملك أن يلاحظ ، ويقيس ويحسب ويتوقع الحركات المحيطة به . فأى سخافة فى الاعتقاد بأن كل هذا الذى حولى قد جعل لى ومن أجلى ، مادمت أنا الوحيد الذى أعرف كيف أستفيد من كل ذلك ؟ .

انه لصحيح اذن أن الانسان هو ملك الأرض التى يسكنها . فهو لا يروض الحيوانات كلها فحسب ولا يخضع العناصر لصناعته فحسب ، بل انه هو الكائن الوحيد الذى يستطيع ذلك . وسلطانه العقلى يصل الى النجوم نفسها ، مع أنه عاجز عن الوصول اليها بنفسه .

أروني حيوانا آخر على ظهر الأرض يستطيع أن يستخدم النار
ويعجب بالشمس ؟ انى وحدى الذى أعرف كيف أعجب بالجمال وأشعر
بالنظام والفضيلة وأسمو الى اليد التى تسوس الكون وأعشق الخير
وأسديه . فكيف يمكن أن أقارن نفسى بالسائمة والبهائم ؟ .

ان هذه فلسفة وضيفة لا تليق بالانسان . ويجب أن يقاومها
لا بعوائفه فقط بل وبقله أيضا . لأن الضمير الأخلاقى فى الانسان
يميزه من البهائم تميزا حاسما .

* * *

ولما تأملت طبيعة الانسان ، خيل الى انى وجدت فيه مبدئين مميزين ،
أحدهما يسمو به الى دراسة الحقائق الأبدية وحب العدل والجمال
المعنوى ، ويسمو به الى آفاق العالم العقلى الذى يجد الحكيم فى تأمله
غبطته ومسرته . اما الآخر فيحبسه فى درك ذاته ، ويذله لسلطان الحواس ،
وتوابعها من الأهواء والاتفعالات . فكأن هذا المبدأ يقاوم فيه كل
ما يوحيه اليه المبدأ الأول .

ولما وجدت نفسى نهبا لهاتين الحركتين المضايتين ، قلت لنفسى :

— كلا . ليس الانسان شيئا واحدا البتة . فانا أريد ولا أريد ،
أشعر انى عبد وحر فى آن واحد ، أرى الخير واجبه ولكنى أصنع
الشر . وأنا ايجابى فعال حينما أصغى للعقل ، ولكنى سلبى منفعل
حينما تجرفنى اهوائى . وأسوأ ما يعذبنى حينما أعثر واسقط هو
احساسى أنه كان فى وسعى أن أقاوم .

فان صح أيها الشاب أن الضمير من صنع الموروثات والمزايم ، فانا
على خطأ ولا شك . وليس هناك برهان على قيام الأخلاق . واما ان صح
أن تفضيل الانسان لذاته على كل شئ ميل طبيعى لدى الانسان ،
وكان مع هذا للعدل احساس فطرى فى القلب البشرى ، فدون قولى

بطبيعة واحدة أو جوهر واحد للانسان أن ترفع هذه الاعتراضات والمتناقضات ...

وكلما امعنت الفكر في ملكة التفكير وفي طبيعة الفكر الانساني ، خيل الى أن حجج الماديين أشبه بالصماء .. فالماديون صم فعلا ، اذ لا يسمعون الصوت الداخلى الذى يصرخ فيهم بصوت يصعب تجاهله : — ان الآلة لا تفكر . وما من حركة أو شكل ينتج التفكير . وفيك أيها الانسان شئ يجتهد أن يحطم القيود التى تكبلك . والامتداد ليس مقياسك . والكون كله لا يتسع لكل ما فيك من عواطف ورغبات وأشواق وقلق ، بل وكبرياء . فهذه لها مبدأ يخالف ذلك الجسم الضيق الذى تشعر أنك مشدود اليه .

ما من كائن مادى فعال بذاته ، اما أنا ففعال بذاتى . فليخالفنى في هذا من يشاء ، فانى لا أنفك أشعر به . واحساسى أقوى من أى حجة تناهضه .

ان لى جسما يؤثر فيه الآخرون ويؤثر فى الآخرين . وهذا التأثير المتبادل فوق مستوى الشك . ولكن ارادتى مستقلة عن حواسى ، ولدى شعور واضح حينما أفعل ما أردت أن أفعله ، وحينما لا أفعل سوى الانسياق لاهوائى . فلدى دائما القدرة على الارادة ، لا القدرة على التنفيذ . وحينما أسلم نفسى للغواية ، انصاع للموضوعات الخارجية . وعندما ألوم نفسى على ذلك الضعف ، لا أصغى الا لصوت ارادتى . فانا عبد برذائلى ، وحر بندمى . وشعورى بحريتى لا يمحى منى الا عندما أبتذل نفسى فأمنع صوت الروح من الارتفاع ضد قانون الجسد . انى لا أعرف الارادة الا عن طريق احساسى بارادتى . وليس الادراك أوضح معرفة عندى من الارادة . فاذا سألتنى سائل ما هى العلة التى تعين ارادتى ، سألته بدورى ما هى العلة التى تعين حكمى أو رأى . فمن

الواضح أن هاتين العلتين شيء واحد فحسب . فمتى أدرك المرء أن الانسان فعال في أحكامه . وأن ادراكه ليس الا القدرة على المقارنة والحكم ، تبين أن حريته ليست الا قدرة ماثلة لهذه القدرة أو ناجمة عنها . فالانسان يختار الخير مثلما يحكم بالحق . ومن يسئ الحكم يسئ الاختيار .

فما هي اذن العلة التي تعين ارادة الانسان ؟ انها حكمه . أى ملكة الحكم عنده . وما هي العلة التي تعين حكمه . انها ملكة الذكاء ، وقدرة الحكم . فالعلة المعينة له موجودة فيه . وفيما عدا ذلك لا ألقه شيئا . لا شك في أنني لست حرا في ألا أريد خيرا . ولست حرا في أن أريد شرا ، بيد أن حريتي ان هي الا عجزى عن ارادة شيء سوى ما يوافقنى أو ما أقدر أنه كذلك ، من غير أن يجبرنى على ذلك عنصر غريب عنى . فهل ينجم عن هذا أنني لست سيد نفسى لأنى لا أستطيع أن أكون غير ما أنا ؟ .

ان مبدأ كل فعل في ارادة الكائن الحر . فليست كلمة الحرية هي العاطلة من المعزى ، بل العاطلة من المعزى هي كلمة الضرورة . فافتراض فعل هو نتيجة غير صادرة عن مبدأ فعال انما هو في الحقيقة افتراض نتائج بغير علل ، وهذا يوقعنا في الدائرة المفرغة . فاما ألا تكون هناك حركة أولى ، واما أن كل حركة أولى ليست لها علة سابقة عليها . ولا يمكن أن تكون هناك ارادة حقيقية من غير حرية .

فالانسان اذن حر في أفعاله . فلا بد اذن أن فيه جوهر غير مادي . وأن في الانسان جوهر غير مادي ، فذلك هو المبدأ الثالث من مبادئ عقيدتى . ومن هذه المبادئ الثلاثة تستطيع في يسر أن تستخلص سائر المبادئ من غير أن أسترسل في سردها .

* * *

ان سوء استخدام ملكاتنا هو الذى يجعلنا أشقياء أشرارا . فأحزاننا وهمومنا وآلامنا تأتينا من عند أنفسنا .

ان الشر الخلقى والألم المعنوى من صنعنا بغير جدال . أما الألم الجسدى والشر البدنى فلا يمكن أن يقام لهما وزن لولا ردائنا التى تجعلنا نحس تلك الآلام .

أليست الطبيعة جعلت فينا الاحساس بحاجاتنا كى نحصى بقاءنا ؟ ان ألم الجسم ليس الا الايدان بأن الآلة مختلة وتحتاج الى فحص ورعاية . أما الموت ... فمن ذا الذى يشتهى أن يعيش أبدا ؟ ان الموت هو علاج الآلام التى نسبها لأنفسنا . فالطبيعة شاءت ألا تتعذب الى الأبد . وكم من انسان يعيش فى بساطة الحياة البدائية لا يعرف من الآلام الا القليل ! فهو يعيش من غير أمراض تقريبا ، كما أنه يعيش من غير أهواء تقريبا ، فلا يتوقع الموت ولا يشعر به . وحينما يشعر بالموت تكون متاعبه قد حبيت اليه الموت ، فلا يكون فى نظره شرا ولا ألما .

لو أننا اكتفينا بأن نكون كما نحن فعلا ، لما تملكنا الأسى على مصيرنا ، بيد أننا نجرى وراء سراب رفاهية موهومة فنصيب أنفسنا بآلام واقعة محتومة . ومن لا يعرف كيف يحتمل شيئا من العذاب يجب أن يتوقع لنفسه الكثير من العذاب . ومن أفسد تكوينه بحياة شاذة ، لا عجب أن يلتبس تقويمها بالعلاج والأدوية . فيضيف الى الألم الذى يحسه الألم الذى يخشاه . فتوقع الموت هو الذى يجعله بشعا . فكلما التمسنا الفرار من الموت زاد احساسنا به وطأة . ومتنا رعبا طوال حياتنا ، وركبتنا الآلام التى جلبناها على أنفسنا بتمردنا على الطبيعة .

لا تفتش أيها الانسان عن خالق الشر أو الألم . فهذا الخالق ان هو الا أنت ! .

ليس هنالك ألم سوى الذى تسببت فيه أو الذى تقاسيه . ومصدرهما

جميعا منك أنت . أما الشر الكلى الشامل فلا يمكن أن يوجد الا فى القوضى . وانى أرى فى الكون نظاما لا سبيل الى انكاره . أما الشر الجزئى فلا يوجد الا فى شعور الكائن الذى يقاسيه . وهذا الشعور لم يتلقه الانسان من الطبيعة . بل تلقاه من نفسه .

ان الألم ليس له سلطان على الشخص بالجسامة التى يتوهمها . فلو أننا ألغينا هذا التقدم المنكود ، وقضينا على أخطائنا وذنائبنا ، ومحونا ضعة الانسان ، لصار كل ما فى الوجود خيرا .

وحيث يكون كل شىء خيرا لا يكون هناك ظلم . فالعدل لا ينفصل عن الخير . والخير هو النتيجة الضرورية لقدرة لا حد لها ، ولحب الذات الذى لا يخلو منه أى كائن واع حاس بذاته .

وهكذا أصل خطوة فخطوة الى تمجيد كرم الله فى خلقه ويزداد ايمانى بوجوده القدسى . وفى الوقت نفسه أشعر بل يزداد شعورى بضالة تفكيرى البشرى بالقياس الى أمجاده القدسية .

* * *

ألق نظرك على جميع أمم الأرض ، وراجع جميع كتب التاريخ ، وستجد بين هذه الآداب المتباينة ، والسجايا المختلفة ، معانى واحدة للعدل والأمانة . ان مبادئ الأخلاق واحدة فى كل مكان . ومبادئ الخير والشر هى بعينها حيثما ذهبت .

ان فى قرارة النفوس مبدأ فطريا للعدل والفضيلة تقيس اليه افعالنا وافعال سوانا من الناس ، ونحكم عليها بالخير أو السوء . وهذا المبدأ هو الذى أسميه الضمير .

يقولون ان كل انسان يسهم فى الخير العام لمصلحته . ولكن لماذا نرى البار من الناس يسهم فى الخير العام ضد مصلحته الخاصة ؟ لماذا يمضى الى الموت ؟ ما مصلحته ؟ .

لاشك في أن كل شخص لا يعمل الا لخير . وما لم يكن هناك خير معنوى يحسب له حساب ، فلن يوجد تفسير البتة بالمصلحة الا لأفعال الأشرار وتلك فلسفة بغيضة جدا ، لانها تضيق عن الأفعال الفاضلة . ولا تتسع الا للدوافع الوضيعة التي لا فضيلة فيها . مثل تلك الفلسفة تشيل فيها كفة سقراط وأشباهه . ولو أفسحنا لهذا القليل من المذاهب صدورنا ، لارتفع صوت الطبيعة وصوت العقل ضدها باستمرار .

وليس مرادى الدخول هنا في مناقشات ميتافيزيقية تتجاوز طاقتي وطاقتك ولا تؤدي في النهاية الى شيء . وقد أسلفت لك القول أنى لا أريد التفلسف معك ، بل مساعدتك على مراجعة فؤادك . فان فرضنا أن جميع فلسفات الأرض أثبتت لديك أنى مخطيء ، وهداك احساسك الى أنى أصبت ، فذلك منك حسبي .

ينبغي أن نميز بين أفكارنا المكتسبة ومشاعرنا الطبيعية . لأننا نحس بالضرورة قبل أن نعرف . ولا نتعلم اطلاقا أن نريد خيرا ونفر من شرنا ، بل نحن نتلقى تلك الارادة من الطبيعة . وكذلك تتلقى منها حب الخير وكرهية السوء ، فذلك طبيعى فينا كحبنا لأنفسنا .

ان أفعال الضمير ليست أحكاما بل هى مشاعر . وفى حيز تأتينا جميع أفكارنا من الخارج ، توجد المشاعر التى تقوم بها تلك الأفكار فى داخلنا . وبواسطة هذه المشاعر وحدها نعرف التوافق أو التنافر الذى يوجد بيننا وبين الأشياء التى ينبغى أن تقبل عليها أو نفر منها .

ان الوجود بالنسبة لنا هو الشعور . فالحساسية لدينا سابقة ولا جدال على ذكائنا . والمشاعر حاصلة لدينا قبل حصول الأفكار والمعانى .

وكائنة ما كانت علة وجودنا ، فهذه العلة دبرت حفظ بقائنا عندما زودتنا بمشاعر موافقة لطبيعتنا . ولا يمكن لأحد أن ينكر على الأقل أن تلك المشاعر فطرية فينا .

وهذه المشاعر بالنسبة للفرد هي حب الذات ، والخوف من الألم ، والرعب من الموت والرغبة في السرور . ومن حيث ان الانسان — كما لا مناص من الاعتقاد ولا سبيل الى الشك في أنه — اجتماعي بطبعه ، أو على الأقل مجعول بحيث يغدو اجتماعيا ، فهو لا يمكن أن يكون اجتماعيا بدون مشاعر أخرى فطرية ، تتصل بجنسه . فلو نظرنا الى حاجاته البدنية فحسب ، لوجدنا أن الانسان أخرى بالتفريق منه بالتقارب . أما وهو يتقارب ، فلا بد أن ذلك بسبب ميل فطري فيه واستعداد خاص .

ومن علاقة الفرد المزدوجة بنفسه وبنظرائه تكون لديه نظام أخلاقي تولد منه سلطان الضمير .

ان معرفة الخير ليس معناها بالضرورة محبة الخير . ومعرفة الخير ليست فطرية في الانسان . ولكن بمجرد أن يعرف عقله الخير ، يجنح به ضميره الى محبة ذلك الخير . وهذا الشعور هو الفطري فيه .

ان مشاعري الطبيعية تميل الى المصلحة العامة . أما عقلي فيشير على بمصلحتي الخاصة . وهذا صراع كان من الممكن أن يستغرق مدة حياتي . فأعيش مذبذبا ، أصنع الشر وأنا أحب الخير . وأظل في تناقض مستمر مع نفسي .

كان هذا حريا أن يغدو حالي ، لو لم تشرق على نفسي وفؤادي أنوار جديدة فضت النزاع الداخلي وأقرت الوئام بيني وبين نفسي .

وكم قيل وأعيد القول عن الرغبة في اقامة الفضيلة على العقل وحده . وياله من أساس متين ! أى أساس هذا ؟ ان الفضيلة كما يقولون هي حب النظام . ولكن هل يستطيع هذا الحب أن يغلب النظام على مسرتي الخاصة ؟ فليقدموا لى سببا واضحا كافيا لتفضيل النظام على متعتي . ان هذا المبدأ المزعوم ليس في قرارته الا لعبا بالالفاظ . فالرديلة هي حب

النظام بوجه مختلف . وكل الفرق أن الخير ينتظم الجزء بالنسبة للكل .
أما الشر فينتظم الكل بالنسبة للجزء . فالشر نظام مقلوب الترتيب .
ولكنه نظام .

ان الشرير يجعل من نفسه مركز جميع الأشياء . أما الفاضل فيلزم
مكانه من محيط الدائرة لا يتعداه . وبذلك يحفظ نظامه أو ترتيبه
بالنسبة للمركز الكلى المشترك الذى هو سنة الله فى الخلق ، وبالنسبة
أيضا لجميع الكائنات الأخرى .

فما لم يكن هناك مركز مشترك هو الارادة الالهية ، لكان الشرير
وحده هو العاقل ، وكان الفاضل البار معنوها أو مخبولا .

* * *

لماذا جعلت روحى بحيث تكون خاضعة لحواس مشدودة الى
هذا الجسد الذى يذلها ويستبد بها ؟ .

لست أدرى لذلك سببا . وهل دخلت فى علم الله ؟ بيد أنى أستطيع
أن أرجح من غير تبجح أن نفس الانسان لو ظلت حرة نقية ، فأى
فضل له فى محبة مشيئة الله التى يراها سارية فى الكون ؟ .

أما والانسان مرتبط بجسم فان ارتباطا وثيقا غامضا ، فان المحافظة
على هذا الجسم تدفع النفس الى جباية كل شئ لهذا الجسم ، مما يجعل
له مصلحة مناهضة للنظام الكلى ، ذلك النظام الكلى الذى تستطيع
الروح أن تتبينه وتحبه فى الوقت نفسه . فحرية الروح تصبح مجال
الفضيلة اذ يبدى الانسان مدى حرصه وتفضيله لمطالب الروح على
مطالب الجسد . بتفضيل النظام العام الكلى على المصلحة الجزئية ،
وتغليب السعادة الصحيحة على الأهواء الأرضية والشهوات البدنية .

* * *

وكان الكاهن الطيب يتكلم بحماسة وانطلاق . وكانت الحماسة

تغمرنى وهو يتكلم ، وكأننى أستمع الى صوت مقدس . ومع هذا
خطرت بذهنى مجموعة من الاعتراضات . الا أن استرساله فى الكلام
جعل يبدها واحدا بعد واحد الى أن ساد نفسى الاقتناع التام .

وبعد برهة صمت استرسل الكاهن الشيخ يقول :

— لقد أطلعتك أيها الصديق الشاب على عقيدتى كما أودعها الله
فى قوادى وأنت أول شخص صرحت له بما فى نفسى . وربما كنت الأخير
أيضا . وأنت فى سن الحرج التى تتفتح فيها النفس لليقين ، ويتلقى فيها
القواد طابعه الباقى ، ويعزم المرء فيها على مسلكه اما خيرا واما شرا .
وقد فتحت لك قلبى بغير تحفظ وتركت لك الخيال بعد ذلك فليست الا
بشرا يجوز عليه الصواب والخطأ . وأطلعتك على شكوكى بغير زيف ،
وعلى ظنونى بغير تمويه ، وبسطت لك آرائى ودوافعى الى الايمان ،
والآن لك القول الأخير . ومن الخير أن تتأنى . وأن تفحص ضميرك بأمانة
واخلاص . ولا تعتق من آرائى الا ما نزل منك منزل الاقتناع . أما
الباقى فانبذه . فان وجدت فى نفسك ميلا الى وجهتى وجعلت عقيدتك
عين عقيدتى فانى ناصح لك ألا تعرض نفسك للغواية ، ولا تأكل
خبز الصدقة حتى لا تكون تحت رحمة سواك . بل عد الى وطنك ،
وارتد الى دين آبائك ، وأخلص له ولا تنحرف عنه . فلباب الأديان
جميعها واحد . ودين آبائك ، أحفل الأديان بالخلق الطاهر وأقربها الى
العقل . أما نفقات السفر فسأديرها لك . ولا تخجل من العودة الى
أهلك . فالضلال هو المخجل ، أما اصلاح الخطأ والرجوع عنه فليس مما
يحمر له الوجه . وأنت فى سن يعتفر لها الطيش . وان رجعت الى
ضميرك بصدق تبخرت أمامك جميع الحوائل . وستشعر أن من النزق
الخروج على دينك الذى ولدت فيه . والمهم يا ولدى أن تؤمن بالله
ولا تشك فى وجوده بتاتا . ولا تفتح قلبك لمن يشككون فى الله باسم

العقل أو الفلسفة . وكل دعواهم أن الحقيقة لا يمكن أن تضير الناس ،
ولهذا ينبغي أن يشغل الناس أنفسهم بطلبها غير متقيدين بعقيدة . وأنا
أعتقد مثلهم أن الحقيقة لا تضير الناس . ولكنى أجد ذلك حجة ناهضة
على أن تعاليمهم تجافى الحقيقة ، لأنها تضير الناس ! كن أيها الشاب
مخلصا صادقا بغير زهو .. وتعلم كيف تظل جاهلا بما لا سبيل فيه الى
العلم . فانك بذلك لا تخدع نفسك ولا تضل الناس . وإذا تحدثت
الى الناس فتقيد بوحى ضميرك ولا تكثر لتصفيتهم . وتجنب التطرف
فى التقوى فان ذلك يقود الى العصبية العمياء . وبشر دائما بالإنسانية
والتسامح . ولا تبال فى الحق لوم اللائمين . بل قل الحق وادع الى
الخير . فذلك هو الواجب الذى يجب أن يتحراه الإنسان على الأرض
وخالف هواك ومصلحتك الخاصة . فالمصلحة الخاصة خادعة
مضللة . أما حب العدل فلا يخذل ولا يخدع ولا يضل . وتلك
وصيتى لك أيها الشاب .



التربية العاطفية

ان أنوار العقل لا تستطيع أن تتعدى بنا حدود الدين الطبيعى . وهذا ما سأكتفى به مع تلميذى اميل . وان وجب أن يكون له دين آخر غير ذلك الدين ، فليس من حقى أن أكون مرشده ، بل له وحده أن يختار ذلك الدين بنفسه .

اتنا نعمل فى توافق مع الطبيعة . وبينما الطبيعة تكون الشخص ، المادى ، نحاول نحن أن نكون الشخص الأخلاقى . ولكن سرعة التكوين فى الحالتين غير متساوية . فالجسم يصل الى القوة والعنفوان فى الوقت الذى لم تزل فيه الروح ضعيفة خائرة . وهذا هو الاشكال . ومهما اجتهد الانسان فى مسعاه ، يظل المزاج سابقا للعقل . وكل محاولتنا السابقة كانت منصبة على ايقاظ العقل ، وتهذيب الحس ، ابقاء على وحدة التلميذ ونفى الصراع من داخله بقدر الامكان .

بيد أن الرغبات الجسدية الناشئة فى الشاب قوية جارفة . فان جابهنا تلك الرغبات بعنف ، واعتبرنا حاجاته الجديدة التى يحس بها فى داخله ضروبا من الجرائم ، فلن يصغى لنا ولن ينقاد لسياستنا . فعلى المربى دائما أن يضع نصب عينيه أنه وزير الطبيعة المدير لها الخاضع لمراسيمها المنفذ لها بحكمة . فليس له أن يناصب الطبيعة العدا .

فما هو الموقف الذى ينبغى على المؤدب أن يتخذه لنفسه ازاء
المواطن والشهوات ؟

ان أول ما يتبادر الى الذهن هو تزويد الشاب بأسرع ما يمكن . وهذا بغير شك أحكم تصرف وأقرب مايكون الى الفطرة . ومع ذلك

أشك في أنه أصلح ما يكون عمليا . وسأذكر أسباب هذا الرأي فيما بعد . وأكتفى بأن أقول الآن : ان الزواج يحتاج الى نضوج لا يتيسر في باكورة البلوغ .

ان هناك أوجها كثيرة للتعارض بين حقوق الطبيعة علينا وبين قوانيننا الاجتماعية . ومن واجبا أن نوفق بين هذين الطرفين .

انى بحسب طريقتى السالفة الذكر فى التربية أعتقد أن فى استطاعتنا تأخير نقطة الرغبات والابقاء على البراءة الى سن العشرين . وهذا ليس بدعة . فقبائل الجرمان يلحق فيها العار بالشاب الذى يفقد بكارته قبل سن العشرين . ويعزو المؤلفون الى هذه العفة قوة أبدان الجرمان وكثرة نسلهم .

وأظن أنه يمكن اطالة هذه الفترة كثيرا . فلدينا مثلا والد الفيلسوف مونتاني ، وكان رجلا معروفا بتوقد الذهن والمضاء وقوة البنية . وكان هذا الرجل يقسم أنه تزوج وهو بكر ، وكانت سنه ثلاثا وثلاثين سنة ، بعد أن خدم طويلا فى حروب ايطاليا . وظل محتفظا بقوته ومرحه الى ما بعد سن الستين .

فلا غرابة أو مبالغة فى الاعتقاد بأن اميل يمكن أن يظل حتى الآن بفضل رعايتى متمتعا ببراءته الأصلية . ولكنى أتوقع ألا تطول فترة هذه البراءة طويلا . فالمغربات كثيرة من حولنا وسيخرج أمره من يدي شئت أو لم أشأ ، فينقاد للغريزة الحيوانية العمياء .

وقد أعمنت الفكر فى أخلاق الناس ، فوجدت أن لحظة البداية فى هذا الطريق لها تأثير حاسم على سائر أيام الحياة . فان أنا تصنعت الجهل وتغاضيت ، فيستغل غفلتى وضعفى ظنا منه أنه تغفلنى . فيحتقرنى وأكون قد تواطأت على فساده . وان حاولت تقويمه بعد ذلك لن أفوز بباطل لأنه لن يصغى الى ، بل سيكرهنى ويضيق بى ذرعا .

ليس أمامي اذن سوى موقف واحد معقول أن أجعله المتصرف في أمر نفسه ، وأحاول أن أعصمه على الأقل من الأخطار بأن أنبهه الى المعاطب التي تحقق به .

ولئن كنت حتى الآن أتحكم فيه عن طريق جهالته . فيجب منذ الآن أن أتحكم فيه عن طريق الدراية وفتح عينيه على الحقائق .

ان هذه المعلومات الجديدة غاية في الأهمية . وينبغي أن تكون واضحة ونظيفة .

تذكر أن طريقة قيادة شخص بالغ تناقض تماما كل ما فعلته في قيادته وهو طفل . فلا تردد اطلاقا في اطلاعه على تلك الأسرار الخطيرة التي طالما اجتهدت في اخفائها عنه . فما دام من الواجب أن يعرفها ، فلا ينبغي أن يعرفها من أحد سواك ، ولا من نفسه . بل منك أنت . ومادام قد تعين عليه أن يقاتل ، فمن الخير أن تجنبه المفاجآت السيئة ، وأن تعرفه أنت بحقيقته عدوه .

ان العادة جرت بأن يعرف الشبان هذه الحقائق الحيوية من أصحابهم لا من أساتذتهم ومؤدبيهم ، فلماذا يحدث ذلك ؟ لماذا يختار الشاب خلاصاء بعيدا عن دائرة مؤدبيه ؟

ان السبب هو استبداد أولئك المؤدبين به . فلو لم يجبره استبدادهم على التخفى والتستر لما تخفى أو تستر . أما اميل فلا حاجة به الى الالتجاء لصديق سوى . فقد تعود أن يفتح لى قلبه بكل حرية . وأن يقول لى ما يحسه بسرور . وليس لدى ما أخشاه من هذه الجهة ، بيد أنى متى لاحظت عليه الخجل والتحفظ سأدرك أن غريزته بدأت في التيقظ أو الثوران وأن فكرة الشر بدأت تقترب بالغريزة لديه ، وهذا ايدان بأن الوقت قد أزف . وأنى ما لم أعجل بتتوير ذهنه ، نشد المعرفة بعيدا عنى ورغم أنفى .

وسيفطن أكثر من قارىء أن المسألة لا تحتاج إلا الى حديث صريح
في لحظة عابرة ثم بعد ذلك ينتهى الاشكال كله . وهذا خلاف الواقع .
ان من يريد أن يزرع زرعاً مشراً ، عليه أن يحرق الأرض قبل أن
يلقى البذور . وبذور الفضيحة عسير نباتها . ولا بد من جهد ودأب كى
تنشب جذورها فى الأرض . والأرض معادن . ومما يجعل المواعظ غير
ذات أثر أنها تلقى على كافة الناس من غير تدبر لاختلاف طبائعهم . فكيف
يمكن أن تلائم الموعدة الواحدة صنوف السامعين على اختلاف آفهامهم
وأمزجتهم وأعمارهم وأجناسهم وآرائهم . .

لا أعتقد أن هناك اثنين تصلح لهما موعظة واحدة من جميع الوجوه .
وانفعالاتنا متغيرة . حتى لا يكاد يوجد يومان فى حياة الرجل الواحد
يتشابه فيهما تأثير خطبة واحدة عليه .

ومن باب أولى لا يكون الشاب متهيأ لسماع المواعظ عندما تضطرم
شعلة حواسه فتطيح بالعقل وتستبد بالارادة . فلا تخاطب العقل فى
الشبان ، حتى الراشدين منهم ، الا بعد أن تعددهم لادراك ما تقول ادراكاً
حسناً . فان الدروس التى تذهب جفاء لا يلام عليها التلاميذ مثلما يلام
عليها الأساتذة . فالأستاذ الصالح يجب أن يعد نفس تلميذه لما يقوله له .
ان الشاب الطائش مثله كمثل من يسير فى نومه على حافة هاوية فان
أيقظته فجأة كان حرياً أن يتردى فيها .

وكذلك اميل ينجو وهو فى نعاس جهالته من مخاطر لا يراها . فان
أنا أيقظته على حين غرة هلك . فليكن هنا أولاً أن نبعده عن الهاوية
ثم نوقظه كى نريه اياها عن بعد .

ان المطالعة ، والوحدة ، والكسل ، والحياة الرخوة القاعدة ، ومخالطة
النساء والشبان . كل هذه سبل خطيرة فى سنه هذه ، يعرضه سلوكها
للمزلق والمعاطب .

فمن واجبي أن أحيّد به عن تلك السبل بأن أوردّه سواها . فإن الأعمال الشاقة تخيّد ثورة الحس وتوقف شطط المخيلة . وانشغال اليدين على الدوام وتعب الجسم من الارهاق خير صارف للقلب عن حرارة الرغبات .

ان الخطر الداهم في المدينة . فلأخرج بتلميذي الى الخلوات حيث يكون بعيدا عن الغواية . ولكن هذا لا يبعده عن ذكرها وأخيلتها . لأن الغواية لها عامل داخل النفس . فلأشغله عن نفسه كذلك . وليكن ذلك الانشغال بشيء يميل اليه بمزاجه وذوقه . وهذه هي أهمية الهواية . الى أن يحين الوقت الذي أصارحه فيه بكل شيء .

ويجب عند المصارحة أن أتخير المناسبة ، والزمان والمكان ، وأن أحدثه في الموضوع ببساطة ورزانة . ولكن ليس في جفاف . بل بحيث يدرك أنني مشترك معه في الاحساسات التي أحدثه عنها . وسأحدثه عن الحب والنساء والملذات حديثا صريحا أكسب به قلبه وأكون موضع سره في هذه الأمور بعد ذلك .

لن أخفيه من فطرته . بل سأكتفي بتوضيحها له وبيان مدى الأمان فيها ومواطن الخطر . بحيث يسلمني قياده عن ثقة من فهمي وتسامحي وحرصى على متعته ومصالحته معا .

ان أولئك الذين يريدون تأمين الشباب ضد فحاش الشهوات والحب ، يصورون الحب للشبان في صورة الجريمة . كأنما خلق الحب للعجائز
فحسب !

ان هذه الدروس المضللة الخادعة لا تنطلي على قلب الشاب أو عقله . بل ستلهيه فطرته أن يسخر من هذه المواعظ وان تظاهر بالخضوع لها والعمل بها . فكل ما يتأهض الطبيعة باطل لا يرجى له الدوام .

أما أنا فسأصور له الحب في صورته الحقيقية . سأقول له انه

السعادة القصوى في الحياة . وأنه هو الذى يضى على الرغبات الحسية
جمالا ساحرا ساميا . وأن الغريزة بغير حب اسفاف وابتذال . وسأجعله
يتقزز من الاباحية والفجور ، وأوجه أشواق عواطفه جميعا الى سماء
الحب الذى يجب أن ينتهيا له ويسعى للصعود اليه . فان اميل لم يخلق
ليعيش بمفرده . ولا بد يوما أن يحب ويتزوج من يحب .

ولكن يجب قبل أن يعاشر الناس ليعرف بالخبرة كيف يعيش البشر
فى هذه الدنيا . وكما أن هناك سنا مناسبة لدراسة العلوم . فهناك
كذلك سن مناسبة لممارسة الدنيا واختبار الحياة . ويجب أن تتأخر
تلك السن الى أن ينضج عقل الشاب فيسلك فى الحياة عن وعى وعلم .
لا عن تقليد أعمى أبله كما يفعل أبناء السراة الذين يلقي بهم الى المجتمع
منذ الطفولة بغير ثقافة أو نضوج .

وسأقول لاميل بكل صراحة وأنا أطرق به باب الحياة الاجتماعية :
— ان قلبك أيها الشاب بحاجة الى رفيقة فهي بنا ننشد تلك التى
تلائمك . وربما لم يكن العثور عليها سهلا . فالفضيلة الحقة نادرة دائما .
قلنبحت بأناة . ولا بد أن نعر على ضالتنا فى النهاية ، أو على الأقل على
أقرب فتاة اليها شبها .

وأظن هذا كافيا لفتح قلب الفتى لحياة المجتمع . وسوف يكون من
السهل اقتناعه بحسن السلوك والابتعاد عن الفسوق . لا بالوعظ السقيم
والإرشاد العقيم ، بل بالمناقشة العقلية . فما من شاب يرضى أن تكون
أخته أو أمه هدفا للفسق الذى يريد أن يقترفه مع نساء آخرين .
ومع استقلال فكر اميل ، سيحافظ على الآداب الاجتماعية لأنه ليس
مغرما بإيذاء الناس أو احتقارهم . وفى مدة قصيرة سيتعلم كل ما فاته أن
يتعلمه من السلوك الاجتماعى المهنذ من غير رخاوة .

الذوق

ان من يحب يريد أن يكون محبوبا . واميل يحب الناس . ولذا فهو يريد أن يفوز باعجابهم ومن باب أولى يريد أن يفوز باعجاب النساء . وسنه وصحته ومزاجه وكل شيء فيه يزكى هذه الرغبة .

أقول مزاجه ، وطبعه ، ولهذا أهمية كبيرة في حد ذاته . فالحب عند الرقاء ألفاظ معسولة ورخاوة وتقليد . أما عند أمثاله من العشاق الحقيقيين ، فحب النساء أعمق جذورا ، لأنه يصدر من القلب ومن رقة الاحساس . وهذا هو الفارق بين المحب الحقيقي ذى الطبع السليم وبين المستهترين الفجرة طلاب الشهوات .

وانى أقدر طبعا أن اميل بقلّة خبرته سيكون خجولا مرتبكا في أول الأمر . ولكن هذا الارتباط سيزيد من جاذبيته للنساء . ثم لا يلبث أن يزول بمرور الوقت . وسيتعلم كيف يكون شديد الاحترام للمتزوجات وكثير الرقة والحيوية مع الفتيات .

أما عن السلوك الاجتماعى عامة فسيكون اميل مستوحيا للطبيعة في تهذيبه فيحترم ذوى الأسنان بصرف النظر عن مراكزهم . ولما كان أميل من أصغر من يرتادون المجتمعات سنا فيجب أن يكون مثالا للتواضع والحياء . خفيض الصوت بعيدا عن الادعاء أو التظرف .

فان لم يشتهر بخفة الدم وبراعة النكتة فسوف يشتهر بالاتزان وصفاء الذهن واستقامة التفكير وسداد الرأى . سيحبه الناس وان لم

يدرو لماذا يحبونه . وربما كانت معلوماته محدودة ، الا أن منطقته مستقيم .

لن يندفع وراء الآراء الجديدة والبدع الشائعة . لأنه ليس سطحيا في تفكيره أو مغرما بالغرائب ، بل يحسن تقدير الآراء ويعلم أن المجتمعات تقوم على المتين من الآراء والمعتقدات لا على الزخرف البراق منها .

ولئن كانت آفاق معرفته مقصورة على المفيد النافع ، فإن ذلك يجعل طريقه قليل الاتساع واضح المعالم غير متشعب . فلا يغريه شيء بالانحراف عن سبيله السوى . وهذا في حد ذاته كفيلا أن يجلب له الاحترام والتقدير .

ولما كان حب الاعجاب فطريا لدى جميع الناس ، فسوف نجد اميل مهتما بذلك في الحدود الطبيعية . بمعنى أنه يهتم بالفوز بالاعجاب من أجل الصفات الأساسية في نفسه لا بسبب مظاهر لا فضل له فيها .

انه مثلا يجب أن يكون المتفوق في السباق في مجال الرياضة والمصارعة والعمل . ولكنه لا يهتم بالتفوق في ذلاقة اللسان ، أو براءه النكته أو وفرة المعرفة وغزارة العلم . ومن باب أولى لا يعنيه اطلاقا كسب الاحترام بسبب عراقة النسب والحسب أو فداحة الثراء أو سطوة الجاه .

انه يحب الناس لأنهم أناس مثله . وأحبهم اليه أشبههم به في الذوق والخلق . وتقديره للناس مبني على دراسة أخلاقهم وسجاياهم وأذواقهم .

وبمناسبة الذوق نجد من الواجب تحديد المبدأ الذي يقوم عليه تحديد الذوق وتعريفه . والحقيقة أن تعريفات الذوق من أشق الأشياء وأكثرها ضلالا . لأن المفهوم البسيط للذوق أنه ملكة الحكم على ما يعجب السواد الأعظم من الناس أولا يعجبهم . فاذا خرجنا على هذه الحدود لم نصل إلى طائل .

ويجب أن نلاحظ هنا أننا لسنا بصدد الأشياء التى نحبها لأنها نافعة . أو الأشياء التى نكرهها لأنها ضارة . فهذه أشياء هامة واضحة . فى حين أن الذوق لا ينصب الا على أشياء غير أساسية ، بل تتصل بالمتعة والكماليات فى الغالب ، ولا صلة لها بضرورات المعيشة . وهذا طبيعى لأن الضروريات لا يلزم الذوق للحكم عليها ، بل يكفى لهذا الحكم صوت الفطرة والرغبة الطبيعية . وهذا ما يجعل موضوعات الذوق عرضة للاختلاف الكثير وتباين المقاييس .

وألأحظ أن الذوق يخضع لقواعد محلية ولاسيما من جهة الجو والطباع والعادات والعرف السائد والنظم الاجتماعية وطريقة الحكم . كما أن لاعتبارات السن والجنس والطبع دخلا فى تلوين الذوق . ولهذا قيل ان الأذواق لا يصح أن تناقش .

ان الذوق فطرى فى جميع الناس ولكنه ليس على قدم المساواة لدى الجميع . وليس نموه لدى الجميع بمعدل واحد . وهو خاضع للتغير فى مراحل العمر بسبب ظروف كثيرة . فالحساسية والثقافة والبيئة لها آثارها . وكلما اتسعت آفاق البيئات التى يرتادها الانسان ، اتسعت أمامه الفرص لعقد المقارنات .

وينبغى أن يكثر الانسان لتنمية ذوقه من مخالطة أوساط بكثرت فيها وقت الفراغ واللهو والبطالة . لأن الأوساط المتخمة بالعمل ومهام الأمور لا تهتم بالملذات والمسرات بل بالمنافع والمصالح .

ومن جهة أخرى ينبغى أن تكون الأوساط التى نخالطها تربية الذوق خالية من التفاوت الضخم بين الطبقات . فلا يسودها الاستبداد بالرأى والشطط فى حب الاغراب . حتى لا تقضى الموضة على الذوق . وألاحظ أيضا أنه حيث يتفشى الترف والبذخ يسود الذوق الفاسد . وهذا بديهى لأن الذين يقودون الذوق هم الفنانون والكبراء والأثرياء .

ومن يقود هؤلاء هو صالحهم أو غرورهم . وكبار الأغنياء يحبون اظهار تفوقهم . الهائل على سائر الناس بالأعمال الغالية التكاليف . وهذا هو حب البذخ الذى يجلى الجمال عن المرتبة الأولى ليحل المال محله . فاذا بالفن المترف متكلف ذو جمال مصنوع . لأنه يجافى الطبيعة . ولذا كان البذخ وفساد الذوق لا ينفصلان . فحيث يكون الذوق مترفا يكون فاسدا .

وفى العلاقات بين الجنسين يبدو الذوق فى فساده أو صلاحه على أوضح صورة . فحينما تسود تلك الصلات المتعة المبتذلة ، نجد الذوق منحلا . فالإباحية والتبذل يقتربان بفساد الذوق — وحسن الذوق يقتربان بحسن الأخلاق .

ارجع فى الأشياء المادية الى ذوق المرأة . فهى خبيرة بأمور الحب . وارجع فى الأشياء المعنوية الى ذوق الرجل . فهو خبير بأمور الفكر .

وحينما تكون المرأة فى حدودها الطبيعية ، نجدها ملتزمة ميدان تخصصها ، صائبة الحكم فيه . حتى اذا فرضت المرأة نفسها على الأدب وتصدت للحكم على الكتب ، وأقبلت على تأليفها . فتلك آية الفساد ! . وفى الكتاب القادم ، وهو الكتاب الخامس سيتسع المجال للكلام على المرأة وتربيتها .

وسيكون من واجبي على كل حال أن أجنب اميل المجتمعات المخشنة التى تسيطر فيها المرأة على الأذواق ، والمجتمعات المترفة التى يسيطر فيها المال على الفنون . ويطمس فيها البذخ الجمال الطبيعى .

وسأكون حليفي فى ذلك ما للذوق البسيط من قدرة خاصة على الدخول الى القلب مباشرة . وسأستعين بكتابات الأقدمين ، فان بلاغتهم لم تفن منها الصبغة ، بل كانت تستلهم النزعات الطبيعية والاحساس

الفطرى الأصيل . وهذا نقيض مؤلفات المحدثين القائمة على الحذقة والتكلف المقنوت .

وبعد أن أرويه من تلك المناهل الصافية من آداب الأقدمين ، أطلعه على الآداب الحديثة ليكتشف ما فيها من سخافة ، فلا يلبث أن يطرحها نافرا منها . وأطلعه على مهارات رجال المجامع الرسمية والأكاديميات حتى لا يندفع فى أسمائهم الطنانة ، ولا يقدرهم الا بحسب أعمالهم الضحلة .

وبعد دراسة الأدب ارتاد به المسارح . فانها مدارس للذوق بما تستهدفه من المتعة والترفيه والترويح . فالمسارح لا تقام للعلم وطلب الحقيقة . بل لتهديب العواطف والمشاعر . ولهذا تصلح المسارح تمهيدا طيبا لدراسة الشعر . من حيث ان الشعر يقوم على التعبير عن العاطفة ولا يستلهم العقل والمنطق . ففنون الشعر والمسرح هى المحراب الحقيقى للجمال وتنمية الذوق .

سيكون هدفى الأساسى أن أعلمه كيف يحس الجمال بجميع أنواعه وكيف يحبه . فبهذا تزدهر عواطفه ويزدهر ذوقه . ويلتمس السعادة فى الجمال لا فى الثروة وما تنتجه من متاع غليظ رخيص سهل المأخذ قريب المورد .

وأما عن أسلوب المعيشة فيجب أن يتفق مع مستوى ذلك الذوق ، ويجب أن يتابع الطبيعة ويلازمها عن كذب .

لذا لن يكون مقامنا فى قصر . لأننا لا نحتاج لسكنانا الا لحجرة واحدة . ويجب أن يكون الأثاث بسيطا . وألا تثقل الحياة بمراسم الخدمة الباذخة ومظاهر الإبهة .

انى لأفهم لماذا يحبس الانسان نفسه داخل أسوار فيغدو سكنه سجنًا؟
لماذا ينفق الانسان المال والوقت فى بناء قصر ضخم يتقيد به لا يبرحه ،

مع أن الحروب والثورات والأوبئة لا تسمح لنا بهذا الارتباط الثقيل
بمكان واحد ؟ .

ان العالم كله مسكنى وقصرى . لهذا يجب أن يكون منزلى
متواضعا كى يسهل على الانطلاق منه الى أى مكان فى العالم كلما راقنى
ذلك .

ان ثروتى الواسعة ستفيدنى فى توفير أسباب الراحة لا فى انقال
حياتى بمظاهر الوجاهة . لن أعود اميل التقيد بالخييل والمركبات حتى
لا تستعبده قوائم جياده . وسأعوده بساطة الملبس حتى لا يستمد قيمته
من زخارف ثيابه .

ان الصلة الوحيدة التى ينبغى أن ينميها ويلتزم بها هى الصداقة
القائمة على توافق الأذواق والطباع لا على تشابه الزينة والمظاهر
والشراء .

ان الصداقة لا تشتري . فلن أجعل اميل يسيغ تكوين بطانة من
الأتباع والمتلقين عبيد كرمه أو الطامعين فى الاستفادة من مكائمه .
فمثل هذه الصلات سخيقة لأن الأساس فيها ليس التقدير الذاتى بل
المنفعة والنفاق .

ان الصديق لا يشتري . والحب لا يشتري . وقد يكون من اليسير
شراء النساء بالمال . ولكن هذا لن يكون حبا أو غراما . فالمال الذى
يغدقه الرجل على امرأة عنوان على هوانه عليها . فلولا ذلك المال
ما فتحت له ذراعيها . فالمنفعة التى تشتري بالمال رخيصة غليظة لا تروى
قلبا و لا تشفى غليلا .

فاذا انتهيت من تهذيب ذوق اميل على هذه الصورة ، تكون قد
اقتربت من المرحلة الأخيرة ، وهى مرحلة البحث عن شريكة لائقة
وحبيبة جديرة بهذا الشاب المكتمل الصفات والسجايا .

ويجب ألا أتوانى فى ذلك البحث الدقيق حتى لا يفلت زمام اميل
فيظن لقلة صبره السراب واحة ، ويتهالك على أول فتاة يخالها ضالته
المنشودة .

وفى سبيل هذا البحث سأخرج مع اميل من باريس ومجتمعاتها .
فهى مدينة الصخب والدخان والوحل . حيث النساء فقدن ايمانهن
بالشرف ، وحيث فقد الرجال ايمانهم بالفضيلة .
فى فسحة الريف النظيف سنبحث عن الحب والسعادة والطهر ، فى
صورة فتاة نموذجية مثل اميل ، نسميها منذ الآن « صوفى » .



الكتاب الخامس
صُوفِي
أو
المرأة

- تربية المرأة
- صوفي
- لقاء اميل وصوفي
- زيارة عاطفية
- لعب وغضب
- الأسفار
- زواج اميل وصوفي

تربية المرأة

ها قد وصلنا الى المرحلة الأخيرة من الشباب ، ولكننا لم نبلغ بعد آخر مداه . وليس من المستحسن أن يعيش الرجل وحيدا . واميل رجل ، وقد وعدناه بشريكة حياة ، فينبغى أن نمنحه اياها .

وهذه الشريكة هي صوفى .. فأين محل اقامتها ؟ وأين عسانا نجدها ؟ ويجب كيما نعر عليها ، أن نعرف من هي . فلنعرف أولا ما هي ، وبذلك يتيسر لنا التعرف على موطنها . ولكن عثورنا عليها لا يحل المشكلة . ولئن كان جون لوك قال :

وما دام صاحبنا الشاب النبيل على أهبة الزواج ، فقد حان لنا أن نتركه بالتقرب من محبوبته .

وبتلك العبارة ختم كتابه فى التربية . فانى نئن أقننى أثر جون لوك فى ذلك ، لأننى لا أتشرف بتربية شاب نبيل .. بل انسان ! .

وينبغى أن تكون صوفى امرأة على نحو ماينبغى أن يكون اميل رجلا . أى تكون حائزة لكل ما يتفق وتكوين نوعها وجنسها بحيث تصلح لملء مكانها جسديا وخلقيا .

لنبداً اذن بفحص مواطن الاتفاق والاختلاف بين جنسها وجنسنا . ان المرأة رجل فى كل ما لا يتصل بالجنس ! فلها أعضاؤه ، وحاجاته ، وقدراته . فالآلة البشرية فى المرأة والرجل ذات تركيب واحد ، وأجزاؤها واحدة ، وطريقة عملها واحدة ، وهيئتها واحدة .

اما فيما يتصل بالجنس ، فبين المرأة والرجل صلات من جميع

النواحي ، واختلافات في شتى النواحي . وموضع الصعوبة في المقارنة بينهما هو في تحديد ما هو جنسى وما هو غير جنسى في تكوينهما .

اننا بالتشريح المقارن ، بل وبالنظر المجرد نجد بينهما اختلافات عامة تبدو وكأنها لا صلة بينها وبين الجنس ، في حين أنها متصلة بالجنس بصلات بعيدة من متناول ملاحظتنا . فنحن لا ندرى الى أى مدى تمتد هذه الصلات .

وما نعلمه علم اليقين أن ما بينهما من قسط مشترك انما هو مستمد من اشتراكهما في النوع البشرى . وإن ما بينهما من اختلاف انما هو راجع الى اختلاف الجنس . ومن هذين الوجهين نجد صلات كثيرة وتناقضات كثيرة أيضا . ولعله من أعظم آيات الطبيعة البديعة انما صنعت كائنين فيهما كل هذا التشابه وكل هذا التباين في آن واحد .

ولا شك أن الصلات والاختلافات يجب أن يكون لها تأثير على الجانب الخلقى . وهذا معقول وثبته التجربة ، مما يدل على تفاهة وبطلان الخلافات حول المفاضلة أو المساواة بين الجنسين . كأنما كل من الجنسين ليس أكمل في ذاته مما لو كان أشبه بالجنس الآخر كما هو فعلا ! .

انهما من حيث الجانب المشترك بينهما متساويان . أما من حيث جانب التباين فلا وجه للمقارنة بينهما . وحين يجتمع الجنسان يسهم كل منهما في الأمور العامة ، ولكن ليس بنفس الأسلوب . ومن هذا التباين يتولد أول اختلاف في الصلات الخلقية فيما بينهما . فأحد الجنسين ينبغي أن يكون ايجابيا قويا ، والآخر يجب أن يكون سلبيا ضعيفا . ولذا يجب أن يكون أحدهما مريدا قادرا فعلا ، في حين يكفى أن يبدى الجنس الآخر مقاومة سيرة ..

ومتى وضعنا هذا المبدأ ، ترتب عليه أن المرأة مجعولة أساسا

لإرضاء الرجل . ولئن كان ينبغي للرجل أن يرضيها ، فذلك عن ضرورة
أوهى ، لأن المزية الأولى للرجل هي قوته .. فهو يروق المرأة من حيث
هو قوى فحسب .

وأنا أعترف أن هذا ليس قانون الحب . ولكنه قانون الطبيعة ،
وهو سابق على الحب ذاته .

ولئن كانت المرأة مجعولة كي تروق الرجل وكى تخضع له ، فيجب
أن تسعى للفوز برضاه بدلا من أن تتحداه . فعنفوانها الخاص بها
قائم فى مفاتيحها . وبتلك المفاتيح يجب أن ترغمه على شحذ قوته
واستخدامها . وخير وسيلة لإيقاد جذوة تلك القوة هي استثارته
بالمقاومة . فعندئذ تتحد الكرامة مع الرغبة ، ويكون انتصار احدهما
نصرا مؤزرا للآخرى . وبذا يتولد الهجوم والدفاع ، وجسارة أحد
الجنسين وخجل الآخر ، ذلك الخجل أو الخفر الذى زودت به الطبيعة
الجنس الضعيف كي يسترق به الجنس القوى ..

ان الكائن الأعظم أراد فى كل أفعاله تكريم النوع البشرى حينما
أعطى الرجل ميولا لا حد لها ، وأعطاه فى الوقت عينه القانون الذى
ينظمها ، بحيث يكون حرا وخاضعا لذات نفسه . وهذا القانون هو
العقل . وأما المرأة فقد منحها رغبات غير محدودة ، وشفع تلك الرغبات
بالحياء والخفر كي يلجمها .

وفضلا عن هذا جعل الكائن الأعظم ثوابا فعليا على حسن استخدام
الرجل والمرأة لوظائفهما الحيوية ، وذلك الثواب هو النكهة الطيبة التى
نجدها فى ممارسة الأمور بشرف متى جعلنا من الشرف قاعدة لأفعالنا .
وهذا فيما يلوح لى دليل جيد لغريزة البهائم التى تنظم لها الصلات
الجنسية فى أوقات معلومة وبقدر معلوم .

وهاكم نتيجة أخرى لهذا التركيب الخاص للجنسين ، وهذه النتيجة

أن يكون الجنس الأقوى هو السيد في الظاهر . أما في الواقع فهو معتمد وتابع للجنس الأضعف . وليس ذلك عن مواضعة هزيلة من مواضعات المجاملة ، ولا عن سماحة في طيها كبر من جانب صاحب الجول والحماية ، بل عن قانون راسخ من قوانين الطبيعة ، أعطى المرأة ذلك اليسر في إثارة الرغبات ، أكثر مما يسر للرجل ارضاء تلك الرغبات . وبهذا أصبح الرجل خاضعا لهوى المرأة ، مضطرا للبحث عن وسائل التقرب إليها ، كى تسمح له بأن يمارس حق الجانب الأقوى .

وأمتع ما يتمتع به الرجل في نشوة انتصاره هو ذلك الشك اللطيف ، فهو لا يعلم عن يقين هل الضعف هو الذى استسلم للقوة ، أم أن ذلك الاستسلام جاء عن ارادة وطوعية .

ودهاء المرأة المعهود يجعلها تترك ذلك الشك قائما على الدوام بينها وبين رجلها . وذكاء النساء متفق في ذلك تمام الاتفاق مع تكوينهن الجنسى . فلا يعرفن حمرة الخجل من ضعفهن ، بل يفاخرن به . وعضلاتهن الرخصة لا تعرف المقاومة . وهن يتصنعن العجز عن رفع أخف الأثقال .

ويتملكهن الخزي من الظهور بمظهر القوة . لماذا ؟ ليس ذلك كى يظهرن بمظهر الرقة فحسب ، بل لمأرب أبعد من هذا . فهن يمهدن بذلك لأنفسهن العذر والحق في الضعف عند الحاجة اليه لخطة الاستسلام ! .

تأمل كيف قادتنا دراسة البدن الى مجال الأخلاق ونحن لا ندرى . ومن غلاظة الاتصال الجنسى تتولد شيئا فشيئا أرق قوانين الحب . فسلطان النساء ليس وليد ارادة الرجال . بل هو وليد ارادة الطبيعة التى هكذا رتبت الأمور . فهذا شمشون لم يكن على قوته في مثل قوة دليلة فسلطان المرأة لها بحكم الطبيعة ولا يمكن انتزاعه مهما أساءت استخدامه . فلو كانت اسبائة الاستخدام لتلك السلطة كافية لسلبها أو فقدانها ، لكانت المرأة فقدت سلطانها على الرجل من أمد بعيد .

وليس ما بين الجنسين من تقابل رهينا بفترات معينة . لأن الذكر ليس ذكرا الا في بعض اللحظات . أما الأنثى فهي أنثى طوال حياتها ، أو على الأقل طوال مدة شبابها . فكل شيء يدعوها باستمرار الى تذكر جنسها كي تحسن القيام بوظائفه . ويجب أن يكون لها تركيب ملائم لذلك .

يجب أن يكون لديها حق الراحة مدة الحمل ، وحق الراحة مدة الوضع . ويجب أن تكون حياتها رحية هينة لترضع أطفالها . ويجب كذلك أن تتوفر لديها لتربيتهم مزايا الصبر والحنان والهمة والعاطفة التي لا يغفلها شيء فهي صلة الوصل بين الأطفال وأبيهم . وهى وحدها التي تجعله يحبهم وتحمله على الثقة فى اتسابهم اليه . وياله من حنان وياله من مهمة تلك التي تناط بالمرأة كي تربط الأسرة كلها برباط من الوحدة ! .

ويجب ألا يكون ذلك عن خلق وفضيلة بل عن ميل وطبع . فان الطبع بالزامة هو الذى يحمى النوع البشرى من انقراض وشيك لو ترك الأمر للخلق الاختيارى .

وحيثما تشكى المرأة من غبن عدم المساواة فى الوضع الذى وضعها فيه الرجل ، فهي مخطئة . فعدم المساواة هذا ليس نظاما بشريا ، أو على الأقل ليس وليد الأهواء بل هو وليد العقل . فعلى الجنس الذى جعلته الطبيعة مستودعا للأطفال أن يكون مسئولا عنهم أمام الجنس الآخر . ولا شك أنه لا يباح لانسان أن يخفر ذمته . وكل زوج خائن يحرم زوجته من ثمرة واجبات جنسها المرهقة يكون رجلا غاشما متوحشا . أما المرأة الخائنة فجرمها أشد ، لأنها تحطم الأسرة وتقطع جميع روابط الطبيعة . فهي حين تعطى الرجل أطفالا من غير صلبه تخون أكثر من طرف وتشفع الخيانة بالخديعة .

ولئن كان هناك موقف بشع فى الحياة فهو موقف أب مسكين

محروم من الثقة في زوجته ، فلا يجسر على اطلاق العنان لعواطف قلبه نحو بنيه . ويساوره الشك وهو يقبلهم خيفة أن يقبل ذرية رجل آخر هو دليل عرضه المثلوم . وماذا تكون الأسرة ان لم تكن بهذا الوضع سوى مجموعة من أعداء مقنعين تسليح المرأة الخائنة أحدهم ضد الآخر وهي تجبرهم على تصنع المحبة والتعاطف ؟ .

فليس مهما اذن أن تكون المرأة أمينة فحسب ، بل يجب أن يحكم زوجها بأمانتها ، وأن يحكم بذلك جميع الناس أيضا . ومن المهم أن تكون ذات حياء وتحفظ ، وأن تحمل بمسلكها الشاهد الأعظم على عفتها .

ولئن كان من الجوهري أن يجب الأب أطفاله ، فمن الجوهري أيضا أن يحترم أمهم . وهذه هي الأسباب التي تجعل مظهر المرأة في المحل الأول بين واجبات المرأة . وتجعل سمعة الشرف لا تقل أهمية عن الطهارة .

ويترتب على هذه المبادئ اختلاف اخلاق الجنسين . ويترتب كذلك حافز جديد للواجب والسلوك ، يفرض على المرأة خصوصا الحذر التام والتدقيق في السلوك والحركات .

ان القول العائم المائع بتساوي الجنسين في الواجبات انما هو تشدق بشعارات جوفاء . وستظل هذه الدعاوى جوفاء ما لم تجد ردا على ما ذكرناه آنفا .

وقد يقال ان النساء لا يحملن الأطفال في جميع الأوقات وهذا حق ، بيد أن مصيرهن محدد بذلك الهدف . فهذا هو غرض وجودهن . والشذوذ هو حالة نساء المدن اللواتي يرخصن لأنفسهن التقليل من انجاب الأطفال . ولكن يعوض هذا النقص اخلاص نساء الريف لفطرتهن في الخصوبة ومعيشتهم في حدود الطهارة والبساطة . فيعوضن بذلك عن عقم نساء المدن .

ان اطالة الفترة بين الحملين تفقد المرأة ألفة الحمل ، فحين تعود اليه تقدم على مغامرة بدنية . وهل تريدونها أن تكون اليوم مرضعة وغدا جنديّة محاربة ؟ وهل يمكن أن تغير طبعها ومزاجها في الحالين كما تغير الحرباء لونها ؟ وهل في وسعها أن تكون تارة حانية وتارة ضارية ؟ أن تكون طورا خائفة وجلّة . وطورا مهاجمة مقتحمة ؟ .

هناك أقاليم تلد فيها النساء من غير عناء تقريبا . ويرضعن أطفالهن من غير جهد . وأنا أقر بذلك . ولكن الرجال في تلك الأقاليم بعينها يمشون نصف عراة طول الوقت ، وينصبون الفخاخ للحيوانات المفترسة ، ويحملون الزوارق فوق أكتافهم بغير عناء ، وينامون في العراء ويقضون جملة أيام بغير طعام ، فكلن كانت النساء قويات الأجسام ، فإن الرجال أشد أيضا وأقوى . أما عندما يجنح الرجال للرخاوة ، فالنساء لا بد أن يكن للرخاوة أشد جنوحا . وبذلك يبقى الفارق النسبي بين الجنسين محفوظا لا يختل .

ان أفلاطون في جمهوريته يفرض على النساء تمارينات الرجال بعينها . وهذا حق . فقد ألغى في دولته الأسرات الخاصة . فلم يعد يدرى ماذا يصنع بالنساء . ووجد نفسه مكرها على أن يجعل منهن رجالا ! .

واعتراضى ينصب على خنقه لأرق العواطف الطبيعية ، مضحيا بها في سبيل عاطفة مصطنعة لا يمكن أن تبقى الا على أساس مستمد من العواطف الطبيعية التي خنقت . وكأني به يتجاهل أن حب الأهل والأقارب هو مبدأ حب الفرد للدولة . وأن قلب الانسان يتعلق بالوطن الكبير عن طريق تعلقه بالوطن الأصغر وهو الأسرة ! وينسى أن الأبن الصالح وان الزوج الصالح وأن الأب الصالح هم بعينهم من يصنعون المواطن الصالح أو يكرونونه ! .

ومن حيث أنه ثبت أن الرجل والمرأة ما كان ينبغي لهما تكوين

واحد . ولا خلق واحد . ولا مزاج واحد . يترتب على هذا أنه لا ينبغي
لهما تربية واحدة .

وإذا اتبعنا توجيهات الطبيعة ، وجدنا أن الرجل والمرأة يجب أن يكون
بينهما توافق وتناسق ، ولكن يجب ألا تناط بهما أمور واحدة وأعمال
واحدة . أجل ان الغاية من أعمالهما مشتركة . ولكن الأعمال نفسها
متباينة . وبالتالي تكون متباينة كذلك الأذواق والطباع التي توجه تلك
الأعمال .

أما وقد حاولنا أن نكون الرجل الطبيعي فى شخص « اميل »
فيجب كى لا ندع عملنا ناقصا ، أن ننظر كيف ينبغي أن تتكون أيضا
المرأة التى تلائم هذا الرجل .

ان كنت تريد حسن التوجيه على الدوام ، فأتبع ارشادات الطبيعة .
وكل ما يتميز به الجنس يجب أن يكون موضع الاحترام باعتباره من
مقررات الطبيعة .

كثيرا ما يقال :

— ان النساء فيهن هذا العيب أو ذاك مما ليس لدينا .

والواقع أن غرورنا نحن الرجال يخدعنا فى هذا المقام . فان العيب
الذى فى نظرنا انما هو مزية بالنسبة اليهن . وكانت الأمور تمضى بصورة
أسوأ لو لم تكن فى النساء تلك التى نسميها عيوباً . فعلينا أن نمنع تلك
العيوب المزعومة من الاندثار . ونحول دون تلاشيها .

والنساء من جانبهن لا يكففن عن الصياح بأننا نزيهن كى ينشأن
تافهات مغرورات خليعات . وأتينا نسلين على الدوام بالأعيب طفلية كى
نظل سادتهن . وبهذا يرميننا بتبعة عيوب ننعاها عليهن .

ويا لها حماقة ! . ومنذ متى كان الرجال هم القائمين على تربية

الفتيات ؟ ومن ذا الذى يمنع الأمهات من تربيتهن على النحو الذى يترأى لهن ؟

ترى هل أرغم أحد بناتكن أيها الأمهات على تمضية نصف أعمارهن فى التزين كما تصنعن أتنن ؟ .

ترى هل منعكن أحد من تعليم بناتكن أو توجيه تعليمهن على هواكن ؟ .

ترى هل الذنب ذنبنا اذا رقن لنا ان كن جميلات ، أو استهوتنا ألاعيبهن التى يتعلمن فنونها منكن ؟ .

هيا قمن على تربيتهن كالرجال . وسيطعنكم عن طيب خاطر . وكلما أشبهت الفتاة الرجل قل سلطانها عليه . وعندئذ يغدو الرجال هم السادة عليهن حقا ، لا فى الظاهر فحسب .

ان جميع الملكات المشتركات بين الجنسين ليست موزعة بينهما على السواء . ولكنها تتكامل هنا وهناك . فالمرأة أكمل فى خصائص المرأة منها فى خصائص الرجل . وكلما حاولت سلب خصائصنا تخلقت وراءنا فيها . وليس لهذه القاعدة غير شواذ قليلة يسوقها دائما فى حججهم أنصار الجنس اللطيف .

ان تنمية خواص الرجل لدى المرأة واهمال خواصها الأصلية خليق أن يضر بالمرأة ضررا واضحا . والمآكرات من النساء لا يفوتهن هذا المعزى . فيجتهدن وهن يحاولن سلب مزاياها ، أن يحافظن على مزاياهن الأثوية الخاصة . الا أن هذا المجهود المزدوج يثقل عليهن لتباين الجانبين . فيتخلفن فى ميدانهن النسوى كما يتخلفن فى ميداننا . وتفوتهن بذلك الحسنيان .

صدقينى أيتها الأم الحصيفة . لا تجعلى من ابنتك رجلا . فان هذا يكون منك بمثابة تكذيب للطبيعة التى خلقتها امرأة . بل اجعلها امرأة صالحة أمينة وثقى أنها ستكون بذلك أصلح لنفسها ولنا .

هل يترتب على ذلك أنها ينبغي أن تربي جاهلة بكل شيء ، حبيسة أعمال تدبير المنزل وحدها ؟ .

هل سيجعل منها الرجل خادما له أكثر من اتخاذها لها شريكة ؟ هل سيحرم بالقرب منها من أعظم منافع الصحة والمشاركة ؟ وهل سيتذرع الرجل لاسترقاقها بمنعها من كل احساس ومن كل معرفة ؟ .

كلا ! ولا مرأ . فما بهذا قالت الطبيعة حين أعطت النساء ذهنا لمحا مرنا . بل أرادت الطبيعة بتلك المنحة عكس ذلك تماما . أرادت أن تفكر النساء ويحسن الحكم على الأمور ويحبين ويعرفن . وأن يجملن عقلمن كما يجملن ظاهرهن وهيئتهن . فهذا هو السلاح الذى منحته الطبيعة للنساء ليعوضهن عن القوة البدنية التى تقتصهن ، ولكى يواجهن به قوتنا .

ينبغي أن تتعلم النساء أمورا كثيرة جدا . وكل ما هناك أن يقتصر تعلمهن على تلك الأمور التى يليق بهن معرفتها .

وسواء نظرت الى الغاية الخاصة للجنس ، أو نظرت الى ميول الجنس ، أو نظرت الى واجبات المرأة ، فكل ذلك يعين على ارشادى الى صورة التربية التى تلائم المرأة .

ان المرأة والرجل قد جعل كل منهما للآخر . ولكن تبعية كل منهما للآخر ليست متكافئة . فالرجال يتبعون النساء عن طريق رغباتهم . أما النساء فيتبعن الرجال عن طريقين : من طريق رغباتهن ومن طريق حاجاتهن . فنحن الرجال أقرب الى القدرة على البقاء بدونهن منهن على البقاء بدوننا . فلكى يحصلن على الضرورى للمعيشة وللمظهر الاجتماعى ، يجب أن نعطينهن نحن هذا الضرورى ، وأن نراهن جذيرات بذلك . وهن كذلك خاضعات لعواطفنا ولتقديرنا لمحاسنهن الجسدية وفضائلهن الخلقية .

وقد شاء قانون الطبيعة نفسه أن تكون النساء تحت رحمة آراء

الرجال فيما يخصهن وفيما يخص أبناءهن . فلا يكفى أن يكن جميلات ، بل يجب أن يرقن للرجال بجمالهن . ولا يكفى أن يكن حكيما ، بل يجب أن يعترف لهن الرجال بالحكمة . ولا يكفى أن يكون لهن شرف السلوك ، بل يجب أيضا أن يكون لهن شرف السمعة . فمن المستنع أن تكون امرأة فاضلة تلك التى تسمح للرية أن تغشاها .

أما الرجل فلا يخضع الا لذات نفسه وبوسع أن يتحدى رأى العام . وما كذلك المرأة . ويترتب على ذلك أن نظام تربيتها يجب أن يكون من هذه الوجهة تقيض نظام تربيتنا . فالرأى العام هو مقبرة الفضيلة بين الرجال ولكنه تاج الفضيلة بين النساء ! .

ان تكوين الأطفال يتوقف على حسن تكوين الأمهات . فعناية النساء هى الأساس الذى تقوم عليه التربية الأولى للرجال . وعلى النساء كذلك تتوقف أخلاق الرجال وعواظهم وأذواقهم وطبائعهم ومسراتهم ولذاتهم بل وسعادتهم نفسها .

ولهذا يجب أن تكون تربية النساء برمتها مرتبطة بالرجال . فان واجبات النساء فى جميع الأزمان هى ارضاء الرجال ونفعهم وتحرى محبتهم وتكريمهم ، وتربيتهم صغارا ورعايتهم كبارا ، وارشادهم بالمشورة والتسرية عنهم وتهوين الحياة عليهم .

وهذه الواجبات هى ما يجب تلقينه للنساء منذ طفولتهن الأولى . وكلما ابتعدنا عن هذا المبدأ انحرفنا عن هدف تربيتهن . وذلك يعنى أن كل ما يلحق لهن لن يجدى عليهن فى جلب السعادة لهن ولنا .

ومع أن كل امرأة تريد الظفر باعجاب الرجال وينبغى أن تريد ذلك ، فهناك فرق كبير بين الرغبة فى الظفر باعجاب رجل فاضل ممتاز حقا ، وبين الرغبة فى الظفر باعجاب هؤلاء الأحلاس من التفاهين الذين يشينون جنسهم والجنس الآخر الذى يحاكونه بتخشعهم .

فلا الطبيعة ولا العقل يمكن أن يحملوا المرأة على حب من يشبهونها من الرجال ، ولا ينبغي أن تتعلم طريقتهم في السلوك رغبة في الحصول على حبه .

ان الفتيات الصغيرات يملن الى الزينة منذ ولادتهن تقريبا . فلا يكفين أن يكن جميلات . بل يردن أن يجدهن الناس كذلك . ونلاحظ في سلوكهن الغضب أن هذه الغاية تشغلهن منذ البداية . ومتى استطن فهم ما يقال لهن يسهل توجيههن عن طريق إثارة اهتمامهن بما يقال عنهن . في حين أن هذه الطريقة لا تؤثر في صغار الغلمان مثل هذا التأثير . لأن الصبيان لا يهتمون كثيرا برأى الناس فيهم ما داموا مستمتعين بما يفعلون . ولن يقيموا وزنا لحكم الناس عليهم الا بمرور الوقت وبتكرار العناء .

ومهما يكن مصدر هذا الدرس الأول أو سببه فهو درس نافع . فزينة الجسم مطلوبة والجسم يولد كما يقولون قبل ولادة النفس . فأول تهذيب يجب أن يكون تهذيب الجسم . وهذا الترتيب مشترك بين الجنسين . بيد أن موضوع التربية البدنية مختلف في الجنسين . فترية بدن الرجل غايته زيادة القوة . أما تربية بدن المرأة فغايتها زيادة الروق . ولكن ذلك لا يعنى أن تخلو تربية بدن الرجل من الروق تماما أو أن تخلو تربية بدن المرأة من القوة تماما . اذ ينبغي أن يكون للمرأة نصيب من القوة يتيح لها القيام بأعمالها ومهامها في رشاقة . ويجب أن يكون للرجل نصيب من الرشاقة يتيح له القيام بمهامه في يسر .

ان افراط المرأة في الرخاوة يسبب رخاوة الرجال . فالنساء ينبغي أن تكون فيهن قوة لا تساوى قوة الرجل ولكنها تكفى لانجاب رجال فيهن قوة . ولهذا السبب تفضل تربية الأديرة ومدارس البنات الداخلية تربية البيوت . فهناك الطعام الخشن والألعاب في الهواء الطلق والحدائق

متنوعة . أما في البيوت فالنعومة والترف والاخلاد للراحة داخل .
الحجرات المغلقة مما يورث الرخاوة المتناهية . ويؤدي لانحلال الفتيات
وضعف ذرايهن . وبذلك يتطرق الفساد الى أجساد الشباب والى
قلوبهم .

لقد كانت الفتيات في اسيرة يمارسن التمرينات العسكرية
شأنهن في ذلك شأن الفتيان . لا ليذهبن الى القتال بل ليحملن يوما
ما أطفالا جديرين بحمل الأعباء وتحمل المتاعب والعناء .

وليس هذا ما أنادى به . اذ ليس من الضروري لانجباب جنود
للدولة أن تكون أمهاتهم قد حملن من قبل البنادق وتدربن على الطريقة
البروسية . بيد أنى أجد التربية الاغريقية على العموم مستنيرة من هذه
الناحية . فكانت الفتيات يظهرن في الجامعات العامة ، لا مختلطات بالفتيان
بل متجمعات فيما بينهن . فكان من النادر أن يمر احتفال أو عيد أو تقديم
قربان لا تبرز فيه مجموعات الفتيات من أبناء عيون المواطنين متوجات
بالأزهار مرتلات الأناشيد هازجات بأنغام الرقص ، حاملات السلال
والزهريات والقرايين مما يبهر الأنظار ويهيج النفوس .

ومتى تزوجت الفتاة كفت عن الظهور في المحافل العامة وأغلق عليها
باب دارها ، وقصرت جهودها على تدبير بيتها ورعاية أسرتها .

وهذه هي الطريقة التي توحى بها الطبيعة والعقل معا في شؤون الجنس .
ومن تلك الأمهات ولد رجال هم أصح الرجال أبدانا ، وأقواهم أجساما ،
وأجملهم قواما على ظهر الأرض . واذا استثنينا سوء السمعة الذي
اختصت به جوار معينة ، فلن نجد أمة من أمم العالم بغير استثناء
الرومان كانت نساؤها مثل نساء الاغريق الاقدمين حكمة واتزاناً ولطفاً
وصيانة تجمع بين الخلق والجمال .

ومن المعلوم أن ثياب الاغريق المريحة التي لا تعوق حرية البدن لها

ضلع فى اتاحة هذا التناسق الرائع للأجسام فى الجنسین على نحو ما نشاهده فىما خلفوه لنا من تماثیل لهم تزل نموذجاً للفن ، بعد أن شوهدنا نحن الطبیعة فلم يعد بین أحيائنا من يصلح نموذجاً حیا .

لقد كانت نساء الاغریق یجهان أنواع المشدات التى ترهق بها نساؤنا خصوصهن طلباً للرہافة . ولا شك أن الافراط فى هذا الحرج على جسم المرأة سیؤدى لانحلال النوع واضمحلال السلالة . ومن فساد الذوق المبالغة فى دقة الخصر كأنما المرأة توشك أن تشطر شطرين . فان لكل شئ مداه المعقول وتناسقه الذى ان جرن علیه صار عیباً لا شك فیہ . وهذه المبالغة فى دقة الخصر تكون عیباً فى جسم عار ، فكیف تكون جمالاً تحت الثیاب ؟ .

ومما لا شك فیہ أن هناك مبررات لاستخدام المشدات ، كأن یكون الثدى متهدلاً ، أو البطن متضخماً ، الخ ... فكل ذلك منفر . ولا سیما فى امرأة فى العشرين من عمرها مثلاً . ولكنه ینبغى ألا یدهشنا فى امرأة بلغت الثلاثین . ویجب على كل حال أن تكون أذواقنا مسایرة للطبیعة . والعیوب مهما تكن السن أقل ازعاجاً للذوق من تصنع الرشاقة ، حتى أن بنت الأربعین تتظاهر أن لها رشاقة فتاة یافعة ! .

ان كل ما یناقض الطبیعة أو یعارضها ینم عن ذوق فاسد . وهذا ینطبق على زینة الجسم كما ینطبق على حلیة النفس . فالحیة والصحة والعقل والراحة یجب أن یكون لها المكان الأول . والرشاقة لا یمكن أن توجد بدون الارتیاح . والرقة لا تعنى الشحوب والهزال . فلا ینبغى أن تكون المرأة علیلة كى تحوز الاعجاب . اذ أنها تثیر الشفقة . فى حین أن الرغبة لا تثیرها الا النضارة والصحة .

ان الأطفال من الجنسین لدیهم ألعاب كثيرة مشتركة ؛ ولكن حینما یکبرون تتمايز الأذواق والملاهى . فالفتیان ینشدون فى لهوهم الحركة والضجة ، كالألعاب الطبل والأسلحة والمركبات . أما الفتيات فیفضلن كل

ما يزيد جمالهن . فينشدن في ملاهيهن المرايا والحلى والشرائط والدمى .
فالدمية على الخصوص هى اللعبة المفضلة لجنس المرأة . وهذا يدل
بداهة على تأثير الغاية الجنسية فى تكوين الذوق والميل .

أنظر الى فتاة صغيرة تجدها تقضى نهارها حافلة بدميتها تنمق هندامها .
تبدل ثيابها مائة مرة من غير أن تمل . وتتفنن فى تزيينها بطرق مبتكرة
تتفاوت فى النجاح أو سوء الاختيار . فليس هذا هو المهم . ولئن كانت
الاصابع تنقصها المهارة . والذوق ينقصه التكوين الا أن الميل الفطرى
واضح للغاية .

وفى هذه المشغلة ينقضى وقت الطفلة وهى لا تحس بمروره . وتمر
الساعات وهى لا تدرى . حتى انها قد تنسى طعامها . ذلك أن جوعها الى
الزينة أقوى وأشد من جوعها الى ألوان الغذاء .

وقد تعترض بأنها تزين دميته لا شخصها . وهذا حق لأنها ترى
دميتها ولا ترى شخصها . فهى لا تستطيع الآن لشخصها شيئاً . وتكوينها
الشخصى لم يتم . وذوقها وموهبتها وقدرتها لم تنضج . ولهذا فهى
تصرف كل خلاعتها وتبرجها الى دميته . ولكن ذلك أمر موقوت . انتظارا
منها للحظة تغدو فيها دمية نفسها .

هاكم اذن ذوق الفتاة الأول واضح المعالم . وليس عليكم الا تتبعه
وتنظيمه . فمن المؤكد أن الصغيرة تريد من كل قلبها أن تتعلم كيف تزين
دميتها ، وتحذق جميع فنون التنسيق والتنسيق وأسرار ارتداء الثياب
النسوية الأنيقة . ومن التقصير أن تنشأ الفتاة جاهلة بذلك كله فتكون
عالة مستقبلاً على المواشط والخياطات والوصيفات وتحت رحمتهم .
فاستغلال الذوق الأول للطفلة ومساعدتها على حذق تلك الفنون فى
دميتها خدمة كبرى لمستقبلها ، فى قالب لهو لا فى قالب تكليف .

ان كل الفتيات تقريباً يجدن غضاضة وعناء فى تعلم القراءة والكتابة .

أما أشغال الابرّة فانهن يتعلمنها عن طيب خاطر دائما . لأنهن منذ الطفولة يتخيلن أنفسهن كبيرات ، ولأن هذا الفن يساعدهن على اتقان التزيين والأناقة .

ان هذا الطريق الأول المهد من السهل جدا السير فيه بحيث تأتي دروس الحياكة والتطريز والمخرمات (الدانتيل) من تلقاء نفسها . أما أعمال الطنافس لتزيين الأثاث فليس هذا دورها . لأن الفتاة الصغيرة مهمة بشخصها . ولا تهتم بأثاث البيت الا حين تنضج أنوثتها . فمن الصعب اثاره اهتمام الصغيرات بتطريز الطنافس .

وهذا التدرج الاختياري التلقائي ينتهى بسهولة الى فن الرسم . فليس الرسم غريبا عن أناقة الملبس والزينة . ولست أعنى الرسم من حيث هو فن شامل يحاكي الطبيعة . بل أقصد أنواع الرسم المتصلة مباشرة بزينة الثياب والأناقة ، بحيث تستطيع الفتاة أن تنهض يوما بتصميم زينة ثيابها بنفسها ان لم تجد نموذجا تحت يدها .

ومهما قال المازحون والمتلقون فان البداهة السديدة مقسومة على السواسية بين الجنسين . فالفتيات على العموم أسلس قيادا من الفتيان . وينبغى سياستهن بمزيد من السلطة كما سأبين فيما بعد . ولكن ليس معنى هذا أننا ينبغى أن نطالبهن بشيء لا يقتنعن بمنفعته لهن . وحلق الأمهات يقوم على توضيح منفعتهن فى كل ما يطالبنهن به . وهذا ميسور لأن الذكاء لدى الفتيات أسرع الى التيقظ مما لدى الفتيان .

وهذه القاعدة ترفع عن كاهل جنسهن كما ترفع عن كاهلنا جميع الدراسات الطفيلية التى لا خير فيها ولا تجعلهن أحظى لدى الناس . وكذلك تعفيهن من جميع الدراسات التى لا تدرك منفعتهن فى مرحلة الطفولة ، ويكون أوانها حين تتقدم بهن السن شيئا ما ويتهيأ لادراك مدى جدواها .

ولئن كنت أنادى بعدم اجبار الفتى على تعلم القراءة . فمن باب أولى أنادى بعدم اكراه الفتاة على ذلك قبل أن تقتنع وتحس بما للقراءة من نفع لديها . ثم ما وجه الضرورة فى تعليم الفتاة القراءة والكتابة فى سن مبكرة ؟ .

ما أكثر من يسئن استخدام تلك المعرفة . وما أكثر من يجبرن على تعلمها اجبارا غاشما لعدم ميلهن اليها . وكلهن مع ذلك سيظهر لديهن الميل لتعلمها لو تركن لشأنهن حتى الأوان المناسب .

أما تعلم الحساب فقد يكون ألزم للفتاة من تعلم الكتابة والقراءة لحاجتها الى ذلك الفن قبل حاجتها الى القراءة والكتابة . واذا رفضنا أن نعطي الصغيرة الفاكرة الا جزاء على عملية حسابية شفوية بسيطة ، فسرعان ما تتعلم الحساب .

وأعرف فتاة صغيرة تعلمت الكتابة قبل القراءة . وبدأت تكتب بخيوط الابرة قبل أن تكتب بالقلم . واستعملت اشكال الحروف فى التطريز .

ولست أنادى بالفراغ للفتيات . بل أنادى دائما بشغلن ولكن بمشغل توافق ميولهن . أما الفراغ فهو أخطر رذيلة تتعرض لها الفتاة وهو عادة يصعب اقتلاعها متى رسخت فى الصغر .

ان الفتيات يجب أن يكن نشطات دأبات على العمل . فليس أفضل من الفتاة الصانع .

ويجب تعويدها من الصغر على تحمل الضيق والمتاعب وكبت نزواتها . فهذا هو ترويض رغائبها بل وارادتها على الخضوع لارادة سواها . ولهذا يجب بين الحين والحين منع الفتاة من العمل وهى أشد ما تكون رغبة فيه وارغامها على البقاء ساكنة فترة ما . حتى يتلاشى لديها جموح وسجى هذا الدلال الذى يفسد أخلاق النساء . فان الانحلال

النسوى مرجعه الأول الى هذا التدلل . والفتاة المدللة لا تعرف كيف تكبح نفسها . ومن هنا الخطر . فان حياة المرأة الفاضلة هى حياة صراع متصل ضد نفسها .

وينبغى أيضا أن يكون السأم ممزوجا باللهو فى ألعابها حتى لا ينقلب اللهو موضوعا للشهوة . ومن المشاهد أن المرات المسموح بها للفتيات تكون فرصة لاندفاعهن فيها . ولهذا نلاحظ أن ألعاب الفتيات المحدودة تمارس باندفاع أشد من اندفاع الفتيان فى ألعابهم . فيجب وضع حد لهذا الاندفاع لأنه يشكل اخلاقها وطبعها تشكيلا جامعا .. ينتقل عند غيرها من مجال اللهو واللعب الى مجالات أشد خطرا وأبعد فى حياتها وحياتنا أثرا .

ويجب كذلك وضع حد لتقلب ذوق الفتاة فى ملاهيها . فان هذا التقلب هو الأساس الأول لطباع الخفة والنزق التى تعاب على المرأة عندما تكبر . ومتى تعودت ذلك فى صغرها وأرخينا لها العنان ، فمن العمير جدا ردعها عن هذا الخلق فيما بعد . ولست أنادى بقتل المرح فى الصغيرة وخنق الضحك والمعايشة البريئة فى ألعابها . بل أنادى بالحيولة دون سرعة عزوفها عن ملهى لاندفاعها الى ملهى سواه . فان سرعة السأم بعد سرعة الاقبال هى الجموح الذى ينبغى أن نعد له اللجم .

عودوهن على تلقى الأمر بالكف عن ملهى وهن فى ذروة النشوة به لينصرفن فورا الى مهمة مختلفة عنه تماما ، من غير تردد ومن غير تدمير . وتكوين هذه العادة ترياق كاف للنزق والذبذبة . فان العادة طبيعة ثانية . وهذه العادة بالذات سند مساعد للطبيعة .

وخليق أن ينجم عن هذا الضغط والتعود عليه نوع من الدمائية التى ستحتاج اليها المرأة طوال حياتها . فانها لا تنى خاضعة اما لرجل ، أو

لأحكام الناس ، وليس مسموحا لها أن تتعالى على سلطان تلك الأحكام .
ان الرقة هى أول وأهم مزايا المرأة . فقد خلقت المرأة لاطاعة
كائن ناقص هو الرجل . وكثيرا ما يكون طافحا بالردائل ، ودائما
ما يكسبون حافلا بالعيوب . فيجب أن تتعلم منذ البداية كيف تخضع
للغبين والظلم ، وكيف تتحمل أخطاء زوجها بغير تذمر . فمن أجلها هى
لا من أجله يجب أن تربي على الرقة والدمائة ! .

ان حدة الطبع والعناد فى المرأة يزيدان دوما من شرور الأزواج
وشذوذ طبعهم . لأن الأزواج يشعرون أنه ما بهذا السلاح ينبغي قهرهم .
وما خلقت السماء المرأة ضعيفة كي تتحكم . ولا خلقتها رقيقة الملامح
كى تشوهها بالغضب . فعندما تغضب المرأة تنسى نفسها ، وقد تكون
على حق فى التذمر والشكوى . ولكن لا حق لها فى اللوم والتفريع ،
فكل جنس ينبغي أن يحتفظ بطابعه الخاص .

فالزوج الرقيق أكثر مما يجب قد يجعل المرأة وقاحا . ومهما يكن
الزوج وحشا ضاريا فان رقة المرأة ودمائها تردانه إلى سواء السبيل إن
عاجلا أو آجلا .

* * *

ينبغي أن تكون الفتاة على الدوام ممثلة خاضعة . ولكن ليس معنى
هذا أن تكون الأمهات على الدوام خاليات من الرحمة بهن . فليس من
الضرورى لتعويد الفتاة الامثال أن نشقيها . وليس من الضرورى كى
تعلمها خفض الجناح أن تقسو عليها دائما . بل انى على العكس من
ذلك لا أمانع فى أن ندع للفتاة قرصة استخدام شئ من الحيلة لا للروغان
من العقاب حين تشق عصا الطاعة ، بل للافلات من واجب الطاعة .
فليس الموضوع متعلقا بتكريه وضعها الى نفسها وتغيب حساساتها
بالتبعية . بل يكفى أن نجعلها تحس تبعيتها مجرد الاحساس بوقوفها
نفسها عليها .

ان المكر أو الحيلة موهبة طبيعية من مواهب الجنس ولا سيما جنس المرأة . وانى مؤمن بأن جميع الميول الطبيعية طيبة ومستقيمة بذاتها . ولذا أرى أن تنمى موهبة الدهاء الطبيعية كما تنمى سائر المواهب الأخرى . وكل ما علينا هو الحذر من سوء استخدامها .

وأستشهد على صحة هذا رأى كل من له فطنة . ولا أقصد امتحان النساء أنفسهن فى تلك الملكة . بل أقصد امتحان الفتيات الصغيرات المواتى لهم تشحذ قريحتهن تجربة الأيام . ولنقارن دهاءهن بدهاء أندادهن من الغلمان . وسرى كيف يبدو الغلمان أغبياء ثقيل الفهم غلاظ الحس ، وسأورد مثلاً واحداً غاية فى السذاجة يكفى للدلالة على الفارق .

من المعروف والشائع جداً أن يحرم على الأطفال طلب شيء وهم على مائدة الطعام . فلو فرض أننا طبقنا ذلك على غلام صغير . لضاق ذرعاً وصرخ قائلاً انه جائع ولا بد له من الألوان التى حرمت عليه . وهذا تصرف مستقيم لا دهاء فيه .

أما اذا أصدرنا ذلك التحريم الى فتاة صغيرة . فانها تتحايل على خرق القاعدة من غير أن تعرض نفسها للعقاب . وهاكم ما حدث أمامى . فقد رأيتها تأكل من الألوان التى قدمت إليها . أما اللون الذى لم يقدم إليها وكان أفخر الألوان وأشهاها الى نفسها . فقد جعلت تنظر اليه بحسرة ولا تتكلم . ثم اذا بها تمد أصبعها الصغيرة برشاقة محبة وتشير الى الأطباق واحداً تلو الآخر ، وهى تستعرضها قائلة :

— أكلت من هذا . وأكلت من هذا .

ثم تصنعت بصورة واضحة أن تمر بأصبعها ببطء على الطبق المحرم من غير أن تقول شيئاً . فسألها احدهم :

— ومن هذا ألم تأكلى ؟ .

١- ضرورة المرأة في المنف

فغضت جفنيها بدلال وتنهدت قائلة :

— أوه . كلا للأسف .

وهذا منتهى الدهاء في الوصول الى التذكير والطلب من غير استخدام صيغة الطلب .

وهذه المهارة الخاصة المتاحة لجنس المرأة انما هي تعويض عادل جدا عن القوة التي حرمت منها . وبدون هذه المهارة ما كانت المرأة لتصلح شريكة للرجل . بل كانت تغدو أمته . فان المرأة بهذا التفوق في موهبة الدهاء تتمكن من حفظ مركزها ندا له ، بل وتحكمه من حيث طيعه . ان المرأة في وضع جائر . فهي في مواجهة أشياء كثيرة تناهضها . منها عيوبنا وخجلها وضعفها . وليس لها من سلاح ازاء ذلك الا حيلتها وجمالها . أليس من العدل أذن أن تتعهد بالنمو هذين الأمرين معا . ؟ الا أن الجمال ليس حظا مشاعا بين النساء . وقد يذهب بسبب عارض ، أو يذوى بفعل السنين ، أو تقضى على جدته وتأثيره العادة المألوفة . أما القريحة وحدها فهي السند الحقيقي لجنس المرأة . ولست أعنى بالقريحة الوقادة تلك الأساليب التي شاعت في الأوساط الراقية والتي لاتعين على تحصيل السعادة في الحياة . بل أعنى سعة الحيلة التي تساعد المرأة على تحسين ظروفها وتحسين ظروفنا وسلوكنا في الوقت نفسه . بحسن التوجيه واستثارة المزايا .

وليس هناك مدى لجدوى هذا الدهاء النسوى علينا . فان المرأة تضي سحرا بهذا الدهاء اللطيف على حياتنا وصلتنا بها . كما تستخدمه في روح نزق الأطفال وكبح جماح الأزواج ذوى الفظاظاة . ولولا حسن حيلتها وكياستها لتبدد شمل الأسرة .

ولست امارى في أن النساء المتكلفات الخبيثات يستن استخدام الدهاء . ولكن أى شيء تعف الرذيلة عن مسخه واساءة استغلاله ؟ فلا

ينبغي اذن أن نقضى على أدوات السعادة وندمرها خشية أن يستخدمها
الخبثاء والأشرار أحيانا في الاساءة والاضرار .

وأما الزينة فانها قد تلفت الأنظار وتبهرها . بيد أن الشخصية هي
التي تظفر بالاعجاب . ومن الأسف أن تربية الفتيات الصغيرات في هذا
الصدد تتردى في خطئ مبین . فكثيرا ما نغرى الصغيرات على الطاعة
بأن نعدهن بالحلى . ونحملهن على حب أفانين الزينة المغالى فيها . فنقول
للفتاة حين تفرط في التزين :

— ألا ما أجملها وأحلاها ! .

مع أننا كان ينبغي على العكس أن نفهمها أن كل هذا التزين لا يمكن
أن تشده المرأة الا لستر عيوب فيها . اما الجمال الحقيقى فيزدهى بذاته
وحدها .

ان حب الموضة من فساد الذوق . لأن الوجوه لا تتغير بتغير
الموضات . وما يلائم الوجه مرة ينبغي أن يلائمه على الدوام .

انى عندما أرى فتاة تميز في زينة متبرجة يساورنى القلق على
قوامها الذى أخفته ذلك الاخفاء التنكرى . وأقول :

— لو أنها كانت جميلة لما ركبت كل هذه المشقة . فلا بد أنها عاطلة
من الجمال بحيث لا تستطيع الاستغناء عن كل هذه التمويلات .

ومتى سمعتنى الفتاة أقول ذلك عنها ستكون هى الساعية كى
تخلع عنها تلك الزينة المتبرجة ، كى نحكم على جمالها الحقيقى الذى
تعز به كل فتاة . ومتى فعلت ذلك فانى سأصفق لها اعجابا ، ان كان
جمالها يستأهل التصفيق . ولكنى لن أطريها الا اذا كانت فى زينة
بسيطة للغاية .

وعندما تنظر الفتاة الى التزين باعتباره عاملا مساعدا على الرشاقة

الطبيعية والجمال الفطري ، سترى أن التبرج هو اعتراف ضمنى واضح
بحاجتها الى أدوات صناعية للظفر باعجاب الناس . وعندئذ لن تكون
فخورة بزيتها وحليها . بل ستجد فيها موجبا للخجل . وحينما تتبرج
فوق العادة وتسمع من يمدح جمالها سيحمر وجهها خزيا .

وعلى كل حال . لئن كانت هناك سحن تحتاج الى التزين ، فليست
هناك سحنة اطلاقا يلزم لها البذخ في التزين . فتلك هي آفة المظاهر
الكاذبة والعرف الأبله الذى يكبد الناس نفقات مدمرة .

ان المرأة ذات الذوق الأصيل تعرف كيف تختار زينة جيدة تناسبها
وتثبت عليها . أما من لا ذوق لها فلا تعرف ماذا تختار لنفسها ، فلا تثبت
عند زى أو زينة . وتختار كل يوم جديدا .

ان الفتيات الصغيرات والآنسات الحديشات السن لا تلزم لهن
زينة باهرة . فان العمل والدروس تشغل أوقاتهن . ومع ذلك يبدو
عليهن فى الغالب أنهن أحسن ذوقا فى مظهرهن . لاقتصادهن فى أصباغ
الوجه .

ان المرأة التى تمضى فى تزيين وجهها ست ساعات كل يوم لا يمكن
أن تبدو أجمل من أختها التى لا تنفق فى زيتها الا نصف ساعة . وأظن
أن النساء يتفقن هذا الوقت الطويل فى زينتتهن يوميا بدافع الملل
لا بدافع الغرور . فالتشاغل بتجميل أنفسهن أفضل عندهن ولو كان عبثا
من سأم الفراغ . ويجب ألا ننسى ما تستلزمه الزينة المفرطة من
جلسات مسلية فى الحوانيت لانتقاء المساحيق والياب والعطور والثرثرة
مع التجار والحائكات . فهذا كله يساعد على تزجية الفراغ تهربا من
الملل .

ان العلاج الشافى أن نربى المرأة تربية نسوية صالحة بحيث نطبعها

على حب مهام جنسها . والاشراف على بيتها والتسلى بأعمال التدبير
وفنون البيت والأسرة . وعندئذ سوف تنهار عادة التبرج الذميمة ،
وتغدو المرأة أبهى منظرا وأقل بدخا وأرقى ذوقا .

وأول ما تلاحظه الفتاة حين تشب عن الطوق ، هو أن الجمال ليس
من المستطاع اكتسابه على حسب المشيئة . وقد لا تسمح الظروف
بالتفنن في التبرج وهن بعد آنسات صغيرات السن . فليس أمامهن الا
التميز بحركات خاصة . كرنه معينة في الصوت ، أو خطرة معينة في
المشيئة ، لا يبرز ما وهب الله الفتاة منهن من محاسن أو مفاتن . وكل فتاة
لها فنها الخاص في استلقات الأنظار اليها واكتساب طابع شخصي
خاص بها .

وأنا أعلم أن أهل التشدد من المربين يريدون منا ألا نعلم الفتيات
غناء أو رقصا أو أى فن من الفنون الجميلة التى تساعد على الفتنة . وانى
لأعجب لمن نعلم هذه الفنون ان لم نعلمها للفتيات ؟ أنعلمها للفتيان
اذن ؟ وأى الجنسين أخرى باكتساب هذه المواهب وتمييزها ؟ .

لعلمهم يرون الا نعلم تلك الفنون لاحد اطلاقا . فالأغاني غير الدينية
في نظرهم جريمة . أما الرقص فبدعة من الشيطان . ولا ينبغى في رأيهم
أن يكون للفتاة ما يلهمها أو يسليها اللهم الا العمل والصلاة ! .
ويا لها من حياة بهيجة لبنت العاشرة ! .

وكم أخشى أن الصغيرة التى نرغمها على قضاء حدائتها في الابتهاال
الى الله ، سوف تقضى شبابها فى عكس ذلك تماما ، وتعوض بالاباحية
بعد الزواج ما فاتها بالتزمت قبله .

انى أنادى أن نراعى اعتبار السن واعتبار الجنس معا .

فلا يصح أن تحمل فتاة صغيرة على نمط جدتها في المعيشة بل يجب

أن تستمتع بحياتها ، وتغنى وترقص ما شاء لها الهواء . وتتذوق لذات عمرها البريئة . فعن قريب سوف تفرض عليها الأيام سمت الجد .

ويتساءل الناس هل نعهد بالفتيات الى معلمين أو معلمات ولست أدري بماذا أجيب . فكم كان بودى لو استغنت الفتاة فى تربيتها عن معلم ومعلمة على السواء . وأن تتعلم بحريتها التامة كل ما تهفو نفسها الى تعلمه . ولا سيما الفنون . فان الاستعداد الفطرى يسهل على الفتاة التعلم بغير عناء من الأب والأم والأخ والأخت والصدقات والوصيفات . بل ان المرأة قد تكون معلما كافيا للفتاة فيما تميل اليه من أنواع الفنون . وعلى كل حال يجب ألا تفرض الدروس والمعلمين على الفتيات . بل ندع الفتاة تطلب تلك الدروس عند شعورها باحتياجها اليها . ويجب أكثر من ذلك ألا ندفع الفتاة فى طريق التعلم دفعا . بل نتركها لميلها الفطرى .

وأما ان تقرر الدرس ، فليس بذى أهمية عندى أن يكون المعلم رجلا أو امرأة .

ان الذوق يتكون بالموهبة وبالاجتهاد . وبالذوق يفتح الذهن لا شعوريا لمعانى الجمال بكافة أنواعه . ثم للمعانى الأخلاقية التى ترتبط به .

ولعل هذا فى جملة الأسباب التى تجعل احساسات اللياقة والشرف تتأصل لدى الفتيات فى سن مبكرة عن تأصلها لدى الفتيان . وليس صحيحا أن تلك الاحساسات المبكرة من صنع الوصيفات والحاضنات . فان هذه الفئة دون ذلك بكثير .

وموهبة الكلام تحتل المكان الأول بين فنون الاعجاب . وبالكلام

وحده يمكن اضافة سحر جديد الى السحر المقرون عادة لدى الحواس .
فان تتابع الاحساسات والأفكار فى الذهن يبعث الحيوية فى السحنة عند
التعبير عنها . ولهذا فيما أعتقد تميل الفتيات الصغيرات الى اتخاذ طريقة
خاصة فى الكلام يلذ للرجال الاصغاء اليها .

والفتيات أسرع الى تعلم الكلام من الفتيان وأشد منهم طلاقة . بل
ان الفتيات قد يتهمن بالثرثرة . وهذا طبيعى وأقرب الى المزية منه
الى النقص . فلملم والعينين وظيفه واحدة عند الفتاة . ولئن كان الرجل
يقول ما يعرفه . فان المرأة تقول ما يثير الإعجاب . فالرجل بحاجة الى
المعرفة كى يتكلم . اما المرأة فيحاجة الى الذوق كى تتكلم . أى أن الرجل
يتكلم فيما يراه نافعا ، أما المرأة فتتحرى ما يطيب للناس سماعه .

ولهذا السبب لا ينبغى أن تقوم لفظ الفتيات وطريقة كلامهن كما
تقوم الفتيان . فالفتاة تتوخى التأثير بكلامها ولا تتوخى الاقتناع . والمهم
ان نعود الفتاة منذ نعومة أظفارها ألا تقول الا ما هو لطيف جميل يروق
لسامعيها . بحيث تشب على هذه العادة . ولكن فى حدود ألا تقترف
الكذب ارضاء لسامعيها . وهذا هو وجه الصعوبة الوحيد فى موهبة
الارضاء بالكلام .

وقد تكون هناك صعوبات أخرى . ولكنها تلحق بسن تالية لسن
الطفولة . أما فى الطفولة فيكفى أن تكون الفتاة صادقة فى غير خشونة
أو غلظة . وبطبيعة الحال تنفر الفتيات من الخشونة . ولهذا من اليسير
جدا تربيتهن على تجنبها .

وألأحظ على العموم أن آداب الرجال أقرب الى الرسميات . أما آداب
النساء فأقرب الى الرهافة واللفظ . وهذا الاختلاف ليس نتيجة العرف
بل هو وليد الطبيعة . فالرجل حين يجاملك ينشد أن يقدم لك خدمة .
أما المرأة حين تجاملك فتتشدد أن تسرك .

ويترتب على هذا أنه مهما كان من أمر طبائع النساء فإن تهذيبهن أقل غشا من تهذيبنا . لأن تهذيب المرأة ليس الا بسطا لغريزتها الأولى . أما حين يزعم رجل أنه يفضل مصلحتي على مصلحته الخاصة ، فمهما موه تلك الأكذوبة ، سأدرك على كل حال أنه يكذب فيما يزعمه .

ان الدرس الأول في تهذيب الفتاة يأتيها من الطبيعة . أما الاكتساب فلا يأتي الا بسندا للطبيعة وتوجيها لنبوغها الأصلي في مجارى عرفنا وعاداتنا الاجتماعية .

أما حين تخلو النساء الى أنفسهن ، ترتد المجاملات فائرة ، محفوفة بالتكراه . ولا يكدن يخفين ضيق بعضهن ببعض . بيد أن الفتيات الصغيرات قد تنعقد بينهن صداقات أشد صراحة واخلاصا . ويربط بينهن اللهو البريء والمرح الصادق .

* * *

ولئن كان التطفل في السؤال محرما على الصبيان . فهو من باب أولى محرم على الفتيات . ولا سيما أن الفتاة أشد فطنة الى مواطن الأسرار التي نخفيها عنها . ولكن يجب في الوقت نفسه أن نطلق للفتيات العنان لاتقان فن الحديث . وبحيث يتعلمن رغم الطلاقة في الكلام تجنب المواطن الشائكة والأسئلة الحرجة . وهذا هو سر الرشاقة واللباقة في الحديث .

ولئن كان الأطفال الذكور بعيدين عن تكوين فكرة صائبة سليمة عن الدين ، فمن باب أولى تكون هذه الفكرة فوق مستوى عقول الفتيات . ولهذا أوصى بمفاتحة الفتاة في الدين قبل الفتى . لأننا لو انتظرنا الى أن تنهض عقليتها لادراك هذه الأمور السامية ، فربما انتظرنا الى الأبد ولم نتح لنا فرصة مفاتها في موضوع الدين .

ان عقلية النساء عقلية عملية ، تتيح لهن الوصول الى هدفهن المحدد ببراعة . ولكن هذه العقلية تعجز عن تجديد ذلك الهدف لنفسها .

ومن حسن الطالع أن العلاقة الاجتماعية بين الجنسين تكمل هذا
النقص . فيخرج لنا من المجتمع شخص اخلاقي ، المرأة منه بمثابة العين
والرجل منه بمثابة الذراع . وكل منهما مرتبط بالآخر . بحيث تتعلم
المرأة من الرجل ماذا ينبغي أن تراه . وبحيث يتعلم الرجل من المرأة ماذا
ينبغي أن يفعل .

ولو أن المرأة استطاعت أن تصعد كالرجل الى المبادئ في يسر ،
ولو أن الرجل استطاع أيضا أن يصل كالمرأة الى التفاصيل ، لما عاش الاثنان
في توافق تام ، ولما استطاعت شركتهما أن تصمد على الزمن . أما وهذا
التوافق التكاملي سائد ، فكل منهما يكمل نقص الآخر ، ويحتاج الى
الآخر .

ان سلوك المرأة خاضع للرأى العام . وعقيدتها خاضعة للسلطة . ولهذا
يجب أن تعتق كل فتاة ديانة أمها . وأن تعتق كل زوجة ديانة زوجها .
ان المرأة يجب أن تتلقى حكم أبيها وزوجها كما تتلقى أوامر الكنيسة .
ان النساء لا يستطعن من تلقاء أنفسهن استخراج قاعدة الايمان .
ولا يستطعن وضع الحدود العقلية لذلك الايمان . بل ينقدن لآلاف
النزعات الغريبة . مما يبعدهن دواما عن الحق .

ان النساء بحكم تطرفهن العاطفى اما أن تكون الواحدة منهن
مستهترة أو تقية . ولا تعرف كيف تجمع بين الحكمة والتقوى .

وأساس البلاء ليس فى طبع جنسهن الجامح فحسب ، بل أيضا فى
سلطتنا المتهورة .

وما دامت السلطة يجب أن تنظم ديانة النساء . فليس المهم أن
نفسر لهن الأسباب الداعية للاعتقاد ، بل أهم من هذا أن نبسط لهن
بوضوح ماذا ينبغي أن يعتقدن . لأن الايمان بافكار غامضة هو السبب
الأول للتعصب . وأما الايمان باشياء سخيفة غير معقولة فيقود الى

الجنون أو السذاجة . ولست أدري ألى الزندقة تقود تعاليمنا الدينية أم الى التعصب . ولكنى واثق أنها تقود حتما الى هذا أو تلك ! .

فلكى نعلم الدين للفتيات الصغيرات يجب ألا نجعل الديانة موضوعا للضيق أو الكآبة ، أو واجبا ثقيلا مفروضا . ولهذا لا تعلموهن اطلاقا شيئا عن ظهر قلب ، حتى ولا الصلوات . ويكفى أن تؤدوا صلواتكم أمامهن بانتظام من غير أن تجبروهن على الاشتراك فيها . ولتكن تلك الصلوات قصيرة كما أوصانا بذلك السيد المسيح . ويكفى أن تكون محفوفة بالوقار من غير تصنع . فهذا كل ما يطالبنا به المولى . أما الألفاظ فليست من الأهمية كما نتوهم .

يجب أن تحب الفتاة ديانتها حين تعرفها . لا أن تعرفها معرفة جافة تنفرها من الدين والتقوى . ولهذا من الاجرام تخويف الفتيات الصغيرات من المولى ، وتصويره لهن غاضبا عليهن ، أو استغلال اسمه ووصاياه لمطالبتهن بالقيام بواجبات شاقة يرين بأنفسهن أنكم لا تقومون بها بأنفسكم .

لا شك أن الفتيات سيتهمن المولى بالمحابة . ويتلهفن على يوم يكبرن فيه لكى يصابن الى سن المعافاة مثلكم من تلك الأوامر الثقيلة على النفس .

القدوة ! القدوة . بغير القدوة لن تفلحوا فى تعليم الصغار أى شىء ، حتى ولا الدين ! .

وحيثما تشرحون للفتيات قوانين الايمان . ليكن التعليم مباشرا ، لا بصفة السؤال والجواب . اذ ينبغى ألا تجيب الفتاة الا بما تراه بعقلها . ونحن نريدها أن تعرف الدين كما هو . كما يترأى لها . ولهذا تكون طريقة التعليم الدينى بالسؤال والجواب طريقة ضالة مفسدة للعقل والدين معا .

وسأسوق هنا نموذجا من تلك الأسئلة والأجوبة التي أجدها في كتب التعليم الديني الكاثوليكي . كى نرى مقدار مجافاتها لما ينبغى في تعليم الفتيات الدين .

* * *

ان أول سؤال وجدته في تلك الكتب هو :
— من الذى خلقك وأودعك هذا العالم ؟ .

وبديهي أن الفتاة تعتقد تماما أن أمها هى التى خلقتها وأتت بها الى الدنيا . ومع ذلك فعليها أن تجيب بغير تردد ان خالقها والآتى بها الى الدنيا هو الله . وكل ما تستفيده من السؤال والجواب . أنها أجابت عن سؤال لا تدرك معناه باجابة لا تدرك معناها اطلاقا .

وكم أود لو أن رجلا خبيرا بعقلية الأطفال وضع لهم كتابا في التعليم الديني خاصا بهم . ولو فعل لكان ذلك الكتاب على الأرجح أنفع ما كتبه المؤلفون في نظري ، ومما يشرف به مؤلفه ولا شك شرفا كبيرا . وانى واثق أن ذلك الكتاب ان جاء كما ينبغى فلن يشبه فى شيء كتب التعليم الدينى التى بين أيدينا الآن .

ان كتابا في التعليم الدينى لا يمكن أن يكون صالحا وافيا بغرضه الا اذا تولى الطفل الاجابة على السؤال بوحى من عقله لا بوحى من حفظه وذاكرته . ولا جدال فى أن الطفل قد يتولى السؤال فى بعض الأحيان . ولتوضيح غرضي سأقدم نموذجا صغيرا . وسأحاول على الأقل أن أعطي فكرة يسيرة عن المطلوب .

سأتخيل أن كتاب التعليم الدينى ينبغى أن يبدأ على النحو التالى لكى نصل الى المسألة الأولى من مسائله .

الوصيفة

أتذكرين الوقت الذى كانت فيه والدتك فتاة ؟ .

البنـت

كلا لا أذكر ذلك يا وصيفتى .

الوصيفة

ولم لا ؟ مع أن لك ذاكرة قوية .

البنـت

لم أكن أتيت الى الدنيا بغد .

الوصيفة

أنت اذن لم تكونى على قيد الحياة دائما فى الماضى ؟ .

البنـت

كلا .

الوصيفة

وهل ستعيشين دائما فى المستقبل ؟ .

البنـت

نعم .

الوصيفة

هل أنت صغيرة السن أو عجوز ؟ .

البنـت

أنا صغيرة .

الوصيفة

وجدتـك . أشابة هى أم عجوز ؟ .

البنـت

جدتى عجوز .

الوصيفة

هل كانت شابة فى يوم من الأيام ؟ .

الـبنت

نعم .

الوصيفة

لماذا لم تعد شابة ؟ .

الـبنت

لأنها تقدمت فى السن .

الوصيفة

هل ستقدمين مثلها فى السن ؟ .

الـبنت

لا أدرى .

الوصيفة

أين ملابسك فى العام الماضى ؟ .

الـبنت

تصدقنا بها .

الوصيفة

لماذا ؟ .

الـبنت

لأنها صارت صغيرة جدا .

الوصيفة

ولماذا صغرت عليك ؟ .

الـبنت

لأننى كبرت .

الوصيفة

وهل ستكبرين أكثر وأكثر ؟ .

الـبـنـت

أوه . طبعاً ! .

الوصيفة

وماذا تصبح الفتيات الكبيرات ؟ .

الـبـنـت

يصبحن نساء .

الوصيفة

وماذا تصبح النساء ؟ .

الـبـنـت

يصبحن أمهات .

الوصيفة

وماذا تصبح الأمهات ؟ .

الـبـنـت

يصبحن عجائز .

الوصيفة

وهل ستصبحين أنت اذن عجوزاً ؟ .

الـبـنـت

عندما أصبح أما .

الوصيفة

ماذا تصبح العجائز ؟ .

الـبـنـت

لا أدري .

الوصيفة

وماذا أصبح جـدك ؟ .

الـبنت

توفى .

الوصيفة

ولماذا توفى ؟ .

الـبنت

لأنه كان عجوزا .

الوصيفة

وماذا يصبح العجائز اذن ؟ !

الـبنت

يموتون .

الوصيفة

وأنت عندما تصبحين عجوزا ماذا ...

الـبنت (مقاطعة)

من فضلك لا أريد أن أموت .

الوصيفة

يا طفلى . لا أحد يريد أن يموت وكلهم مع ذلك يموتون ! .

الـبنت

كيف ؟ وهل ستموت والدتى أيضا ؟ .

الوصيفة

مثل جميع الناس . فالنساء يشخن كالرجال . والشيخوخة تؤدي الى الموت .

الـبنت

وماذا ينبغى أن أعمل حتى تتأخر شيخوختى جدا ؟ .

الوصيفة

توخى الحكمة فى مدة شبابك .

الـبنت

سأكون عاقلة حكيمة دائما .

الوصيفة

هذا أفضل لك . ولكن هل تظنين أنك ستعيشين أبدا ؟ .

الـبنت

عندما أصير عجوزا . عجوزا جدا ...

الوصيفة

ثم ماذا ؟ .

الـبنت

عندئذ .. أنت تقولين ان العجائز جدا لا بد أن يمتن .

الوصيفة

ومن الذى كان يعيش قبلك ؟ .

الـبنت

أبى وأمى .

الوصيفة

ومن كان يعيش قبلهما . ؟

الـبنت

أبواهما وأماهما .

الوصيفة

ومن سيعيش من بعدك ؟ .

الـبنت

أولادى .

الوصيفة

ومن سيعيش من بعدهم ؟

الـبنت

أولادهم .

وعلى هذا المنوال ستصل الفتاة الى مبدأ حتمى للجنس البشرى
ولجميع الأشياء . ولا بد من سلسلة طويلة جدا من الأسئلة المماثلة لاعداد
ذهن الطفلة للمسألة الأولى من مسائل التعليم الدينى ألا وهى مسألة
الخلق . وعندئذ يمكن توضيح هذا السر . وعندئذ فقط تستطيع الطفلة
أن تدرك الموضوع .

ويجب تحاشي الموضوعات المذهبية الجافة والخفية التى لا تعنى الا
الفاظا بغير مفهومات . ولنوجه العناية الكبرى للتعليم الدينى للبت الى
المبادئ الدينية المتصلة بالأخلاق عن قرب . فليس أنفع للأطفال من
الجنسين وللقتيات على الخصوص من تعلم المبادئ التى تجعلهم
يحسنون السلوك ويفعلون الخير .

لا تجعلوا من بناتكم فقيهاً فى العلوم الالهية أو مجادلات جدلات .
فلا تعلموهن من أمور السماء الا ما يفيد فى الحكمة البشرية . والفضيلة
الدينية . علموهن وعودوهن الشعور دائماً بأنهن تحت أنظار الله ، فهو
شاهد دائم على أعمالهن وأفكارهن وفضيلتهن وملذاتهن . وعودوهن أن
يصنعن الخير لأن الله يحب الخير . وأن يتحملن الألم بغير تملل ، لأنه
سبحانه سيعوضهن عن ذلك الألم ويجزيهن خيراً .. وان يكن فى كل
يوم من أيام حياتهن على النحو الذى يحب أن يظهرن به أمام مجده يوم
الدين .

هذه هى الديانة الحقّة التى لا يدركها الفساد بسوء التأويل أو
الزندقة أو التعصب . فبشروا بهذه الديانة التى لا أعرف لى ديانة
سواها .

ومن المستحسن أن يراعى حتى يصل الى السن التى يتفتح فيها
الذهن ويوقظ فيها الوجدان الضير ، يكون الخير والشر لدى الصغار
هما ما يعتبره الكبار من حولهم خيراً أو شراً . فما يوصونهم به هو
الخير ، وما يذودونهم عنه هو الشر . ولا ينبغى أن يعرفوا عن الخير
والشر أكثر من هذا القدر .

ومن هنا يتضح ما للمخالطين من الكبار من أهمية كبرى . فيجب
تخير من لهم سلطان على الطفل تخيرا دقيقا حسنا . الى أن يصل الى
ادراك الأمور والحكم عليها بنفسه . فعندئذ يجب تغيير خطة تربيته .

ولكن ألا نبخس المرأة قدرها حينما نجعل قانونها الأوحد العرف
العام ؟ أليس في هذا تنقص من قيمة ذلك الجنس الذى يحكمنا
ويسوسنا ؟ .

ان لدى النوع البشرى بأسره قانونا سابقا على العرف . ويجب أن
تخضع جميع القواعد لهذا القانون الأساسى الذى منه تتفرع كلها .
والذى له السيادة على العرف نفسه . وما لم يتفق رأى الرجال مع ذلك
القانون ، لا يكون لهذا رأى أى قيمة أو سلطان علينا وعلى المرأة .

هذا القانون الأعلى هو الاحساس الداخلى ، وما لم يسيطر على
تربية المرأة هذا القانون الى جانب احترام العرف العام وآراء الرجال
خاصة ، تكون تلك التربية شوهاء .

ان الاحساس الداخلى اذا نما لدى المرأة من غير مراعاة للعرف ،
سبت المرأة خالية من رقة الروح التى تزدان بها الأخلاق الفاضلة فى
المجتمع . أما سيطرة العرف من غير احساس داخلى لدى المرأة فتجعل
منها امرأة فاسدة غير فاضلة . مناققة تستعيز عن الفضيلة الحقيقية
بالمظهر الموه .

وينبغى للمرأة أن تكون لديها حاسة خاصة توفق بين القانونين :
قانون الاحساس الداخلى وقانون العرف العام ، فلا يضل ضميرها .
وتقوم من اخطاء العرف التى يقع فيها أحيانا . وهذه الحاسة الخاصة
هى العقل . وما أكثر المشكلات التى تثور حول عقل المرأة . أهى
قادرة على التفكير المنطقى والمناقشة العقلية ؟ وهل يجب تثقيفها عقليا ؟
وهل تفسد الثقافة العقلية ما ينبغى للمرأة من البساطة ؟ .

ان التطرف فى الرد على هذه الأسئلة يجعل البعض يقصرون أعمال المرأة على الحياكة والغزل فى بيتها مع الخاديات . فهى رئيسة خدام أو الخادمة الأولى لسيدها ومولاهما الزوج .

أما البعض الآخر فيهيل على المرأة حقوقها وحقوق الرجال معا ، فإذا بالمرأة فى نظر هؤلاء حائزة لحقوقها وحقوق الرجل معا ، وبذلك تستولى على الأفضلية التى منحتها الطبيعة نفسها للزوج .

ان العقل الذى يقود الرجل الى معرفة واجباته ليس شديد التعقيد . والعقل الذى يقود المرأة الى معرفة واجباتها أكثر بساطة . فالطاعة والوفاء للذات تدين بهما لزوجها . والحنان والعناية للذات تدين بهما لأولادها انما هى نتائج طبيعية جدا ومعقولة جدا لحالتها التى لا تستطيع المرأة أن تنكرها أمام احساسها الداخلى الذى يسوسها .

ولا أعارض بغير تحفظ قصر المرأة على أعمال جنسها وحدها . وأن تظل فى جهل عميق بكل ما عدا ذلك من الأمور ولكن يجب فى هذه الحالة أن تكون الأخلاق العامة ساذجة جدا وسليمة جدا . أو تكون طريقة المعيشة متخلفة جدا . أما فى المدن الكبرى وبين من فسدت أخلاقهم من الناس . فتلك المرأة الجاهلة جدا سيكون من اليسير غوايتها جدا . ان معرفة أحوال الدنيا أحفظ للمرأة من شرور الرجال والاعيب الغواية . يجب أن تعرف المرأة سلفا ماذا يمكن أن يقال لها . وماذا يجب أن تراه وتظن فى ذلك الذى يقال حتى لا تخدع بمعسول الأقوال . ومع أن المرأة خاضعة لأحكام الرجال ، الا أنها ينبغى أن تكون جديرة بتقديرهم . وينبغى على الخصوص أن تكون جديرة بتقدير زوجها . لا ينبغى أن تجعله يحب شخصها فحسب ، بل أن تجعله أيضا يقر سلوكها ويرضاه . وينبغى أن تبرر أمام الجمهور اختياره لها ، فيرتد على الزوج ذلك التكريم والتشريف الذى يضافى على الزوجة .

وكيف يمكن أن تنهض المرأة بكل هذا ان كانت جاهلة بالنظم والتقاليد والعرف والأحوال الجارية ؟ ان كانت جاهلة بالمبادئ التي تقوم عليها آراء البشر وأحكامهم والعواطف التي تسيطر على تلك الآراء والأحكام ؟ .

ان المرأة من حيث انها خاضعة في آن واحد لضميرها الشخصي ولآراء سواها ، يجب أن تتعلم كيف تقارن بين هذين القانونين ، وكيف توافق بينهما ، ولا تغلب قانون الضمير على قانون العرف الا حينما يتعارضان تعارضا لا حيلة فيه .

ان المرأة بذلك تغدو قاضية لقضاتها ، لأنها هي التي تقرر متى ينبغي أن تخضع لهم ، ومتى ينبغي أن ترد سلطاتهم وتند عنه .

انها قبل أن ترفض العرف أو تقبله ، يجب أن تزن الموضوع . وتراجعه عسى أن تجد لها مخرجا من العصيان ومندوحة من المخالفة الصريحة التي تجلب ملام الناس . وأنى للمرأة أن تستطيع ذلك من غير ثقافة الروح وثقافة العقل ! .

وليس معنى تعليمها مبادئ الأخلاق أن يكون ذلك بطريق آراء مجردة وصيغ علمية . فالحقائق المجردة ليست مما يوافق طبيعة المرأة . بل ينبغي أن تكون جميع دراسات الفتاة متصلة بالعمل مباشرة .

ان مجال المرأة أن تطبق المبادئ التي يكتشفها الرجال . كما أن مجالها أيضا تجميع المشاهدات والفتنسة الى الملاحظات التي تسوق الرجال الى اقامة تلك المبادئ . وجميع أفكار النساء فيما لا يتصل مباشرة بواجباتهن يجب أن تتجه الى دراسة الرجال والمعلومات الهينة الخاصة بفنون التجب والامتناع . فهن ميسرات بطبعهن وذوقهن لذلك فحسب . أما اعمال العبقرية فانها تتجاوز ذرعهن . فليس لهن من الدقة

والعمق ما يكفل لهن النجاح فى العلوم المضبوطة . فالمرأة بضعفها لاتهتم
الا بما يكسبها قوة . وما يكسبها قوة هو عواطف الرجال . فذلك
ميدانها .

ان كل ما لاتستطيع المرأة أن تصنعه بنفسها بسبب ضعف تكوينها ،
ويكون ضروريا لها أو جالبا لسرورها ، يجب أن تكون لديها الحيلة فى
دفعنا للميل اليه كى تؤديه لها بما لدينا من حول وقوة . ولهذا يجب
أن تدرس المرأة نفسية الرجل . لا دراسة علمية مجردة . ولا دراسة
تشمل الرجال على اطلاقهم ، بل الرجال المحيطين بها ، أولئك الذين
تخضع لهم وترتبط بهم اما بحكم القانون واما بحكم العرف . ويجب
أن تتعلم كيف تستشف نفسياتهم من أقوالهم وأعمالهم ونظراتهم
واشاراتهم وحركاتهم .

يجب أن تكون تلك الأقوال والأفعال والنظرات والحركات كافية
لها لكى تعرف بواطنهم . ويجب أن تكون قادرة بأقوالها هى وأفعالها
ونظراتها وحركاتها على تحريكهم لفعل ما تريده منهم من غير أن يفتنوا
الى ذلك .

ان المرأة أشد من الرجل فطنة ، والرجل أعظم منها عبقرية . ان
المرأة تلاحظ أما الرجل فيفكر . ومن تكامل العنصرين تحصل البشرية
على أكمل علم يستطيع الذهن الانسانى أن يصل اليه .

ان الدنيا هى كتاب المرأة . ومن أساءت المطالعة فيه فهذا ذنبها ،
لنقص فيها أو لهوى يعميها . ومع هذا فان الأم بمعنى الكلمة ليست
امراة دنيا (أى سيدة مجتمع) بل هى أشبه بعزلتها فى بيتها أن تكون
راهبة متبتلة فى صومعتها .

ان العادة فى فرنسا أن تعيش الفتيات فى الديور . وأن تنطلق النساء
المتزوجات فى عرض الدنيا وطولها . أما الأقدمون فكان الأمر لديهم على

العكس . بل كانت الفتيات يتمتعن بحفلات عامة مرحلة كثيرة العدد . والنساء يعيشن منظويات في البيوت ، وهذا النظام أقرب للعقل وأحفظ للأخلاق .

أيها الأمهات ، اجعلن بناتكن رقيقات لكن على الأقل في الحفلات والمجتمعات . هذين نفوسهن صغيرات وأسس أخلاقهن على الطهر والصدق والشرف . ثم أطلعوهن على حقيقة متعة الدنيا ، في المراقص والولائم والمسارح . وحتى لا يتهاقن على كل ذلك بعد الزواج تهافت المحروم الذي لا يعرف القصد ولا يقف في اندفاعه عند حد .

ان المرأة كى تحب حياة المنزل الهادئة وهى زوجة يجب أن تكون عرفتھا واستطابت طعمها من قبل وهى طفلة . ففى بيت أبيها تتعلم الزوجة قيمة بيت زوجها . فمن أحبت الحياة فى بيت أبيها وشبت على التعلق بالهدوء والحنان فيه ، ستحرص على كيان بيت زوجها وتجده فيه مناط الحنان والهدوء . وكل فتاة لم تذوق السعادة فى حجر أمها ورحاب بيت أبيها هيهات أن تسعد أطفالها .

كلما كانت المهمة شاقة وجب أن تكون الحجة الدافعة الى القيام بها قوية معقولة . وهناك لغة يستعملها المتزمتون فى مخاطبة الفتيات فى شئون الحياة والشباب والنزعات الطبيعية للجنس . وهى لغة طنانة رنانة تملأ آذان الشابات والفتيات من غير أن تصل الى اقناعهن . أجل ان الفتاة التى ربيت على التقوى الحقيقية لا اللفظية تملك أسلحة قوية ضد الغواية . أما الفتاة التى سلحت بتلك الخطب والمواعظ اللفظية فحسب ، فستكون فريسة سهلة لأول مغو بارع يتحرى الايقاع بها . فما من شابة جميلة يمكن أن تقتنع بما تردده تلك المواعظ من أن جسدها الفاتن حقير دنس . ولا يمكن أن تقتنع بأن لذات الهوى التى

أودع الله الاستعداد لها في تكوينها يمكن أن تكون بدعة وشركا من صنع الشيطان ! .

قدموا لهم حججا أقوى من هذه منطقا والا فلا جدوى من الوعظ والارشاد . وان كنتم تريدون اقناعا جديا للفتاة بالطهر والعفة فليكن ذلك بإبراز العفة والطهر وموافقتهما للميول الطبيعية نفسها .

صوروا للفتاة الرجل الفاضل الرائع الذى تحلم أن تحصل عليه زوجا وحييا . ثم بينوا لها أن هذا الرجل لن يقدر الا فتاة طاهرة عفيفة . وان الجمال الجسدى وحده لا يكفى لكسب قلب الرجل واحترامه وان كان كافيا لتحريك شهوته واثارة نزوته . فبذلك وحده تحب الفتاة العفة والوقار فى السلوك . وتحترم نفسها . وتحتقر الرذيلة والاستهتار .

بهذه الروح ينبغى أن تربي صوفى . تربية فيها من العناية أكثر مما فيها من العناء . ومن السعادة أكثر مما فيها من التضيق .

والآن حان أن نذكر شيئا عن شخصها كما صورتها لأميل ، وكما يتخيل هو شخصيا الزوجة التى يمكن أن تسعده .



صوفى

أحب أن أؤكد انى لا أتحدث فى كتابى هذا عن النواىغ ، فلىس امىل نابغة . ولىس صوفى نابغة كذلک . وانما امىل رآل كسواد الرآل . وصوفى امرأة كسائر النساء وهذا حسبهما مفخرة . ففى هذا الموقف الذى اختلطت فیه مميزات الجنس بین اظهرنا . يكاد يكون من عداد النابغىن من يحافظ على خاصة جنسه .

صوفى طيبة المولد ، سليمة الفطرة ، ذات قلب شديد الحساسية . وهذه الحساسية المفرطة تتيج لها أحيانا نشاطا فى المخيلة يصعب كبح جماحه . وذهنها يتميز بالنفاذ الثاقب أكثر مما يتميز بالدقة والعدل . ومزاجها لطيف ولكنه غير متشابه الأطوار وخلقتها عادية شائعة الا أنها لطيفة . فهى ذات سحنة تنبىء عن روح . ولا تعرف الكذب . وقد يتصل بها المرء وهو غير مكترث ، بيد أنه لا يفارقها من غير تأثر .

قد تكون لدى كثيرات غيرها مزايا تنقصها . أو قد تحظى غيرها بنصيب أوفر مما لديها من المزايا . ولكن ما من واحدة منهن تتفق اشتات مزاياها بهذه الصورة التى تدل على طبع موفق سعيد . فهى تعرف كيف تستفيد حتى من عيوبها . فلو كانت أكمل مما هى ، لكانت أقل حظوة لدى الناس .

ولىست صوفى بالجميلة . بيد أن الرآل ينسون فى محضرها جميلات النساء . وجميلات النساء فى محضرها لا يرضىن عن أنفسهن .

انها لا تكاد تبدو جميلة لأول وهلة . ولكن كلما تكرر النظر إليها

ازدادت جمالا . فهي الرابعة حيث تخسر الأخريات . وما تربحه لا تخسره بعد ذلك اطلاقا .

أجل قد يرى المرء عينين أجمل من عينيها وفما أجمل من فمها . ووجهها أروع من وجهها . ولكن من العسير أن تكون لامرأة قامة أجمل من قامتها ، وبشرة أجمل من بشرتها ، ويد أشد بياضا من يدها ، وقدم أدق من قدمها ، ونظرة أرق من نظرتها ، وسحنة أبعد تأثيرا من سحنتها . فهي تؤثر من غير أن تبهر . فتسحر حيث لا يدري المسحور ماذا سحره !.

وصوفي تحب الزينة والأناقة . وهي بهما خيرة . فليس لأمرها وصيفة خاصة سواها . ولها ذوق جم . الا أنها ترفض الملابس الساذجة . فملابسها على الدوام تجتمع فيها البساطة والأناقة . ذلك أنها لا تحب ما يبهر ، بل ما يعجب ويريح . انها تجهل ما هي ألوان موضوعة هذه السنة . ولكنها تعرف على أحسن وجه ما يناسبها من الألوان . فليست هناك شابة أقل منها تكلفا في الملبس ، ولا أكثر اتساقا .

فهي لا تنتقى شيئا حيثما اتفق . ولكن العناية الفائقة التي تنتقى بها كل شيء ، لا تبدو على شيء مما ترتديه .

انها ذات حياء في ملبسها ، وهي متبرجة في الوقت عينه . فلئن كانت لا تبدى مفاتها بمعنى انها لا تكشف عنها بل تغطيها وتسترها ، الا أنها تسترها بصورة تساعد الخيلة على ابداع تصورها . فحينما يراها المرء يقول : هذه فتاة حبية رزان . ولكنه ما لبث بجوارها ، أن جالت نظراته وقلبه في شخصها . لا يستطيع عن ذلك حولا . فكأنما كل هذه الأزياء لم توضع على جسدها الا لكي تنزع قطعة قطعة بعين الخيال ! .

وصوفي ذات مواهب طبيعية ، وهي تشعر بها ولا تهمل أمرها . ولكنها لم تستطع تنميتها كما ينبغي . فاكتفت بتدريب صوتها الجميل على الغناء السليم بذوق حسن ، وتدريب قدميها الدقيقتين على المشي

بخفة ويسر ورشاقة . وعلى الانحناء بأدب فى كافة المواقف من غير تخرج أو اضطراب . ولم يكن استاذها فى الغناء سوى والدها . ولم تكن أستاذتها فى الرقص سوى والدتها ولاعب أرغن من سكان الجوار قام بتلقينها مبادئ العزف . ثم ثابرت هى بعد ذلك على التمرين بنفسها . وشيئا فشيئا نمت حساسيتها لتوافق النغمات . ولما شبت عن الطوق زاد عشقها للموسيقى . بدافع من الذوق لا الموهبة الكبيرة . فهى لا تعرف كيف تقرأ النوتة الموسيقية .

اما ما تحذقه صوفى وكان ذووها حريصين على تعليمها اياه ، فهو الفنون النسوية . حتى ما لا تطالب به بنات طبقتها . مثل قص الثياب وحياتها . وليس هناك فن من فنون الالبسة على اختلافها لا تحذقه صوفى غاية الحذق . ولا تقوم به وهى مسرورة . ولكن المخدرات (الديتيل) هى أحبها الى نفسها .

وهى ذات حذق فى كافة أعمال المنزل . من الطهو الى التدبير ، ولها معرفة بأسعار السلع ومواد الغذاء . ولها قدرة على ضبط الحساب . فهى مدبرة البيت نيابة عن أمها والمشرقة على خدمته . فهى مهياة لأن تكون ربة بيت فى يوم قريب وأم أسرة . فهى اذ تعلمت ادارة بيت أبيها ستعرف كيف تدير بيت زوجها وبيتها . وفى مكتبها أن تحل محل الخدم وتقوم بمهامهم بارتياح .

وعملها فى الوقت الحاضر هو عمل البنت البارة التى تخفف عن كاهل أمها جانبا من أعبائها وتنهض بخدمتها وطاعتها عن طيب نفس . ولكن من الخير والانصاف للحقيقة أن نقول انها لا تقوم بجميع هذه الأعمال بدرجة واحدة من السرور . فمع أنها أكول ، الا أنها لا تحب الطهو . فما فيه من تفاصيل تفرز نفسها بعض الشئ وتعتبره عملا غير نظيف . فهى من حيث ما يمس النظافة شديدة الحساسية . وتطرفها فى هذا يجعلها معيبة الى حد ما . فهى مستعدة لأن تدع الوجبة طعمة للنار ان كان انقاذها يؤدى الى اصابة كمها بشئ من الضرر .

وهى لمثل ذلك السبب لا تقبل على مراقبة البستاني فى اشغال
الفلاحة . فالأرض تبدو لها شيئاً قذراً . ورائحة السماد على الخصوص
تزعجها . وهى تتخيل تلك الرائحة كلما وقع نظرها على السماد عن بعد .
وهذه العيوب المسئولة عنها فى الواقع والدتها اذ هى التى غرست
فى نفسها ذلك الاحساس بالحاجة على أهمية النظافة ووجوب الابتعاد
عن كل ما يوسخ الثياب . وذلك ايماناً من الأم بأنه ما من شيء أشد ايلذاء
للنفس من منظر امرأة قذرة . والزوج الذى يتقزز من امرأة قذرة محق
فى ذلك التقزز . وكان لهذا التشديد أثره فى الفتاة . حتى صارت تفزع
من القذارة أو شبهها فزعا غريزيا . وصار ههما الأول ليس اتقان ما هى
بصدده من العمل ، بل المحافظة على النظافة قبل كل شيء . ولكن ذلك
كله لم يصيبها بالانحلال أو التكلف أو الرخاوة . فليس فى جناحها من
الطيب سوى الماء وعبير الزهور الطبيعية . ولن يشم منها زوجها سوى
طيب أنفاسها العذبة . وليست طهارة جسدها على حساب طهارة نفسها .
فهى تنصف بالنقاء والطهر كما تنصف بالنظافة وطيب العرف .
وقد وصفت صوفى بأنها أكل . وكان هذا صحيحا بحكم فطرتها .
ولكنها ثابت الى الاعتدال بفعل التعود ، حتى صار الاعتدال فى المأكول
احدى فضائلها . فقل بين الفتيات والفتيان من لا تتحكم فيه شهوة
الطعام . وهى شهوة أخطر من أن تترك بغير تكوير أو كبج .
وكانت صوفى فى صغرها تدخل مخزن الطعام ولا تخرج بيدها فارغة .
وتتسلل الى حجرة أمها فتختلس كميات من الحلوى . الى أن ضبطنها
أمها وعاقبتها بالصوم . ثم تمكنت من اقناعها بأن الحلوى تفسد الأسنان .
وأن الاكثار منها يفقد الخصر رفته والقامة رشاقته . فقومت من سلوكها .
وأصبح من عاداتها عندما كبرت أن تصد نفسها عن الطعام فى غير مواعده .
فتغلبت على تلك الشهوة الدنيئة .

والواقع أن الشراهة لا تستولى على الفتيان أو الفتيات الا اذا كان القلب غافيا ، ومتى صحا الفؤاد تراجعت الشراهة عن مركز السيطرة ، لأن البطن لا قبل له بمزاحمة القلب .

وصوفى تأكل مستخرجات الألبان وتحب المسكرات ، ولكنها لا تقبل كثيرا على أكل اللحوم . ولم تذق في حياتها كلها طعم النبيذ أو الخمر . وما تأكل منه تأكل منه باعتدال . والحقيقة أن جنسها أقل حاجة من جنسنا الى تجديد قواه ، لأن جنس النساء أقل اهدارا لقوته منا . وهى فى كل شىء ذات ذوق واعتدال . وتعرف كيف تستغنى عن أى شىء تحت ضغط الظروف من غير أن تجد فى ذلك عناء .

وقريحتها صافية ، وان لم تكن وقادة . وتفكيرها سليم وان لم يكن عميقا . وتجتهد الا تتنابها النزوات . وتغيرات المزاج . الا أنها حساسة بحيث يتعذر عليها الاحتفاظ باعتدال المزاج فى مستوى لا يتغير . ولكن حين يتعكر صفوها لا تعنى بذلك أحدا سواها . حتى انها لا تقطب جبينها . استياء حين تؤلمها كلمة ، غير أن قلبها يدمى تحت تأثير تلك الكلمة . وتبادر بالانزواء كى تذرف دموعها . واذا نادتها أمها أو ناداها أبوها وهى فى نوبة البكاء وقال لها كلمة ترضية واحدة ، لجفت دموعها وأقبلت على اللعب والضحك كأن شيئا لم يحدث .

وهى ليست بريئة كل البراءة من النظرات . فأحيانا تنسى نفسها وتندفع . ولكن اذا تركت لنفسها ثابت الى صوابها وبادرت الى محو آثار خطئها . وتلك فضيلة تحمد لها . واذا عوقبت على خطئها اذعنت ولم تتمرد . وركبها الخزي لا من العقاب بل من الخطأ الذى وقعت فيه .

انها مستعدة لتقيل الأرض بين يدي أقل خادم لتطلب صفحه عن خطأ ارتكبه فى حقه . ولا تجد فى ذلك غضاضة . وقصارى القول انها تتحمل خطأ الناس فى حقها بجلد ، ولا ترد الاساءة بالاساءة . وتبادر لاصلاح

خطئها نحو الغير بكل سماحة . وهذه هى فطرة المرأة الاصلية قبل أن
نفسدها نحن بمظالمنا . فالمرأة خلقت لتخضع للرجل وتتحمل منه اخطاءه
وجوره . ولم يخلق الفتيان لمثل ذلك . لهذا يجب ألا نطبع الفتيان على
مثل ذلك الخلق . فان لديهم احساسا داخليا يجعلهم يتمردون على الجور
ويثورون عليه .

* * *

وصوفى ذات دين . ولكنه دين معقول بسيط : تعاليمه قليلة . وطقوسه
قليلة . ولا تكاد تكون له مبادئ وأصول سوى القواعد الاخلاقية .
فهى تخصص حياتها كلها لخدمة الله عن طريق عمل الخير .

وقد عودها والدها منذ الصغر على الخشوع والاجلال لهما .
وصوفى تحب الفضيلة حتى صار ذلك الحب شغفا مستوليا على نفسها .
فهى تحب الفضيلة لأنه ليس فى العالم ما هو أجمل منها . وتحبها لأنها
تاج المرأة ومجدها . فالمرأة الفاضلة صنو الملائكة . فهى تحبها لأنها
الطريق الوحيد الى السعادة الحقيقية . ولأنها لا ترى فى حياة المرأة
الساقطة الا الشقاء والعناء والابتذال . وتحب الفضيلة أيضا من أجل محبة
أمها وأبيها . فان هذين الوالدين لم يكفهما أن يكونا فاضلين ، فأبيا الا
غرس الفضيلة فى كيان ابنتهما .

كل هذه المشاعر تضافرت على تعلق صوفى بالفضيلة . بحيث ستنظر
بمتسكة بأهدابها حتى نفسها الأخير . فقد أقسمت على ذلك فى أعماق
سريرتها .

ومن كمال تربية صوفى أنها تعرف نفسية الرجال وعيوبهم . كما
تعرف أيضا رذائل النساء . معرفتها للفضائل والمزايا . لأن الزوجة يجب
أن تعرف مقدما أن الزوج مخلوق ناقص لتوطن نفسها على معاشرته
وسياسته . والواقع ان النساء يصلحن للحكم على الرجال كما يصلحن
للكم على النساء بسبب استعدادهن الطبيعى .

انها تعرف مثلا ان النساء يكثرن من الغيبة والنميمة . ولكنها لا تتحدث في غيبة أحد الا بكل طيب ، ولا سيما في حق النساء . ذلك أن النساء لا يظلمن الا عندما يتحدثن عن بنات جنسهن . أما رأيهن في الرجال فنزيه لتجرده من الغرض .

ولئن كانت صوفى لم تكثر من ارتياد المجتمعات . الا أنها لطيفة اللقاء مهذبة رشيقة في كل ما تصنعه ، وهى مهذبة تهذبا عميقا لا تهذيب الأساليب الخارجية في السلوك فحسب . ولا تعرف كيف توجه ألفاظ المجاملة التافهة السخيفة . ولا تبالغ في التحيات والتشكرات مبالغة لفظية . الا أن كلمة التحية أو الشكر اليسيرة التى تخرج من فمها تحمل من حرارة الصدق وسحر اللطف ما يجعل لها وقعا في السامع لا ينسى . انها ليست من المحافظات على الصمت والاحترام مع النساء فحسب ، بل وأيضا مع الرجال المتزوجين ومن هم أكبر منها في السن بكثير على العموم . ولا تسمح لنفسها أن تتقدمهم أو تجلس في مكان أعلى من مكانهم الا مرغمة ذلك أنها تعلم أن حقوق السن مقدمة على حقوق الجنس ، فان السن المتقدمة توحى بالحكمة . والحكمة واجبة التوقير . قبل كل شيء .

أما مع الشباب من اقرانها وارتباها ، فالأمر مختلف . فمن كان منهم متواضعا محتشما ، فهى معه لطيفة وترفع التكليف . واجتماعاتها بهم مازحة بيد أنها بريئة ومهذبة . أما من كان منهم جادا ، فهى لا تخالطه الا في حدود معينة ، وهى على كل حال لا تقبل الخوض في مسائل الغزل المألوفة . فان اتفق أن فاتحها شاب جميل في محاسنها على عادة الشبان . فانها قبيحة أن تقاطعه قائلة بأدب :

— سيدى . أخشى أن أكون عالمة بهذه الأمور خيرا منك . فان لم يكن هناك موضوع أطرف من هذا نخوض فيه ، فانى اعتقد أن من المستحسن الاكتفاء من مقابلتنا بهذا القدر .

وتعقب ذلك بانحناء عظيم . ثم تبتعد على الفور . وليس ذلك لأنها تكره الثناء . بل انها ترحب به ما دامت دوافعه سليمة تطمئن اليها . اما المدح الذى يستخدم فخا للفتيات فلا تستريح اليه .

ونظرا لنضوج تفكيرها الذى يجعلها فى حكم ابنة العشرين مع أنها فى الخامسة عشرة ، فلا يمكن أن تعتبر طفلة حتى فى نظر والديها . ولذا بصراها بواجبات الشباب التى ينبغى أن تدركها الفتاة فى مثل مرحلتها من العمر . وانى اعتقد أنهما قالوا لها شيئا من هذا القبيل :

— يا صوفى . ها أنت ذى قد غدوت فتاة كبيرة . ونحن نريد لك السعادة . نريدها لك لا لنا . فان سعادتنا تتوقف على سعادتك . وسعادة الفتاة الشريفة فى أن تسعد رجلا شريفا . ولهذا يجب التفكير فى أمر زواجك . ويجب التفكير فى ذلك من وقت مبكر . فمصير الحياة يتوقف على الزواج . ولا يستكثر الوقت الذى ينفق فى التفكير فيه والتدبير له . وما من شيء أصعب من اختيار الزوج الصالح . اللهم الا اختيار الزوجة الصالحة . وستكونين أنت يا صوفى تلك المرأة النادرة . ستكونين فخر حياتنا وسعادة أيام شيخوختنا . ولكن مهما كانت مزاياك عظيمة ، فلا تعدم الدنيا رجلا أعظم مزية منك ، وكل رجل يشرفه الحصول على يدك . ولكن هناك كثيرون يشرفونك أكثر مما تشرفينهم . ومن بين هؤلاء يجب اختيار واحد يناسبك . تتعرف اليه ثم نعرفك به . واعلمى يا ابنتى أنك على عقلك وصلاحك واستقامتك وتقواك وتحليك بجميع المواهب التى تلائم المرأة الشريفة ، فتاة فقيرة . ولكن غنى المال عرضة للضياع . اما الغنى الذى لديك فلا يمكن أن يضيع . ولكنى لا أنصحك أن تتزوجى رجلا أرقى منك مكانة . بل يجب أن تدخل فى أسرة تجد مصاهرتك شرفا لها . وليس معنى هذا أن تتزوجى رجلا ساقط القيمة . بل يجب أن يكون موهوبا مجملا بالمزايا الشخصية . جديرا باحترامك واحترام الناس .

وانى أتصور صوفى جديرة بحرية الرأى والاختيار . فهى مطبوعة على الحرية ولذلك ستدقق كثيرا فى اختيار سيدها الذى تنزل له عن حريتها . واتخيلها كذلك لها عواطف الايطالية ورزاة الانجليزية وأثقة الأسبانية . واستجابة لرغبة والديها تقوم عمة لها أو خالة بتقديمها للأسرات الكريمة ، وتصحبها الى المجتمعات والحفلات ، كى يراها الناس . وهى بجمالها وذوقها وبساطتها تجتذب القلوب . فيتهافت الشبان الحسان على معرفتها . ولكنها بعد حديث أو حديثين تنفر منهم . لأنهم لا يوافقون هواها .

وبمضى الأيام تظهر على صوفى أعراض الشرود والهزال ، فتضطرب أمها وتقبل عليها تسألها ما خطبها . وبعد مراوغة سببها الخجل ، تنتهى صوفى بالاعتراف لأمها بحقيقة متاعبها .

— ما أشقانى يا أماه ! أشعر بحاجتى الى الحب . ولا أرى شيئا يسلىنى عن تلك الحاجة . وقلبى ينفر من جميع من يجتذبون حواسى . أجل ما من واحد ممن رأيتهم الا وأثار رغباتى . ولكنى لم أر منهم واحدا يستحق احترامى . ورغبة بلا احترام لا يمكن أن تتقبلها الحياة .

وقد صدقت صوفى . فليس ما يلزمها أى رجل ، بل يلزمها رجل معين تحس صورته فى قلبها ولا تستطيع أن تحب أحدا سواه . ولا تستطيع أن تسعد أحدا سواه . ولا تسعد مع أحد سواه . انها تفصل الهزال والعناء بل الموت والشقاء على الحياة مع رجل لا تحبه ، يشقيها ولا تسعده .

وتحار الأم ثم تضبطها ذات يوم تبكى وعلى صدرها كتاب . فتتناول الأم الكتاب وتفتحه فاذا به مغامرات « تليماك » ولا تفهم السر فى أول الأمر . ولكن بعد استجواب طويل ومنساورات تدرك أن ابنتها تعشق الفتى « تليماك » بطل القصة عشقا لا شفاء لها منه . وضحكت أمها وضحك أبوها من هذا الحب الخيالى وظنا أن بوسعهما صرفها عن ذلك

الحب بالحيلة والاقناع ، ولكنهما لم يلبثا أن اكتشفا صواب ذلك . فالفتاة متمسكة بحبها ، تعبد حبيبها وترفض أن تصرف أنظارها الى أحد من بنى آدم الأحياء . وكانت حجتها فى ذلك :

— أرونى رجلا بهذا الكمال فى المزايا وأنا على استعداد للزواج منه . أما قبل ذلك فلا تلومونى بل اعذرونى . فأنا شقية عائرة الحظ ولست مخبولة . وهل يخضع القلب للارادة ؟ هل الذنب ذنبى ان كنت أحب من لا وجود له ؟ انى لست مغالية فى شىء . ولا أريد الزواج من أمير . ولا أريد كذلك الزواج من « تليماك » فهو ليس سوى صورة خيالية . ولكنى أبحث عن شخص يشبهه . فلماذا يمتنع وجود هذا الشبيه ؟ دليلى على ذلك انى موجودة ، وأنا أشعر أن لى قلبا يشبه قلب « تليماك » . لا ينبغى أن نسيء الظن بالبشرية . انها لم تعقم . ولا يليق أن تتصور أن تلك الفضائل الانسانية السامية محض أوهام . بل أن صاحب تلك الفضائل موجود على قيد الحياة . وربما كان يبحث عنى الآن . يبحث عن نفس تعرف كيف تحبه . ولكن من هو ؟ وأين هو ؟ لا أدرى ! ولكنه ليس واحدا من هؤلاء الذين رأيتهم . وأكبر الظن أنه ليس من بين من سأراهم . آه يا أمى ! لماذا غرست حب الفضيلة فى قلبى ذلك العرس المتين ؟ ليس الذنب ذنبى بل ذنبك ان كان ذنبا لأحد انى لا أستطيع أن أحب الا الفضيلة ! .

انى أكرر ما قلته مرارا من أن الرجل لا يليق به أن يتزوج من طبقة أعلى منه . بل يحسن به أن يختار من هم دونه قليلا أو على شاكلته . ومن المهم جدا مراعاة الكفاءة من حيث الثقافة والعقلية . فان المرأة الجاهلة السقيمة الفكر لا تصلح مربية لأطفالها . ولا شريكة لزوج ذى عقل وفطنة . ولكن لا أحبذ أن تكون المرأة من صاحبات النبوغ . فان النبوغ سيخلق

لها مجدا شخصيا يغنيها عن التماس الفخر في انتسابها الى زوجها ،
وقيامها بواجب الأم والعقيلة . وهذا هو السبب في أنى أنادى بأن تبقى
كل فتاة ذات نبوغ عانسا بغير زواج طول حياتها .

ونتقل بعد ذلك الى الشكل . فالشكل أول ما يهتم به الرجال عادة
مع أنه آخر ما ينبغي الاهتمام به . فأنا أرى الجمال البارع أخرى أن
يهرب منه العاقل الذى ينشد زواجا باقيا . ذلك أن الجمال تخلق جدته
بالامتلاك ، وبعد سنة أسابيع لا تبقى له قيمة لما لكه . بيد أن أخطاره
تبقى ما بقيت صاحبتة على قيد الحياة .

ما لم تكن المرأة الحسناء ملاكا . فإن زوجها يكون من أتعس خلق الله
واشقاهم . وحتى لو فرضناها ملاكا ، فإن جمالها سيخلق الاعداء لزوجها .
فلو لم يكن القبح بغضا ، لفضلته على الجمال البارع ! فبعد قليل
من الزواج يتساوى الأمران فى نظر الرجل من حيث الحس . ويكون
الجمال مصدر ضيق ، والقبح مصدر راحة ! .

فخير ما أوصى به هو الشكل المقبول الذى لا يثير الرغبة بل
الطمأنينة .

هذه هى الشروط التى عن لى أن أنشدتها فى صوفى التى تربت على
الطبيعة كما تربى اميل . فهى مجعولة له أكثر من أى امرأة أخرى . وهى
ند له فى المولد الشريف والفاضل ، وإن كانت دونه فى الثروة .

إنها لا تسحر الناظر للوهلة الأولى . ولكن سحرها يزداد يوما بعد
يوم بالمعاشرة . فهو سحر يعمل تدريجا ولا ينبجج الا بالمعاشرة والمخالطة .
ولذا سيسهر به الزوج أكثر مما يشعر به سائر الناس .

وتربيتها لم تكن مفرطة فى الدرس ، فقد حبثها الطبيعة ذوقا يغنى
عن التعمق فى الدرس ، ومواهب بغير صقل أو صنعة ، وسداد رأى
بغير معرفة واسعة .

انها على الجملة أرض خصبة لا ينقصها الا البذرة الصالحة كي تنبت
نباتا حسنا . وسعيد ذلك الرجل الذى سيتولى بعد الزواج تثقيفها على
شاكلته . فلن تكون أستاذة زوجها ، بل تلميذته . ولن تحاول ترويضه ،
بل ستتشكل بأذواقه . وذلك أفضل له من أن تكون عالمة . وسيكون
باعثا على سروره أن يعلمها كل شيء .

* * *

والآن حان أن نجتمع بين اميل وصوفى . فلنبداً فى التقريب بين خط
حياتهما .



لقاء اميل وصوفى

رحلنا عن باريس وقد ملأ السأم منها نفس اميل ، وآمن أنه لم يجد عروسه المنشودة في تلك البلدة التى تشبه بابل القديمة . واستقبلنا الحقول كالفرسان المتجولين ، نسير على هوانا ، مسرعين تارة ، ومتمهلين تارة أخرى . فقد ربيت تلميذى على الاستمتاع بالسفر ، بحيث لا ينظر اليه نظره الى وسيلة يتعجل الفراغ منها . فالغاية ليست وحدها سبب متعته . بل الرحلة كذلك . وساعد على هذا اعتدال مزاجه بحيث لا تستبد به اللهفة ولا تقضه الرغبة الملحة .

ولهذا لم تكن مسافرين كما يسافر سعاة البريد الذين همهم قطع المسافة في أقصر وقت ، بل كمسافرين من الرحالة . ولم يكن حالنا حال الجالسين فى المركبات الفارهة ، كأنهم حيوانات فى أقفاص مقفلة ، وقد استولت عليهم الكتابة ، ولم تكن كذلك مسافرين فى رخاوة النساء ورهافتهن . بل فى الهواء الطلق وبين المناظر المبهجة . فاميل لم يدخل فى عمره مركبة بريد . ولن يستخدم البريد الا اذا كان على عجل من أمره . وما الذى يمكن أن يجعل اميل فى عجلة من أمره ؟ انه لا يستعجل شيئا سوى الاستمتاع بالحياة واسداء الخير كلما استطاع ذلك . لأن الخير انما هو أيضا استمتاع بالحياة .

انى لا أتصور الا طريقة واحدة أفضل عندى من ركوب متن الخيل . وتلك هى السير على الأقدام . ففى وسع الانسان أن يرحل وقتما يشاء . وأن يقف عندما يريد . وأن يتأمل المناظر ويدرس الاقليم ، متلفتا ذات اليمين وذات اليسار ، فاذا لمح نهرا سار على شاطئه أو غابة لقاء مثنى

فى ظلها . أو كهفا جاس خلاله ، أو منجما نظر فى معادنه . فأينما حلا له
لبث واستقر . الى أن يدركه الملل ينصرف . فلا ارتباط له بالخيال
ولا بالسياس .

وليس السائر على قدميه ملزما بتحرى الطرق الممهدة . فكل موضع
يصلح لقدمه . لأنه غير مرتبط بالانفسه ، ويستمتع بكل الحرية المتاحة
لبشر . حتى اذا عاقه عن السير سوء الطقس ، فعندئذ يستطيع أن يركب
الخيال حتى لا يحبسـه المطر الوابل فى موضعه .

ان السفر راجلا ، هو مذهب طاليس وافلاطون وفيثاغورث فى الرحلة .
فلست أدري كيف يرحل فيلسوف الا راجلا ، حتى لا يحرم نفسه من
مشاهدة كنوز الطبيعة التى تعرض نفسها على ناظره . ومن ذا الذى يحب
الزراعة بعض الحب ولا يريد أن يعرف المنتجات الخاصة بجو كل موضع
يجتازه ، وكيفية زراعته ؟ ومن ذا الذى يميل الى التاريخ الطبيعى بعض
الميل وتطاوعه نفسه على اجتياز أرض من غير أن يفحصها ، أو حقل من
غير أن ينظر فى اعشابه ونباته ، أو حصى من غير أن يمتحن مكوناته ؟ .

ان فلاسفة السكك يدرسون التاريخ الطبيعى فى مكاتب ، ويحفظون
من الطبيعة الباهرة بضعة أسماء يسمونها علما ولا فكرة لديهم عن
الطبيعة ذاتها . اما مكتب اميل فهو أغنى من مكاتب الملوك . فمكتبه
هو الأرض بما رحبت .

كم من الملذات المتباينة تجتمع فى هذه الطريقة الرائعة للسفر
والرحلة . هذا فضلا عن الصحة التى تتوثق أركانها ، والمزاج الذى
يزداد بهجة . وقد رأيت كثيرين ممن يسافرون فى العربات الفارحة ،
ساهمين شاردين ، سأمائين ساخطين أو معتلين . واما الراجلون فقد
رأيتهم على الدوام خفافا لطفا مراحا راضين عن كل شىء ، راضين بكل
شىء . فالقلب يهش عند الاقتراب من الوكر أو المأوى . وكم من وجبة
خشنة تبدو بعد الرحلة على القدمين ذات قيمة ونكهة . وما أحلى الراحة

عندئذ أمام المائدة ! وما اصق النوم الذى ينعم به الانسان فى فراش
خشن ! .

من أراد الوصول الى غايته وكفى ، فعليه بالمركبات ومقاعد البريد .
اما من أراد الرحلة حقا ، فليرحل راجلا .

وبعد خروجنا من باريس بيضعة أيام استهوتنا مناظر الأودية الصغيرة
وشعاب الجبل ، فضربنا فيها أكثر من المألوف . الى أن سدت المسالك
فلم نستطع بعد ذلك تقدما . ولم نعثر على طريق العودة . فلم نفرع لهذا
الضلال . فكل سبيل فى نظرنا طيب . مادام يوصلنا الى مكان نجد فيه
طعاما وكنا جائعين .

ولحسن الطالع عثرنا بفلاح قادنا الى كوخه . فأكلنا بشهوة عظيمة
طعامه اليسير . ولما رأنا الرجل متعبين للغاية وجائعين الى درجة كبيرة .
قال لنا :

— لو أن الله هداكما الى السفح الآخر للتل . لوجدتما هناك استقبالا
خيرا من هذا فى دار أهلها من ذوى الرحمة والسخاء والطيبة . أنهم
ليسوا خيرا منى طيبة قلب ، ولكنهم أيسر حالا . وان قيل انهم كانوا
أغنى من ذلك فيما مضى .

وفى هذه اللحظة هش قلب اميل لذكر طيبة القوم فقال وهو يلحظنى
بنظرة ذات معنى :

— هيا بنا يا صديقى الى تلك الدار التى يشهد الناس لأهلها بالخير
والبركة . فسوف يسرنى أن أراهم . وربما سرهم أن يرونا . فأنا واثق
أنهم سيحسنون استقبالنا .

ووصف لنا الفلاح تلك الدار وصفا دقيقا ، فاتجهنا نحوها متجولين
فى الغابات . وفاجأتنا فى الطريق الأمطار . فعوقتنا عن سرعة السير ولكننا

لم تتوقف . فوصلنا الى البيت المقصود فى المساء . وكان البيت على بساطته يبدو وجيها فى الضيعة التى تحيط به ، وهو منزول بنفسه بين الحقول .

وتقدمنا وطلبنا القرى . وأقبل رب الدار فسألنا عن نفسينا بأدب . ولم نفصح له عن غرضنا من الرحلة . وكانت فى الرجل هيئة تنم عن عز سالف . وقد احتفظ من مكاتته الغابرة بفطنة خاصة أدرك بها معدن ضيفيه من سلوكهما فى الكلام . فأدخلنا الدار على الفور . وقادنا الى جناح صغير جدا يبد أنه نظيف وثير ، وأوقدت النيران ، ووجدنا الفرش نظيفا ناصع البياض . والمفارش ذات عطر طيب . وهناك على الجملة كل ما نحتاج اليه . فقال اميل فى دهشة :

— كأننا كان هناك من ينتظرنا ! لقد كان الفلاح على حق . فيالها من رعاية ويالها من طيبة وياله من كرم ! ولمجهولين تماما ! كأننى أعيش فى عهد هومير الذى كان أهله يحسنون استقبال الضيف دوما .

وبعد أن جفت ثيابنا المبتلة بماء المطر واسترحنا قليلا ذهبنا الى قاعة الجلوس فلحقنا برب البيت ، الذى قدمنا الى زوجته . فاستقبلتنا بكل أدب ولطف وطيبة . وكانت نظراتها الفاحصة موجهة الى اميل . فكل أم فى مثل ظروفها لا تقع عينها على شاب فى سنه من غير أن تهتم وتتساءل بينها وبين نفسها ، ولو من غير أن تدرى .

وقدم موعد العشاء من أجلنا . فلما دخلنا قاعة المائدة رأينا فوقها خمسة أطباق . وجلسنا وظل مكان منها شاغرا . ثم دخلت شابة فأنحت بأدب وجلست بجياء فى المكان الخالى من غير أن تتكلم . وحياتها اميل ثم انصرف الى طعامه والى الحديث مع رب الدار . وكان الكلام دائرا حول ضلالتنا فى شعاب الجبل . فقال رب الدار لامييل :

— يبدو لى يا سيدى أنك شاب ظريف عاقل . وهذا يدعونى الى الاعتقاد أنكما وصلتما الى هنا مكدودين . كأبطال قصة تليماك .

ولم يكن اميل قرأ تليماك . بل قرأ « الاوديسية » . فلم يجب بشيء . أما الفتاة فرأيتها تتضرج حمرة حتى جففيها اللذين عضتهما فوق طبقها . ولاحظت أمها ارتباكها . فأومأت الى الأب فأسرع يغير موضوع الحديث . وجعل يكلمنا عن عزلة حياته بعد أن سلبه الدهر ماله الطائل . وحدثنا عن اخلاص زوجته والعزاء الذي يجده في صحبتها . والحياة الطيبة الهينة الهادئة التي يجدها في عزله هذه .

ولم يشر في كلامه الى شيء عن تلك الفتاة . ولكن حديثه كان شيقا . فكف اميل عن الأكل وأخذ ينصت . وعندما أطنب الرجل في مزايا زوجته وفضلها عليه وعلى سعادته ، اشتدت حماسة اميل فشد على يد الرجل وعلى يد زوجته بحرارة . وتأثرت الفتاة لهذا الصفاء . فجعلت ترمقه بنظراتها خلصة كي تتمعن في ملامحه . فوجدت فيه شبيها كبيرا بمعبودها « تليماك » . وتملكها حياء خفي .

أما الأم فلم تكف طول الوقت عن ملاحظتها . فلما رأت اضطرابها كلفتها بقضاء حاجة . فنهضت ثم عادت بعد دقيقة وفي عينيها أثر البكاء . فعاتبته أمها لبكائها كلما ذكرت على مسامعها متاعب والديها في حياتهما . — ألا تكفين عن هذا يا صوفى ؟

ووقع الاسم على أذني اميل وقعا شديدا . فهذا هو الاسم الذي أطلقه على مثل المرأة التي ينشدها . وجعل يدقق فيها النظر في شيء من الرهبة والحذر . فانه لا يرى لها تلك الملامح التي طالما خالها . وهو لا يدرى أيضا هل التي يراها أفضل من التي خالها أم العكس .

وجعل يدرس كل لمحة . وكل حركة . وكل ايماءة . فزاد اضطرابه وزادت حيرته . وتمنى لو نطقت بكلمة واحدة كي يسمع صوتها . ونظر نحوى نظرة فهمت منها أنه يريد مني أن أخف لنجدته .

وكان اميل أقل أهل الأرض دراية بالتكلف والتمويه . وكيف يمكن

أن يخفى أعظم اضطراب عرض له في حياته وهو تحت أنظار أربعة أشخاص يرقبونه . ولعلها أقلهم انتباها في الظاهر اليه ، وأشدهم اهتماما به ومراقبة لحركاته . فلم تفتتها الفطنة الى حالته . وأدركت أن هذا القلق ليس جبا بعد . ولكن ما أهمية ذلك ؟ انه مشغول بها وهذا حسبها .

وعيون الأمهات ليست أقل دقة من عيون الفتيات . لذا ابتسمت أم صوفى لنجاح خطتها . وأدركت أن هذا الفتى الرقيق الطيب أصلح ما يكون لابنتها . فيجب أن لا تضيع الفرصة . فاستحثت ابنتها على الكلام .

وتحدثت الفتاة بعذوبة صوتها الطبيعية وفي حياء زاد من تأثير صوتها . ومن أول مقطع أيقن اميل أن هذه هى فتاته بعينها . وتدفقت فتنة هذه الحسناء الصغيرة على فؤاده تدفقا أسكره . فوجم لا يتكلم . ولا يجب عن الأسئلة . لأنه لا يرى شيئا سوى صوفى . ولا يسمع أحدا سوى صوفى . فان قالت كلمة فغر فاه . وان غضت بصرها غض بصره . وان تنهدت تنهد . فكأنما تحولت نفسه فى لحظة واحدة وارتبطت بروحها . وهكذا ودع اميل حريته وانطلاقه وصار قلقلها محيرا جبانا يخشى أن ينظر حوله خشية أن يجد العيون ترقبه . ويخجله سلوكه فيزداد خجلا وارتباكا .

اما صوفى فكان اضطراب اميل يطمئنها . فهو آية انتصارها . وهى بذلك النصر مزهوة .

ولم تغير شيئا من مسلكها الظاهرى . الا أن قلبها كان يخفق سرورا رغم حياءها .

ومن البديهي أن تلك الليلة الأولى لم يقضها اميل فى النوم . بل قضاه ساهرا يحدثنى عنها . فهل جن جنونه حتى يلقي بمصيره ويفتتن

بفتاة مجهولة لم يتحدث اليها من قبل ولم يعرفها الا ذلك اليوم ؟ تريث
أيها الشاب ودقق . فأنت لا تدري على التحقيق من هم مضيفوك . ومن
يراك الآن يعتقد أنك جعلت من دارهم دارك .

ولكن الوقت لم يكن وقت وعظ . ومثل هذه الموعظة لا جدوى
منها على كل حال . فهي لا تزيد الفتى الا ولوعا بالفتاة .

وفي الصباح صدق ما توقعته . فقد عني بمظهره وزينته ما استطاع
على غير العادة . وغالبت الضحك ، لأن الثياب الداخلية والقميص كانت
مما اتحفنا به مضيفونا عوضا عن ثيابنا المبتلة القذرة من غبار السفر .
وتوقعت أن أجد صوفى وقد تأنقت بمثل عنايته . ولكن خاب ظنى فان
هذا التبرج الرخيص ليس من شيم مثلها . بل على العكس وجدتها في
ثوب أبسط من ثوب الأمس . وقد أهملت زينتها بعض الشيء . ولكن
في مستوى من النظافة لا يبارى . وأدركت أنها تهدف الى غاية بعيدة .
فهي لا تريد أن تسحر بزینتها وزخرفها ، بل بشخصها .

فالمحب الحقيقي لا يعنيه ماذا ترتدى محبوبته وكيف تبدو . وصوفى
واثقة بنفسها وسلطانها عليه . فأرادت أن تفرض ذلك السلطان بغير
حيلة وبغير مساعفة من المظاهر ..

ولست أشك في أن الوالدين تحدثا أيضا تلك الليلة في صدد اميل .
فاننا عندما طلبنا منهما الاذن لنا بمعاودة الزيارة وافقا على الفور ولم
تقل صوفى شيئا ولكن وجهها احمر . وكان واضحا من طلبنا أن وراءه
مغزى معين . وان وراء اجابته استجابة لهذا المغزى .

لقد سمحا لنا بالعودة ولكنهما لم يدعوانا للبقاء . وهذا تصرف
سليم . فلا بأس بتقديم المأوى والطعام لشاب جائع عابر سبيل . ولكن
ليس من اللائق أن يدعى عاشق للمبيت في بيت مع معشوقته .

وما كدنا نغادر ذلك البيت المضياف حتى خطر لاميل أن نقيم في

تلك الجيرة لا نبرحها . وأن ننزل في أقرب كوخ . وكان يرى ذلك الكوخ أبعد مما ينبغي . فلو تركته لهوى نفسه ، لبات في الخندق المحيط بدار المحبوبة . فقلت له في لهجة الاشفاق :

— أيها الطائش ! هل ذهب الحب برشادك وأعمتك العاطفة ؟ ألا تقيم وزنا للياقة والعقل ؟ انك تظن نفسك عاشقا . فهل يقدم المحب الصادق على تلويث سمعة محبوبته ؟ ماذا سيقولون عنها اذا علموا أن شابا بات ليلته في دارها ثم خرج ليقيم عن كذب منها لا يريد أن يتحول عن جوارها القريب ؟ أهذا هو جزاء كرم والديها ؟ .

فأجابني بحماسة وحدة :

— ماذا يعنيني من كلام الناس وشكوكهم الهوجاء ؟ . ان تعلقني بها لم يسبب لها الخزي . بل الفخر .

فعاثقته وأنا أقول له :

— انك تفكر في نفسك . ففكر فيها قليلا .

وجعلت أبصره بما سيلحق بها من أذى ، من جراء سلوكه ذاك . وكيف أن سمعة الفتاة تخذشها الرهبة ، وليست كسمعة الرجل في ذلك الصدد .

وفزع الشاب من النتائج التي أوضحتها له ، وتأثيرها السيئ على الفتاة التي أحبها قلبه . ولما كان اميل متطرفا دواما في أفكاره ، فانه لم يعد يتصور أى مكان في الاقليم يبعد بعدا كافيا عن دار صوفي . فضاغف الخطي كى يفر بأسرع ما يمكن عن هذا الموضع . وراح يتلفت فيما حوله كأنه يخشى أن يكون قد سمع نجوى قلبه سامع . فانه ليؤثر أن يضحي بسعادته ألف مرة على أن يعرض شرف محبوبته لأهون الأضرار . أجل انه ليفضل ألف مرة ألا يراها بعد ذلك بتاتا على أن يسبب لها أقل تكدير . وكانت هذه أول ثمرة جنيتها من تربيتي هذا القلب على الحب ، فشب يعرف كيف يجب محبة حقيقية .

ان المطلوب الآن هو العثور على مأوى بعيد ، ولكنه على مدى الرحلة السريعة . وبجئنا ، وتقصينا ، فعلمنا أن هناك مدينة على مسافة مرحلتين . فذهبنا اليها تفتش فيها عن مسكن ، وفضلناها على قرى أقرب منها يكون مقامنا فيها محل ريبة ومشار فضول . والى هناك وصل العاشق المحدث ، وقد طفح قلبه هياما ، وفاض أملا وسرورا ..

ولم ينس اميل أن علينا تجهيز أنفسنا في مسكننا الجديد بما يلزم لمدة من الاستقرار ، بما في ذلك من ثياب وجياد وخدمة . وما أن فرغ من ذلك ، حتى امتطينا متون الجياد وذهبنا في أتم رونق ، وبأقصى سرعة الى قبلته المنشودة . وكانت هذه أول مرة أراه فيها يسرع في الرحلة ، لأن مراده كان الوصول ، لا لذة الارتجال .. وهذا دأب الحب .. متى تفتح له القلب ، انصرف ملولا عن كل شيء عداه في الدنيا ..

وأخيرا وصلنا الى غايتنا . وكان الاستقبال الذي قوبلنا به هذه المرة أشد بساطة وحرارة من الاستقبال الأول ، لأننا لم نعد غرباء . وتبادل اميل التحية مع صوفى في شيء من التخرج ، ومن غير أن يتبادلا كلمة واحدة . وماذا عسى أن يقولوا في حضورنا وعلى مسمع منا ؟ ان الحديث الذى يمكن أن يدور بينهما ويشتاقان اليه ، حديث لاجابة به الى شهود ! .

ونزلنا للنزهة فى البستان ، وقد ألحق به حقل للخضر مترامى الأطراف ، حديقة للفواكه المثمرة من جميع الأنواع والأصناف ، تخترقها الجداول والنهيرات ، وتنخللها أحواض الزهر اليبان المتباين الألوان والأعراف . .

وبعد قليل ، وجد الشابان المتحابان صعوبة فى تقييد سرعتيهما الشابة بسرعة خطواتنا ، فاذا بنا نراهما وقد سبقانا بمسافة غير قليلة . وكانت صوفى تبدو متيقظة هادئة ، اما اميل فكان يتكلم ويلوح

بيديه في حرارة . ويبدو أن موضوع الحديث بينهما لم يكن مسئما
لهمما ! .

وبعد ساعة طويلة قررنا العودة ، وناديناهما ليعودا ، فدارا ولكنهما
أقبلا يمشيان ببطء هذه المرة . وكان واضحا أنهما يعملان على كسب
الوقت . وأخيرا توقف الحديث بينهما فجأة ، قبل أن يصبحا على مرمى
السمع منا ، وضاعفا سرعة خطاهما ليلحقا بنا .

وبدا اميل حين وصل الى موضعنا هاشا ، تفيض عيناه بالبهجة .
ولكنه حولهما نحو أم صوفى في شيء من القلق ، ليرى كيف سيكون
استقبالها له الآن .

واما صوفى ، فلم تكن مستظارة اللب فرحا مثله ، بل كانت شديدة
الاضطراب لأنها كانت في خلوة مع الشاب ، وهى التى كانت فى
مثل هذه الخلوة مع كثيرين جدا غيره ، من غير أن يظهر عليها
الضيق اطلاقا ..

وأسرعت صوفى نحو أمها ، وقد تلاحقت أنفاسها بعض الشيء ،
وأخذت تنغمم بوضع كلمات لا تعنى شيئا ، وكأنها تريد أن تدعى أنها كانت
هناك منذ وقت طويل .

وأدركت أن هذا الحديث الانفرادى رفه كثيرا وخفف العبء عن
قلبيهما الشابين . أجل انهما ليسا أقل تحفظا واحتشاما فى سلوك أحدهما
نحو الآخر ، ولكن هذا التحفظ صار أقل تخرجاً واضطراباً . انه تحفظ
ليس له سبب الا احترام اميل لها ، وحياء صوفى الطبيعى ، ومن أمانتهما
وشرفهما معا .. فقد يتجاسر اميل فيقدم على توجيه كلمة اليها ، وقد
تتجاسر هى على الرد ، ولكنها لا تفتح فاهها للرد الا بعد أن تلقى نظرة
على وجه أمها وعينيها .

اما التغير الملحوظ الذى طرأ على سلوكها ، فكان نحوى أنا ، فهى

تبدى لى احتراماً زائداً ، وتنظر الى باهتمام ، وتكلمنى بمودة ، وهى مهتمة للغاية بكل ما يدخل السرور والرضى على نفسى . فعلمت أنها تشرفنى بتقديرها ، وأنها معنية بالحصول على تقديرى لها . وأدركت أن اميل لابد قد حدثها عنى ، فكأنهما تأمرا معا على كسب عواطفى . وسرنى أعظم السرور أن صديقى الشاب جعلنى من موضوعات حديثه الانفرادى الأول مع حبيبته . فهأنذا قد جنيت ثمرة ما تكبدته من عناء فى تربيته . فصداقته وجه العيم لى هما أكبر جزاء وأوفاه . .

وتكررت الزيارات تترى ، وتوالى المحادثات الانفرادية بين الشابين ، حتى ثمل اميل بخمرة الحب وخال أنه وصل الى ذروة هنائه . ومع هذا لم يحصل من صوفى على اعتراف بجبها له . فهى تكتفى بالاصغاء اليه ولا تقول له شيئاً . واميل يعرف حياءها ، ولذا لا يدهش من تحفظها . ويعلم أنه ليس هينا عليها ، وأن مكاتته لديها غير يسيرة . ويعلم أيضا أن الوالدين هما اللذان يزوجان الأبناء والبناات . فخيّل اليه أن صوفى تنتظر أمرا فى ذلك الصدد من أبويها . فطلب منها الاذن فى التماس يدها من أبويها ، فلم تعارض .

وحدثنى اميل فى الأمر ، فحدثت والديها باسمه ، وفى حضوره . وكم كانت دهشته حين علم أن صوفى تملك زمام نفسها كله . وأن ييدها وحدها أن تستجيب له وتسعده ! .

وبدأ اميل يعجب ويخار فى فهم سلوكها . وأخذت ثقته تتضاءل وتنحسر ، وفزع اذ رأى نفسه أقل حظوة ونجاحا مما كان يقدر ..

ولم يستطع اميل أن يحدس العقبات التى تعترض سبيل سعادته . وما لم يخبره بها أحد ، لما عرفها ما عاش ، وصوفى أشد عزة وأنفة من أن تصارحه بشيء من ذلك .

والحقيقة أن تلك العقبات التى تعوق صوفى عن قبول حب اميل ، كانت حرية أن تستحث فتاة سواها على القبول ! .

وجلية المسألة أنها كانت قد تعلمت عبرة مأساة حياة والديها . وهى فقيرة ، واميل ثرى . فكيف يبدو تقديرها له نزيها وبينهما هذا الفارق العظيم فى الثراء ؟ .

وكان اميل لا يدرى ولا يحس أنه غنى ، فقد ربيته بحيث يستمد كنزه من قلبه لا من كيسه . أما أمواله التى هبطت عليه بحكم نسبه فلا يرى لها أدنى قيمة . ولهذا لم يستطع أن يحدس سر احجام صوفى ، وعزا ذلك الى عيب فى نفسه . فمن ذا الذى يطاوعه قلبه أن يرمى بالنزق معبودته ..

ولم يعد يقترب من صوفى بتلك الثقة الجميلة التى يعرفها المحبون المحبوبون ، بل صار رعيديا مرتجفا أمامها . وعمل على كسب عطفها باثارة شفقته ، بعد أن تلاشى أمله فى اثارة حبها وحنانها . وكان اليأس يستولى عليه أحيانا ، وينفذ صبره ، ويكاد يصل الى حد الغيظ . ويبدو على صوفى أنها شاعرة بما يعتمل فى نفسه ، فتتظر اليه ، فاذا بهذه النظرة كافية لفل سلاحه ، وازالة غيظه ، فيغدو أسلس قيادا مما كان من قبل ! .

ولما أعيته الحيلة فى هذا العناد الذى لا يقهر ، وتلك المقاومة التى لا تلين ، جاء يفضى بمكنون قلبه وجواه لصديقه القديم ومربيه . ويطلب منه العون والنصح :

— انى لفى حيرة مدلهمة ! فهى مهمة بشأنى ، وليس عندى فى ذلك أدنى شك . ولا تتحاشى لقائى ، بل تسريه ، وحين انصرف عنها تبدى الاستياء . ولا تضن على برأياها ، وأحيانا تطلب الى القيام بتصرف معين ، بل وتأمرنى بلهجة من لها الحق فى الأمر . ولكنها مع هذا تأبى أن تستجيب لتوسلاتى . واذا تجاسرت على الكلام عن الزواج ، فرضت على الصمت فرضا . فاذا زدت على ذلك كلمة واحدة ، غادرتنى على

الفور . ترى ما هو السبب ، بل السر الغامض الذى يجعلها تريدنى أن أكون لها ، من غير استعداد لمفاتحتها فى أن تكون لى ؟ فيجب أن تقوم أنت ، وأنت الحظى بحبها وتبجيلها ، بحملها على الكلام ، والافصاح عن ذلك السر . انك بذلك تتوج عملك العظيم فى تربيتى .

وتحدثت الى صوفى فى الموضوع ، ولم أجد عناء كبيرا فى انتزاع السر ، ذلك السر الذى كنت أعرفه حدسا قبل أن تطلعنى عليه . ولكنى وجدت عناء أكبر فى استخراج اذنها لى باطلاع اميل على ذلك السر .

ولما شرحت الأمر لامليل ، زادت دهشته الى حد كبير . ولم يفقه شيئا من وجهة نظرها الدقيقة . أجل لم يستطع أن يفهم كيف أن جنيتها هناك أو هنا ، تزيد أو تنقص ، يمكن أن تؤثر فى قيمة الشخص أو خلقه . ولما بينت له العرف السائد عند الناس فى هذا الصدد ، أخذ يضحك . ثم استبد به السرور وقد خطر له الحل الموفق السعيد ، وهو أن ينطلق فورا ، فيحطم كل شيء ، ويمزق كل شيء ، ويتنازل عن كل شيء ، ليكون جديرا بالزواج من صوفى وهو فى مثل فقرها .

فبادرت استوقفه وأنا أضحك من حماسته واندفاعه :

— رويدك ؟ أما آن لهذا الرأس أن يعرف انضج والرزانة ؟ أبعد أن قضيت عمرك حتى الآن فى التفلسف ، لا تعرف كيف تفكر تفكيرا سليما ؟ من أين لك أن تعلم أنك باتباع هذه الخطة التى اعتزمتها ، لا تزيد موقفك سوءا ، ولا تجعل صوفى أشد عنادا واحجاما ؟ فلن كان ثراؤك يعتبر امتيازاً ضئيلاً يرفعك فوقها فتحجم عنك أو تتردد فى الزواج منك ، فان تنازلك عن هذا الثراء سيكون امتيازاً ضخماً يزيد من الهمة بينكما ، ويضخم الحوائل . ولئن كانت كرامتها تأبى عليها أن تقبل منك التضحية الأولى ، فكيف يمكن أن تقبل منك التضحية الثانية ؟ لئن كانت تأبى أن يقال ان زوجها أغناها من ماله ، فكيف تطيق أن يقال ان زوجها افتقر من أجلها وتجرد بسببها من أمواله ؟

كلا أيها الصديق ! بل أوصيك أن تزداد قصدا في نفقتك ،حتى لا يقوم
 بذهنها أنك تحاول اكتساب حبها بالبذخ أو الحيلة ! ثم هل تظن أنها
 تكره حقا الثراء الطائل والمال الكثير ؟ كلا يا عزيزى اميل . بل انها
 تخشى أثر الثراء فى نفس صاحبه . فالأغنياء يغفلون قدر المال ،ويقدمونه
 على كل مزية وفضل . ويعتقدون أن من ينفقون عليه ما لهم مدين لهم بدين
 لا يستطيع أن يقوم به مهما أسدى لهم من خدمات . فانظر لنفسك ما أنت
 صانع كى تبدد من نفسها هذه الشكوك والمخاوف . عرفها بنفسك معرفة
 أوثق وأصدق ، فليست المسألة بنت يوم وليلة . وأطلعها على كنوز قلبك
 النبيل ، كى تؤمن أن مزايا روحك ترجح بكثير كفة ثروتك التى يشبهك
 فيها الكثيرون . وبطول المثابرة ، والمصابرة ، والأناة ، تصل الى التغلب
 على مقاومتها ، واذا بها تنسى فى كرم نفسك غناك . أحبها . اخدمها .
 واخدم والديها الجليلين . وبين لها أن هذه العواطف ليست وليدة نزوة
 طارئة أو شهوة عارضة رعناء بل هى صادرة عن مبادئ راسخة
 لا تمحى من أعماق قلبك . وأظهر الاجلال الصحيح لفضل هؤلاء
 الناس الذين أخنى عليهم الدهر ، فهذا هو الطريق الوحيد الى قلبها .

• وكان لهذا الكلام وقع ساحر على نفسه ، فامتلاً بالأمل بعد اليأس،
 والثقة بعد الانكسار ، لأننى لم أطلب منه لكسب محبة صوفى ورضاها
 الا ما هو مشوق الى فعله من تلقاء نفسه .

وهكذا ألفت نفسى موضع السر من الحبيين ، وصاحب نجواهما
 ومستشارهما فى وقت واحد ، كل منهما على حدة . ويالها من مهمة جليلة
 لمرب فاضل ! فانى لم أشرف بعمل من أعمالى طول حياتى ، كما شرفت
 فى عين نفسى بهذه الثقة التى احرزتها لدى الشابين . وأدرك الوالدان
 هذا فزاد تقديرهما لى ، لانهما اعتمدا على فى حفظ الحدود بين الشابين،

من غير أن يتدخل الوالدان في ذلك بنفسيهما . واما الفتاة نفسها فكانت تغدق على من رعايتها ما لم أكن غافلا عن السرفيه ! فهي تصب على ما تشتهي أن تصبه على اميل لولا الحياء ! واميل يدرك هذا ، ويتعزى حين ترفض الالتقاء على ذراعه للنزهة ، لأنه يراها تفضل عليه ذراعى ! وينظر الى نظرة فصيحة يقول لى بها :

— يا صديقى .. أحسن الحديث عنى ! .

ثم يتبعنا بنظراته فى اهتمام ، ويجتهد أن يقرأ أفكارنا ومشاعرنا ويترجم أقوالنا عن ملامحنا وإشاراتنا ، علما أن ما نقوله لا يمكن أن يكون عديم الأهمية .

وبمرور الوقت ازدادت جرأة اميل ، وصار يتمسك بحقوقه باعتباره محبا صريحا . فيتكلم ، ويلج ، ويتوسل ، ويعاتب . ولا يبالى أن يجابه من أحد بقسوة ، ما دام يقول ما يريد كاملا . الى أن حصل من صوفى — بعد لئى — على كسب واضح ، اذ صارت تعامله صراحة بسلطان الحبيبة ، فتأمره بما تريد ، بدلا من التوجه اليه بالرجاء ، وتطالبه بالقيام بأعمال وتصرفات فى خاص شأنه . وصارت هى التى تنظم مواعيد الزيارات وعددها . وتحرم عليه أحيانا المجيء قبل يوم كذا ، أو المكث بعد الساعة كذا . ولا تفعل ذلك على سبيل الهزل أو المزاح ، بل على سبيل الجد ، واستخدام السلطة المعترف بها منه ، وبشدة كانت تجعله يندم أحيانا على منحه اياها هذه الحقوق .

ومهما كانت تأمره يفعل بلا تردد أو معارضة . ولا يناقشها اطلاقا . وأحيانا كان ينظر الى وهى تلقى أوامرها نظرة حبور ، وكأنه يقول :

— انظر يا صديقى ! لقد صارت تشعر أنها مالكة زمامى ! .

وكانت الماكرة ترمقه أحيانا خلسة ، وتبتسم خفية ، مزهوة بسرور حبيبتها لتسلطها عليه .

. والآن ، وقد أسمى اميل متلفها حقا على الظفر بأعجاب صوفى ، بدأ يشعر بقيمة المواهب الطيبة التى أحرزها . فصوفى تحب الغناء . وها هو يعنى معها . بل ويمضى الى أبعد من هذا ، انه يعلمها الموسيقى . وصوفى متوقدة الحيوية خفيفة الجسم والحركة ، تحب القفز . فهو يرقص معها ، ويطور قفزاتها الى خطوات ويحسنها حتى تتقنها .

ان هذه الدروس ساحرة ، تذغدغ الروح بمرحها وتبعث فيهما الحيوية ، فيخف ما فى جبهما من تحفظ مبعثه الحياء ، فمن المسموح به أن يعطى الحبيب هذه الدروس لحبيته فى شىء من يقظة الرغبة الحسية . ولدى صوفى بيان عتيق مختل ، فيقوم اميل باصلاحه وضبطه . وهو أيضا عازف قيثارة ونجار ماهر . وقد أعد نفسه ليكون قادرا على مساعدة الناس فى كل فن وفى جميع الظروف .

وبيت صوفى فى موقع جميل . وقد استغل اميل هذا الجمال فى صنع مناظر مصورة ، كانت صوفى تساعد أحيانا فى رسمها ، وتزين بها مكتب والدها . وكان اميل يضع لهذه الصور اطارات غير مذهبة . ولكنها غنية عن التذهيب .

وبمراقبة اميل وتقليده استطاعت صوفى أن تتقدم فى فن الرسم محدثية به ، وكذلك تقدمت فى جميع الفنون الأخرى . وتذكر والدها يسارهما القديم عندما وجدا الفنون الجميلة تحيط بهما روائعها . وجمل الحب دارهما . فالحب يستطيع أن يجعل من غير نفقات ولا عناء ما لا تستطيع أن تجمله الثروة الطائلة بكل متاعها .

وكما يثقل عبد الصنم صنمه بالذخائر والنفائس ، ويزين مذبحه بالكنوز . كذلك يجتهد المحب فى تزيين محبوبته ولايكف عن اضافة مزيد من التحف اليها . أجل انها ليست فى حاجة الى شىء من ذلك كى تظفر بأعجابه ولكنه فى حاجة الى تزيينها تكريما لها واعزازا . فكأنه يرى أن كل حسن ليس فى موضعه الصحيح ما لم يزين جمالها الكامل ..

وكان مضحكا ومؤثرا معا أن ترى اميل متلهفا على تعليم صوفي كل ما يعرفه . من غير أن يبحث أو يتساءل هل ما يعلمه لها يوافق هوى منها أو لا يوافق .

انه يحدثها عن كل شيء . ويشرح لها كل شيء بلهفة صيانية . وكأنه يعتقد أنها ستفهم عنه بمجرد القول . وكأنه يرى جميع معارفه لا جدوى منها ما لم تصلح للعرض أمام عينيها . ويكاد يحمر خجلا من كل شيء يعرفه ولا تعرفه هي .

ها هو اذن يعطيها دروسا في الفلسفة . وفي الطبيعة . وفي الرياضيات . وفي التاريخ . وفي آن واحد ودفعة واحدة . وتسرع صوفي من رغبته واهتمامه ، وتجتهد في الاستفادة منهما .

وفن التفكير ليس غريبا على النساء . ولكن لا ينبغي لهن عدم التعمق في العلوم العقلية . فها هي صوفي تدرك كل شيء ولكنها لا تعي في ذاكرتها شيئا كثيرا . وأعظم ما تحزره تقدم في الأخلاق والأمر المتصلة بالذوق . أما الطبيعة فلا تحفظ منها الا فكرة يسيرة عن القوانين العامة وعن نظام العالم . وأحيانا ، أثناء نزاهتهما ، كان يتأملان اعاجيب الطبيعة ، فيتجه قلباهما البريثان الطاهران نحو الخالق .

وتصور عاشقين في ميعة العمر يقضيان خلوتهما في الحديث عن الدين ! .

* * *

وعلى الرغم من هذا التفاهم الطيب ، لم يكن يخلو الحال من خلافات ومشاحنات قليلة . فالفتاة ليست خلوا من النزوات ولا الفتى خلوا من حدة الطبع . بيد أن هذه العواصف الصغيرة تمر سريعا . وتزيد من ارتباطهما . حتى أصبح اميل عن تجربة لا يخشى هذه العواصف كثيرا . لأن الصلح الذي يعقبها امتع من الغضب الذي تحدثه .

ولم يكن اميل جسورا . ومن جهة أخرى لم تكن صوفى بالفتاة التى تسمح له بتجاوز الحدود . ولكن الحكمة لها أيضا حدها فى كل شيء . فكان أبوها يخشى أن تكون أقرب للصرامة منها للتسامح .

وفى خلواتهما ، لم يكن اميل يجسر أن يطلب منها أقل حظوة . وحينما تدس ذراعها تحت ذراعه أثناء النزهة ، قلما كان يتجاسر أن يضغط ذراعها على صدره وهو يتنهد .

وأخيرا ، بعد كبت طويل ، تجاسر على تقبيل ثوبها خلسة . وأسعده أن تتجاهل ذلك بضغمرات . وفى ذات يوم أراد أن يصنع هذا صراحة . فصدته . فأصر . فغضبت وندت عنها وهى مغیظة كلمات جارحة . فلم يتحملها اميل صامتا . وانقضى ذلك اليوم فى خصام . واقتربا فى نهايته ساخطين .

وذهبت صوفى الى صديقتها أمها . فكيف تخفى عنها أساها ؟ فهذا أول شقاق بينها وبين حبيبها . وأفضت لأمها بخطئها . فأوصتها باصلاح الخطأ . وحثم عليها والدها أن تصالح اميل .

وفى اليوم التالى بكر اميل بالحضور أكثر من المعتاد وهو قلق على العلاقة بينهما . وكانت صوفى مشغولة بزينة أمها . وكان الأب فى حجرة زينة الأم معها . فدخل اميل باحترام ولكن فى حزن . وما كاد الوالدان يفرغان من تحيته ، حتى اتجهت نحوه صوفى ومدت اليه يدها وسألته فى لهجة رقيقة عن حاله . ومن الواضح أن تلك اليد الجميلة لا تمتد هكذا الا لكى تقبل ، فتلقى يدها ولم يقبلها . فخرجت صوفى وجذبت يدها وهى تغالب ارتباكها . ذلك أن اميل الذى لم يألف بعد أطوار النساء ولا يعرف مكان التزوات منهن ، لم يستطع أن ينسى ما حدث بسهولة . ولما وجد والدها أنها مضطربة محرجة ، رفه عنها بدعابته ، الا أن المسكينة كادت تبكى . وغالبت البكاء عبثا فطمرت من عينها دمعة . وما

ان رأى اميل تلك الدمعة حتى أسرع يجثو على ركبتيه ويتناول يدها
فيقبلها بضع مرات . فضحك الأب من كل قلبه وصاح :

— لعمرى انك أطيب مما يجب . فلو كنت فى مكانك لما أغضيت
عن حماقاتهن . ولعاقبت الفهم الذى أهاننى .

فتشجع اميل بهذا القول ، وورق الأم بنظرة مستعطفة . فخيّل اليه
أنها راضية . فاقترّب وهو يرتعد من وجه صوفى التى أشاحت برأسها ،
وعرضت له كى تنقذ فمها وصفحة خد كأنها الورد ، ولم يقنع بها . فقاومتها
مقاومة هينة . ويالها من قبلّة لولا أنها قطعت تحت بصر الأم ! .

وبعد هذه العقوبة النموذجية خرج الوالد لبعض شأنه . وأرسلت
الأم صوفى متعللة بحاجة لها . ثم وجهت الخطاب الى اميل فى لهجة
جادة . قالت :

— سيدى . أعتقد أن شابا فى مثل مولدك النبيل وتربيتك الرقيقة،
له عواطف سامية وخلق فاضل ، لا يرضيه أن يجزى صداقة أسرتنا
بالحق العار بها . وانى أناشدك أن ترجع الى صديقك وأستاذك لتفهم
عنه واجباتك . وليقول لك ما هو الفرق بين الألعاب البريئة التى تجرى
فى حضور الأبوين ، وبين الاستهتار الذى قد يقدم عليه البعض فى غيبتها
مستغلا فى ذلك ثقتهم أسوأ استغلال . فتقلب تلك الألعاب البريئة
فخاخا خائنة ..

وبعد هذه الموعظة القصيرة التى كانت موجهة الى شخصيا أكثر مما
هى موجهة الى تلميذى ، غادرتنا تلك الأم الحكيمة وأنا معجب ببعدها
فظرها الذى جعلها لا تكثرث بتقبيل فم ابنتها أمام عينها ، قدر اكترائها
بتقبيل ثوبها بعيدا عنها فى خلوة . وناقشت الأمر مع اميل وأفهمته ما فى
ذلك من جوهر الأمانة ورعاية الثقة .

وحدث أن صوفى زادت بعد ذلك ثقة من قلب اميل . فاستخدمت

نبيًا من الحرية في تصرفاتها . وهو نوع من السلوك شائع بين النساء
فإن المرأة حين تجد قلبها مشغولاً بحب أكيد ، لا تهتم كثيراً بالتحفظ مع
سائر الشبان لأنها لا تشعر من جهتهم بخطر ولا تخشى منهم مطمعا .
وليست نظرتها اليهم نظرة مرشحين لقلبها . فهل شعر اميل بالغيرة ؟ هذا
ما يجب النظر فيه . لأن مثل هذه المنغصات تدخل في موضوع كتابي
هذا .

ان جميع الملاحظات في مملكة الحيوانات تدل على ثوران الغيرة
الجامحة لدى الذكور على الاناث . أما لدى الانسان فليس الأمر كذلك .
فما دام الزواج قائما على أساس الوحدة لا تعدد الزوجات ، فالثورة
الجنونية للغيرة من جانب الذكور من غير مبرر قوى لا معنى لها .
وعلى هذا الأساس فإن اميل العاشق الغيور لا يكون مفتانا جامحا
قاسيا ، بل رقيقا متوجسا . فاهتمامه منصرف الى كسب محبوبته لا الى
توعد غريمه . فهو لا يكره هذا الغريم بل يعتبره عقبة في طريقه يتجاوزها
من غير حقد . فكرامته ليست هي الجريحة في هذا الموقف . بل سعادته
هي المهددة بذلك التنافس وهو يعلم في الوقت نفسه أن
أساس التفضيل هو الفضل . ولذلك يضاعف من اجتهاده
كى يكون ظريفا محبوبا . ولا يلبث منافسوه أن يفشلوا أمام مزاياه .

ان اميل يحب صوفى ولكن ما هى عناصر فتنها التى أسرته ؟ انها
الحساسية . والفضيلة . وحب الأشياء النزيهة . فهو حين أحب ذلك
الحب فى صوفى ازداد حبا لهذه الأمور الرائعة . وكذلك صوفى أحبت
فيه تقديره السليم للثروة الحقيقية ، وهذه الثروة هى مزايا الزهد
والبساطة والنزاهة والعزوف عن البذخ والترف . وبهذا يكون التآلف
تاما بين الحببين فى المزاج والأهواء . ولا أخشى على اميل أن يتغير
بعد الزواج فى أسلوب معيشتة .

زيارة عاطفية

في المرات الأولى من ذهابنا لزيارة صوفى كنا نركب الجياد كى يكون وصولنا أسرع . وتكرر ذلك أربع مرات . لأن القوم كانوا ينتظروننا فى ساعة معينة . وفى المرة الخامسة ، على بعد نصف مرحلة من الدار لمحنا قوما على الطريق . فخفض قلب اميل عندما تبين صوفى واقترب منها وترجل عن جواده وأسرع يجرى نحوها .

واميل يحب الجياد الجميلة . وكان جواده شديد البأس . فلما أحس بالعنان مرسلا ، أسرع يجرى فى الحقول . فطارده على جوادى ولحقت به بعد لآى ، وعدت به . وكانت صوفى لسوء الحظ تخاف الجياد ولا تجسر على الاقتراب منها . الا أن اميل لم يلحظ شيئا من ذلك . فهمست صوفى فى أذنه أنه أرهقنى بهذا الطراد ، فأسرع اميل خجلان وأمسك بالجياد بعيدا عنها . وفى الرحلة التالية قرر ألا تستخدم الجياد . لأن أحدها يجب أن يمسكها بعيدا عن صوفى . فاما أن يكون هو المحروم منها ومن صحبتها . أو أكون أنا . وفى ذلك حرج شديد . فقلت له :

— فى وسعنا أن نأخذ معنا خادما يعنى بالجياد .

— وهل نرى أن نزيد بهذا الخادم ثقلا على أصحابنا ؟ فلا يكفى أنهم يطعموننا نحن ؟ .

— معك حق . فهم كرماء على ما هم فيه من عسر . ومن عجب أن الأغنياء بخلاء . وأن الفقراء أسخياء .

— هيا بنا نذهب راجلين .

— بكل سرور وانى أرى أن الحب لا توافقه الضجة والأبهة .

وذهبنا سيرا على الأقدام . فوجدنا الأم والبنت في الطريق كالمرة السابقة . وكان اميل يتصب عرقا فمدت اليه صوفى يدها الحانية بمنديل جففت به خديه . فكان ذلك كافيا لأخذه بسياسة المشى وعدم ركوب الخيل .

ولما كان المسكن بعيدا . كان لابد من العودة مبكرا اليه . ومن القسوة الشديدة على عاشق أن يحرم تمشية السهرة مع محبوبته . وكنا نؤغل في الصيف والنهار آخذ في القصر . ومعنى ذلك ألا نمكث عند أصحابنا الا برهة وجيزة . ففكرت الأم في حل يحفظ مظاهر اللياقة . وهو العثور لنا على سكن في قرية قريبة كى نقضى فيه الليل بين الحين والحين . فصفق اميل بيديه طربا . وعانقت صوفى من غير تفكير .

وشيئا فشيئا زادت الألفة بيننا . وكنت أذهب مع اميل أحيانا وأتركه يمضى بمفرده أحيانا أخرى . فالثقة ترفع الروح . ولا ينبغي أن نعامل الرجل معاملة الأطفال . ثم ما قيمة ما فعلت وبذلت في تربيته ان لم يكن جديرا بثقتى .

وفى ذات مرة ذهب وحده ، وقد أخبرنى أنه سيبىث في القرية . فلا يعود الى المدينة تلك الليلة ، رأيته يعود فى المساء ، فقلت له وأنا أقبله :

— ماذا يا عزيزى اميل ؟ لقد عدت الى صديقك .

— وهل تظن انى عدت بهذه السرعة بمحض رغبتى ؟ انها هى التى فرضت على العودة اليك فعدت من أجل خاطرها لا من أجل خاطرك ! . فتأثرت لهذه الصراحة . وقلت له وأنا أقبله :

— أيها الصديق الصريح الصادق . انك تكرمنى بهذه الصراحة التى تترفع عن المجاملة .

وكانت صوفى لا تسمح له الا بزيارتين فى الأسبوع لا تشبعان شوقه .

وفى الأيام الباقية لم يكد يخلد للبطالة . بل كان ينصرف الى ألوان نشاطه السابقة فى الحرف والزراعة . أو يجوب الحقول ليدرس التاريخ الطبيعى على الطبيعة . ويفحص تربة الأرض ومنتجاتها . وطريقة زراعة كل منها . واذا خطر له تعديل مفيد للزراعة صارع به الفلاحين . وقد ابتدع بنفسه تحسينا أدخله على المحراث . وفى بعض الأحيان كان يشارك الفلاحين بيديه فى العمل . فيدهشون لأنهم يجدونه ماهرا فى استخدام أدواتهم كواحد منهم .

وكان وجود على الفلاحين بخبرته وصداقته وبمساعدهات مالية للقيام بالاصلاحات التى يقترحها . وأكواخهم التى يراها غير صحية كان يعيد بناءها على نفقته . اما من لا يملك بقرة فكان يشتري له بقرة .

وكان يحدث أن يسمع بفلاح ضعيف يستبد به جار قوى يرهقه . فيعين الضعيف حتى يأخذ له حقه من القوى .

وكان للحب أثره المباشر فى عطفه على المحبين . فان سمع بعاشقين يعوزهما المال للزواج جهزهما للزواج على نفقته .

وسمع ذات مرة بامرأة فقدت ابنها الوحيد فذهب اليها وعزاها تعزية قلبية مخلصه . وقضى لديها النهار بطوله . فهو لا يأنف من المساكين ولا يكره المقام بينهم . وكثيرا ما تناول طعامه لدى الفقراء الذين يزورهم أو الفلاحين الذين يساعدهم . فأشعرهم بالصدقة وبالمساواة بينهم وبينهم فى الانسانية .. لانه كان يبذل الاحسان من شخصه وعواطفه قبل أن يبذله من ماله .

لعب وغضب

وكان أحيانا يتجه في جولاته الى ناحية دار المحبوبة على أمل أن يملأ عينيه منها خلصة ، أو يراها وهي تنتزه من غير أن تراه . ولكن اميل كان دائما مستقيما في سلوكه . لا يحب الخديعة والمين . وهذا راجع الى شعوره بالكرامة . ولذا كان يصد نفسه متى اقترب اقترابا حقيقيا من بيتها . حتى لا يجد نفسه متلبسا بالتحايل . فذلك ينزل به في عين نفسه ان لم يهبط به في عين صوفى .

كان يكتفى بالجولان في صحبتها . كأنه يتحرى آثار أقدامها ويتخيل جولاتها وملاعبها في تلك الربوع .

وفي عشية يوم زيارتها كان يذهب الى القرية حيث يشتري الزهر والهدايا لها . وكانت صوفى تسر بتلك الهدايا اليسيرة وتمتدح اختيارها . وفي بعض الأحيان كان يحلو لاميل أن يجعل شيئا من هداياه التي يحضرها جائزة يتسابقان رهانا عليها . وهذا التسابق من المعروف أن الفتيات لا يبرعن فيه . لذا كان من السهل على اميل أن يسبقها ويفوز عليها . وكانت هذه الألعاب تشيع المرح في نفسيهما وتنشط الجسم . وتعتبر من أحسن وسائل تمضية الوقت والتقريب بينهما في آن واحد .

وفي الأيام التي كنا لا نذهب فيها للزيارة ، كان اميل يتسلى بالحرف المختلفة التي تعلمناها معا فيما مضى . فيلتحق يوما في الأسبوع على الأقل معى للعمل بالأجر لدى صاحب مصنع . ولم نكن نعمل هناك بصورة شكلية على سبيل الهواية التي يمارسها من هم أرفع من ذلك

المستوى . بل فى نفس الظروف وخاضعين لنفس الشروط التى يعمل بها
سائر العمال عند ذلك الأستاذ .

وكان والد صوفى عندما يأتى لزيارتنا قد وجدنا عاكفين على الصنعة .
فلا يلبث أن ينقل ذلك الى ابنته وزوجته وهو متعجب . ويقول :

— هيا نذهب لنرى ذلك الشاب فى المصنع . وستريان أنه
لا يحتقر أحوال الفقراء ولا يزدريهم ! .

وكانت صوفى تسمع هذا الحديث بلذة عظيمة . وتأمرت الأسرة
كى تفاجئ اميل وهو فى العمل . وسألونى خلسة أسئلة عرفوا منها
ما يريدون . وبعد أن تأكدوا من يوم معين بالذات ، استقلت البنت والأم
عربتهما وحضرتا الى المدينة فى ذلك اليوم المعين .

وعندما دخلت صوفى المصنع لمحت فى نهايته شابا فى صدار مبتذل،
وقد تشعث شعره ، وانصرف اهتمامه الى ما يصنعه بيده حتى أنه لم
يرها . فوقفت صوفى وأشارت الى أمها . ووقفنا ننظران اليه وهو يعمل
بالأزميل والمنشار وغير ذلك من أدوات النجارة .

ولم يثر هذا المنظر الضحك عند صوفى ، بل تأثرت منه . فهو منظر
مهيب . وحقا يجب على المرأة أن تجل رئيسها ، فانه هو الذى يعمل من
أجلها ، ويكسب لها معاشها ، ويغذوها . فهذا هو الزوج الصحيح .

وبينما هما مشغولتان بملاحظته ، لمحتهما فجذبت اميل من كمه .
فالتفت وراهما . وألقى الأدوات من يده واندفع وهو يبعث صيحة فرح .
وبعد أن استقبلهما أعد لهما مكانا للجلوس ثم استأنف عمله . بيد
أن صوفى لم تستطع أن تبقى جالسة . فنهضت وأخذت تجوب المصنع
وتفحص الأدوات وتتحسس قطع الأخشاب المصقولة . وتجمع نشارة
الخشب من الأرض وتنظر الى أيدينا ثم تقول انها تحب تلك الحرفة
لأنها نظيفة .

وحاولت أن تقلد اميل . فتناولت فارة وأرادت بيدها البيضاء
الرقيقة أن تصقل بها لوحا من الخشب . فانزلت الفارة ولم تأخذ من
الخشب شيئا .

وسألت الأم الأستاذ صاحب المصنع :

— كم تدفع أجرا يا سيدى لهذين الصانعين ؟ .

— انى أدفع يا سيدتى عشرين صليدا للواحد منهما ، فى اليوم ،
وأقدم لهما الطعام . ولكن هذا الشاب يمكن أن يربح أكثر من هذا
لو أراد . لانه أمهر صانع فى الاقليم .

فأسرعت الأم الى اميل وعانقته وضمتها الى صدرها وهى تذرف
الدمع وتقول :

— ولدى .. ولدى ! .

وبعد فترة من الوقت قالت الأم لابنتها .

— هيا بنا فلا يجمل أن نغيب أكثر من هذا .

واقتربت من اميل فضربت على خده ضربة خفيفة وقالت له :

— والآن أيها الصانع الماهر . ألا تريد أن تأتى معنا ؟ .

فأجابها بلهجة حزينة :

— انى مشغول . ومرتبط بالأستاذ . فاطلبى منه الاذن .

فسألت صاحب المصنع : هل يستطيع أن يستغنى عنه ؟ فأجاب :

— لا أستطيع . فعندى عمل عاجل يجب تسليمه بعد غد . ولاعتمادى

على هذين السيدين رفضت عمالا آخرين تقدموا للعمل . فمن غير
وجودهما لا يمكننى تسليم العمل فى اليوم الموعد .

ولم تعلق الأم بشيء . وانتظرت أن يعلق اميل . ولكن اميل أطرق
وسكت . فأدهشها هذا السكوت ، وقالت له :

— أليس عندك ما تقوله ؟ :

فنظر اميل الى الفتاة الواقعة بجوار أمها نظرة حنان وقال :

— ها قد رأيت انى يجب أن أبقى .

فانصرفت السيدتان وتركنا . فتبعهما اميل الى الباب وشييعهما
بنظراته ثم تنهد وعاد ليستأنف عمله من غير أن يتكلم .

وفى طريق العودة أظهرت الأم تأثيرها لابنتها قائلة :

— وهل كان من العسير الى هذه الدرجة أن يرضى صاحب المصنع
بأى شيء كى يجيب طلبى ويلبى دعوتى ؟ ان هذا الشاب المسرف الذى
يبدّر المال بغير ضرورة لا يعرف كيف ينفق النقود فى مناسباتها اللائقة .

فقالت صوفى :

— حاشا لاميل أن يرى للمال كل هذه القيمة بحيث يستخدمه
لفسخ ارتباط شخصى أو تعهد بينه وبين صاحب العمل . وأنا واثقة
أنه كان مستعدا أن يعوض صاحب المصنع عن الضرر الذى سيلحق به
من انصرافه اليوم . ولكن هذا كان يجعله مستعبدا لسلطان المال
بحيث يعتقد أن المال يعفيه من واجباته ، ويقوم مقام الأخلاق . ولست
أحب أن أكون أنا سببا فى تغيير مبادئه هذه . فأنا أعلم أن اميل له طريقته
الخاصة فى التفكير . وهى طريقة مختلفة عن طريقة الناس حقا . ولكنها
أفضل منها . أتظنين يا أماه أن بقاءه فى المصنع كان هينا على نفسه ؟ ثقى
أنه بقى حتى لا يخسر احترامه عندى كرجل حريص على العهد .

ومع هذا لم تكن صوفى متساهلة فى امتيازات المحبة التى لها عند
اميل . بل كانت مدققة حريصة على أن يكون حبه لها بالغا أقصى الغاية .
فهى تفضل ألا تكون محبوبة اطلاقا على أن تكون محبوبة بين
أو حبا يسيرا هينا . فهى شديدة الاعتزاز بكرامتها وكرامة قلبها الذى
تعرف قدره . ولذا كانت ترقب سلوك اميل فى كل ما يتعلق بحبه لها
وتنفذ رغباتها . فهى لا تقبل منه أن يتأخر عن مواعيده معها ولا أن

يتعجل . بل تريده أن يكون دقيقا لأن التقدم عن الموعد معناه أنه يفضل
رغبته على راحتها . وتأخره معناه الإهمال .

وقد حدث ذات مساء أنهم كانوا ينتظروننا . ولكننا لم نصل في
موعدنا وانقضت السهرة في انتظارنا . فظنت المسكينة صوفى أننا
متنا واستبد بها العذاب وقضت الليلة في البكاء . ومنذ المساء كانت
قد أرسلت رسولا يتقصى أخبارنا ويعود بها إليها في الصباح الباكر .
وعاد الرسول مع رسول من قبلنا يحمل رسالة شفوية فحواها أننا بخير،
وبعد برهة وصلنا . وإذا المنظر يتغير كلية . فجففت صوفى دموعها وقد
استبد بها الغيظ لأن أميل حى ومع هذا جعلها تنتظره بغير مقتضى .

وهمت أن تحبس نفسها في مخدعها . وألح عليها أهلها أن تبقى .
فوجب عليها أن تبقى . بيد أنها لبست قناع الهدوء التام . وأقبل الوالد
علينا يقول لنا :

— لقد أقلتكم أصحابكم . وهنا بعض منهم لن يغفروا لكم هذا
بسهولة .

فقالت صوفى بابتسامة تكلفت فيها اللطف :

— من تعنى يا والدى ؟ ..

— وماذا يهمك من يكون . مادمت أنت لست هذا الشخص الذى
أتكلم عنه ؟ .

فغضت صوفى بصرها ولم تجب . واستقبلتنا الأم بهدوء فاتر . وشعر
أميل بالخرج فلم يقترب من صوفى . فبادأته هى بالكلام . وسألته
عن صحته ودعته للجلوس فى رقة خدعته عن الحقيقة . وتقدمت أنا
فتناولت يد صوفى وهممت أن أقبلها كالعادة ، فجذبت يدها بصورة
ملحوظة ، فاتضح الموقف لعينى أميل .

ولما وجدت صوفى أن شعورها افتضح ، لم تكتنه كل الكتمان .

وانقلب برودها المصطنع الى تهكم . فهي تجيب عن جميع الأسئلة بمقاطع
من الكلمات بصوت بطيء متعثر . فكاد اميل يموت خزيا وفزعا ، ونظر
اليها بألم باحثا عن عينيها عسى أن يقرأ في نظراتها حقيقة عواطفها .
فرشقته بنظرة قاسية جعلته يحول عينيه . ولم يعد الى الحديث معها أو
النظر اليها .

ووجدت أن من واجبي التدخل لتوضيح الموقف . فتناولت يدها
وقلت لها بكل رقة :

— يا عزيزتى صوفى . نحن مظلومان . ولكنك دائما تؤثرين العدل
والعقل . فلا تحكمى علينا من غير أن تستمعى إلينا .

ولم تجب بشئ فاستطردت :

— لقد بدأنا السير أمس فى الساعة الرابعة . وكان المفروض أن
نصل فى الساعة السابعة . وقطعنا ثلاثة أرباع المسافة حينما شقت
أسماعنا أصوات صراخ أليمة صادرة من التل المجاور لنا فأسرعنا الى
مصدر الصراخ . فوجدنا فلاحا مسكينا كان عائدا من المدينة على جواده
وهو مخمور ، فسقط من فوق الجواد وكسرت ساقه . فأخذنا نصرخ
ونستغيث . فلم يرد علينا أحد . فحاولنا أن نعيد الجريح الى ظهر حصانه .
ولكننا لم نستطع ذلك . لانه كان يصرخ لأقل حركة صراخا فظيحا جدا .
فرأينا أن نربط الحصان الى شجرة فى الغابة ثم جعلنا من أذرعنا محفة
حملنا فوقها الجريح بأقصى ما نستطيع من اللطف وهو يرشدنا الى طريق
بيته . وكان الطريق طويلا والحمل ثقيلًا بحيث وجب علينا أن نستريح
جملة مرات . وأخيرا وصلنا مضعضعين من التعب . واتضح لنا للأسف
الشديد أننا نعرف ذلك البيت تمام المعرفة . وان هذا الفلاح الذى كنا
نحملة هو ذلك الرجل بعينه الذى أحسن ضيافتنا فى أول يوم جئنا فيه
الى هذه المنطقة وهو الذى أرشدنا الى بيتكم . ولكن ظروف الحادث

والاضطراب الشديد لم يتح لنا معرفته من قبل . ولم يكن فى البيت الا طفلاه الصغيران . وكانت زوجته حاملا . فأفزعها المنظر ، وأخذها المخاض ، فوضعت بألم شديد بعد بضع ساعات . فماذا كنا نصنع فى ذلك الموقف فى كوخ منعزل لا أمل أن نجد فيه من يعين أو يسعف ؟ لقد قرر اميل أن يعود الى الحصان المربوط فى الغابة فيركبه الى المدينة ليأتى بطبيب . وأعطى الحصان للطبيب ثم عاد على قدميه . بعد أن أرسل اليك من المدينة رسولا خاصا يطمئنك . وأما أنا فكنت أقوم طوال الوقت بخدمة الرجل الجريح والمرأة النفساء . ولا أريد أن أمضى فى التفاصيل لأنها ليست موضوعنا الأصلي ، ولكنى أقول لك فقط ان اميل عاد من المدينة بعد الساعة الثانية صباحا . وقضينا الليل فى استراحتنا بالقرية . انتظارا لساعة يقظتكم كى نحضر ونودى لكم حسابا عن هذا الحادث .

وسكت . ولكن قبل أن يتكلم أحد اقترب اميل من حبيبته وقال لها بحزم وثبات :

— فى استطاعتك أن تقتلينى غما وألما . ولكن لا يمكنك أن تنسينى واجباتى الانسانية . فهى أقدم من واجباتى نحوك . ولن أنزل عنها من أجلك .

ولم تجبه صوفى بكلمة . بل نهضت وطوقت عنقه بذراعاها وقبلت وجهه ثم مدت اليه يدها برشاقة لا نظير لها وقالت له :

— خذ هذه اليد يا اميل . فهى لك . وكن متى شئت زوجى وسيدى . فسأجتهد أن أكون جديرة بهذا الشرف .

وما ان قبلته بعد ذلك . حتى استخف باييسها الطرب فصفق بيديه صائحا :

— أعد .. أعد ! .

ولم تخيب صوفي رجاءه . فقبلت وجنة اميل الأخرى قبلتين . ثم خجلت فجأة وهربت الى حضن أمها ودست في صدرها الأموى وجهها المحتقن بحمرة الخجل .

ولا يمكننى أن أصف السرور الذى ساد الجميع . وان كان فى وسعكم أن تتصوروه . وبعد الغداء سألت صوفى هل يبعد المكان كثيرا لأنها تريد أن تزور الزوجين المسكينين . ووافق والداها . لأن عمل الخير دائما يستحق التحييد .

ودّهبنا فوجدنا الزوجين فى سريرين منفصلين ومن حولهما جماعة من الناس ، يقومون على خدمتهما ، كان اميل قد كلفهم بذلك . ولكن المريضين لم يكونا مستريحين بسبب الألم وبسبب وجود الغرباء . فارتدت صوفى ميدعة . وقامت على تمهيد فراش النفساء . ثم فراش الرجل . وأعانت برقتها وحنانها على تعديل وضعه بما خفف عنه وكأن هذه الفتاة تعرف بالنظر موضع الألم وموضع الراحة .

وبلغ من رقتها أنها — وهى العزوف الأنوف — لم تتراجع أمام الرائحة الكريهة وقذارة المكان . فكأنها ملاك من ملائكة الرحمن فى حنانها ورحمتها وبرها . وكانت نظرات المريضين تنطق بذلك .

وعندما تم تعبيد المولود . قام الحبيبان بكفالاته . وهما يتحرقان فى أعماق قلوبهما على انجاب مثله .

وخطر لى أن على واجبا خاصا فى هذه المرحلة من العلاقة بينهما . قاتتهزت فرصة انقضاء يومين من غير زيارة لدار صوفى ودخلت عليه حجرته وفى يدي رسالة . وقلت له وأنا أنظر اليه بامعان :

— ماذا أنت صانع ان جاءك أحدهم بنعى حبيبتك ؟ .

فصرخ صرخة عظيمة ونهض يحملق فى وجهى فزعا . فقلت :

— أجب ماذا أنت صانع ؟ .

فضايقه وأذهله هدوئى . واقترب منى وقد احمرت عيناه غيظا .
وظهر الوعيد فى هيئته وقال :

— ماذا أنا صانع ؟ لست أدرى . ولكنى على كل حال لن أرى
ما حيت من يأتينى بهذا النبأ .

فقلت له وأنا أبتم :

— رويدك . انها بخير . وتفكر فيك . وتنتظرنا هذا المساء . ولكن
هيا الآن تمش قليلا وتحدث .

ان غرامه الذى يشغل قلبه لم يعد يسمح له بمحادثات عقلية خالصة
كذى قبل . فيجب لذلك أن نستغل غرامه نفسه فى اثاره اهتمامه
بدروسه . وهذا ما فعلته بذلك التمهيد المروع . ولذا كنت واثقا أنه
سيصغى جيدا لما أقول :

— اننا يا عزيزى اميل يجب أن نكون سعداء . فهذه هى غاية كل
كائن عاقل حساس . وهى أول رغبة تفرضها علينا الطبيعة ولا تفارقنا هذه
الرغبة اطلاقا . ولكن أين السعادة ؟ من الذى يعرف أين هى ؟ ان كل
انسان يبحث عن السعادة . وما من أحد يعثر عليها . ويقضى الناس
حياتهم فى نشدانها . ثم يموتون من غير أن يبلغوها . اننا ما دمنا نجهل
ما يجب علينا أن نعمله فالحكمة تقضى بأن نكف عن العمل . وهذا
هو المبدأ الذى يجب أن يرعاه الانسان . ولكنه يتجاهله أو يجهله . فان
البحث عن السعادة من غير أن نعرف أين هى قد يعرضنا للبعد عنها .
ولكن ليس فى استطاعة كل انسان أن يكف عن العمل . ولهذا يفضل
الناس العمل مع الضلال على الركون الى السكون . والقعود عن التنقيب .
ولذا سأجتهد أن أتجنب الضلال فى البحث عن السعادة لك . وقد تحررت
منذ البداية أن أجنبك كل خطوة لا لزوم لها . والتزمت طريق الطبيعة

ليقيني أن الطبيعة هي التي ستدُلنا على طريق السعادة . فإن السعادة ان وجدت لا يمكن أن تجافي الطبيعة . ولهذا شُيبت يا بني برئنا من الحقد ومن العبودية ، حرا راضيا عادلا طيبا نزيها . ذلك أن العناء والألم يولدان الرذيلة . فالإنسان لا يغدو شريرا الا عندما يكون شقيا . وقد قضيت طفولة سعيدة . وأرجو أن تمتد ذكراها الى أيام شيخوختك . وأنا واثق أنك كلما ذكرت تلك الطفولة استمطرت على أستاذك البركات . وقد علمت عندما شُيبت عن الطوق كيف تشب محبا للحق والخير ، تتجدد للألم وتحب العمل وتقرأ كتاب الطبيعة الكبير . وتتحكم في عواطفك . وتتقشف ولا تعرف انحلال الترف . فليست هناك سعادة بغير شجاعة ولا فضيلة بغير كفاح وصراع . والفضيلة والقوة صنوان . فالفضيلة لا يمكن أن يتصف بها الا كائن ضعيف بطبيعته قوى بإرادته . فالرجل الفاضل حقا هو الذي يعرف ، كيف يقهر عواطفه وشهواته . لانه عندئذ يستلهم عقله وضميره . ويقوم بواجبه ويلزم جادة النظام . فلا يحمله على تكبها شيء . وقد كنت يا بني فيما مضى حرا حرية العبد الذي لا تكليف عليه . أما الآن فستكون حرا حقا . ستكون سيد نفسك بأن تتحكم في قلبك وعواطفك . فبهذا يا اميل تغدو رجلا فاضلا حقا . وهذا نوع جديد من الكفاح يحتاج الى رياضة أشق من رياضاتك الأولى . فإن الرياضة على متاعب الطبيعة الخارجية تساعدنا عليها الطبيعة . أما ما يأتينا من أنفسنا فلا شأن للطبيعة به وأمره موكول اليها كلية . فالشهوات منا لا من الطبيعة . ولهذا فالينا كل أمرها . وعلينا أن نقاومها مستقلين بجهدنا . وقد كان تعلقك بصوفى أول عاطفة لك وهي عاطفة جديرة بك . فاجتهد أن تكون هذه العاطفة هي الأخيرة كما أنها الأولى . فهي عاطفة نقية نقاء نفسيكما . فاحرص عليها ولا تزل بك القدم في شهوات غير نقية . وانه من الخطأ أن تقسم العواطف الى حلال وحرام .

فستسلم للأولى ونمتنع عن الأخرى . فكل عاطفة طيبة ما دمنا مسيطرين عليها . وكل عاطفة شريرة سيئة ما دمنا مستعبدين لها . فما يجافى الطبيعة هو التمادى فى العاطفة حتى تتجاوز مدى قدرتنا . ويفلت زمامها من يدها . فنشتهي ما ليس فى وسعنا . أو ما يحرمه علينا الضمير النقى . ولكن لم يكن فى مقدورنا ان نهوى أولا نهوى . ففى مقدورنا أن نسيطر على هوانا . فهذه هى الفضيلة جمعاء . أجل ان كل عاطفة تسيطر عليها مشروعة . وكل عاطفة تسيطر علينا آثمة . فالرجل الذى يجب زوجة رجل آخر ليس آثما ما دام يخضع هذه العاطفة الشقية لسلطان الواجب والضمير . ولكنه يكون آثما ان أحب زوجته هو الشرعية الى درجة اهدار كل اعتبار فى سبيل ذلك الحب . فكن رجلا وتحكم فى قلبك . وادرس حدود ارادتك جيدا كى تحبس عاطفتك داخلها جيدا . فانك ان فعلت ذلك كنت فاضلا وعشت سعيدا . ولا تعلق قلبك بالجمال الذى يزول . ولا تتطلع الى رغبات تتجاوز قدرتك . وقدم واجبك قبل هواك . واجعل الأهم فى كل شئ قبل المهم وكن مستعدا فى كل وقت للنزول عن كل ما هو عزيز عليك متى أوجبت الفضيلة ذلك . فانك ستكون عندئذ سعيدا رغم قسوة الأيام . حكيما رغم ثوران العواطف . وفى رخائك ستكون أنت مالك مالك ، وليس مالك هو الذى يملكك . ولن يزعجك فراق ملذاتك المادية ، فان الحكيم لا تعظم عنده الدنيا ، ولا يأسى على فراقها .

وكان اميل يصغى بانتباه وقلق لما أقول . وكان يتوقع خاتمة كئيبة على ضوء تمهيدى القاسى فسألنى :

— ما هو هدفك من هذا الكلام ؟ ماذا تريدنى أن أصنع على سبيل الرياضة التى أشرت اليها ؟ رياضة التحكم فى عواطفى وقلبى حتى تتجاوز حجبى حدود ارادتى ، ولا يفلت زمامه من يدي ؟ .

— ما أريده منك أيها العزيز . بل ما أوجبه عليك ، هو فراق صوفى ! .

— ماذا تقول ؟ أفارق صوفى ؟ أفارقها ؟ أكون خائنا مخادعا ندلا حائنا بالعهد ؟ .

— بل ماذا تقول أنت ؟ أمني أنا تخشى يا اميل أن تتعلم هذه الأمور ؟ .

— لن أتعلمها منك ولا من سواك . لن أفعل ذلك الذى تطلبه منى محافظة على ما غرزته فى نفسى من المبادئ .

و كنت أتوقع تلك الثورة فتركته حتى هدا . ثم قلت :

أعتقد يا اميل أن انسانا فى الدنيا أسعد منك فى هذه الشهور الثلاثة الأخيرة ؟ انك قد تذوقت السعادة . بل أتيت عليها كلها واستنفدتها قبل أن تذوق لذات الحياة . فليست هناك سعادة وراء ما ذقته حتى الآن . لأن لذة البدن عارضة وتقلل دائما من لذة القلب . وأنت قد تمتعت عن طريق الأمل بما لم تتمتع به عن طريق الواقع . ولو أمكن أن تدوم هذه الحالة بينكما لوصلت الى السعادة العليا . بيد أن الانسان فان . وكل شىء فى حياته عارض . واذا طالت حالة السعادة عليه ذهب التعود بطعمها . وعندئذ يتغير القلب وهكذا ابن آدم ، ان لم تتركه السعادة تركها وها هو الوقت يمر سريعا من غير أن تحس به . انقضى الصيف واقترب الشتاء . فيجب أن نغير نظام معيشتنا لأن هذا النظام الحالى لا يمكن أن يدوم .. ولو تتجنب رحلاتنا اليومية فى ثلج الشتاء . وان كنت أحسبك تستهين بالثلج فى سبيل رؤيتها . انك تريد أن تتزوج صوفى . وقد تفكر فى التعجيل فى الزواج الآن حالا لشكال الشتاء والجليد والقال والقيـل . ولكنك لم تعرفها الا منذ خمسة شهور أو أقل . تريد أن تتزوجها لا لأنك تراها ملائمة

صالحة لك . بل لأنها تروق لك . كأنما الحب لا يخطيء في تقريب المتباينين غير المتلائمين . وكأنما الزواج القائم على الحب يستحيل أن ينقلب الى كراهية! أنا أعترف أنها فاضلة . ولكن هذا لا يكفي ؟ هل يكفي الشرف كى يصلح أساسا للمعاشرة وملاءمة الطباع ؟ ان طبع المرأة لا يبدو فى يوم وليلة وأربعة شهور لا تصلح أساسا للحكم على العمر كله . وربما كان غياب شهرين كافيا كى تنساها . وربما كان غيابك فرصة لرجل آخر كى يجلبك عن قلبها . وربما عدت بعد شهرين لتجدها فاترة نحوك . فالعواطف لا تعرف المبادئ . ومن الجائز جدا أن تظل شريفة وقد أقلعت عن حبك . وان كنت أرجح أنها ستظل أمينة لعهدك . ولكن من يدريك ؟ لابد من التجربة والتجربة خير برهان . فأقدم على التجربة بنفسك الآن ، قبل أن تفرض التجربة نفسها عليك بعد فوات الأوان ، ان صوفى فى الثامنة عشرة من عمرها . وأنت لم تكد تجاوز الثانية والعشرين . وهذه سن الحب ولكنها ليست سن الزواج . فأى أب وأى أم ستكونان ؟ يجب على الأقل لكى تقدما على تربية الأطفال أن تتجاوزا أمتما مرحلة الطفولة . أتعرف أن الحمل قبل النضوج يضعف التكوين ويقصر عمر المرأة ؟ وان ذلك يؤثر فى صحة الأطفال ؟ ان الأم التى تحمل يتوقف نموها . لتغذى طفلها . فيجب ألا تحمل المرأة قبل تمام نموها . فمن أجل حبها ومصحتها يجب أن تؤجل هذا الزواج . ثم يجب أن تتأنى من جهتك الى أن تتقن واجبات الزوج والأب . فمتى أصبحت زوجا ورب أسرة أصبحت عضوا فى الدولة . فيجب أن تعرف ما هى الدولة كما عرفت واجبك كإنسان . وأن تعرف ما الحكومة وما الوطن . ولا يكون ذلك الا عن طريق الرحلة والاسفار ودراسة نظم الحكومة . لهذا يجب أن تفارق صوفى . وأقول تفارقها الى حين . ولا أقول تتخلى عنها أو تهجرها . بل تغادرها كى تعود اليها وأنت أجدر بها . وتطلب يدها وأنت على ثقة من سعادتك واسعادها .

وخطر لاميل العاشق الساذج حل فقال متوسلا :

— أتزوجها ونسافر معا ! .

— ان الرحلة واجبة كى تصبح جديرا بالزواج منها .

— اذن أتزوجها ثم أسافر . وقد اطمأنتت واطمأنت .

— أتزوجها ثم تتركها يا عزيزى اميل ؟ أفهم أن يعيش محب بعيدا عن حبيبته . أما أن يعيش زوج بعيدا عن زوجته بغير عائق ضرورى فأمر لا أفهمه ولا أعقله . وكى أهون عليك الأمر وتكون صادقا حين تقول لصوفى انك مضطر لفراقها مؤقتا ، سأذكرك بوعدك أن تطيعنى الى أن تتزوج . وأنا آمرك الآن بفراق صوفى .

فغض بصره وشرد لحظة ثم قال بثبات .

— ومتى نرحل ؟ .

— بعد ثمانية أيام . اذ يجب اعداد صوفى لهذا الرحيل . فالنساء

ضعيفات ويجب أخذهن بالرفق وتخفيف وقع الصدمة عليهن .

وكان وقع الصدمة على صوفى شديدا حقا . ولكنها تجلدت مستعينة بقدرة النساء الفطرية على اخفاء شعورهن . وقمت أنا بالترفيه عنها مؤكدا لها أن اميل سيظل محافظا على عهدها .

وكان الوداع شاقا على نفسى . ولا سيما عندما قبلتنى صوفى وأوصتنى والدمع يسيل من عينيها أن أسهر على اميل وأرعاه .

وكان وداعها لأميل بالغا حد الروعة . فقد شحب وجهها وغامت عيناها . وتناول يديها يضمهما الى قلبه وقد تحولت الى تمثال من الأملى واللوعة .

الأسفار

يتساءل الناس هل من المفيد للشبان أن يسافروا ، وقد كثر خلافهم في هذا الموضوع .

والحقيقة أن اساءة استخدام الكتب تقتل العلم ، لأن القارىء يخال أنه يعلم ما قرأه ، فيعتقد أنه معفى من تعلمه . والحق أن الافراط في القراءة لا يؤدى الا الى خلق الأدعياء الجهلاء . فعصرنا هو أكثر العصور الأدبية نصيبا من عدد القراء ، ومع هذا فهو أقل العصور نصيبا من عدد العارفين .. وليس في جميع دول أوروبا دولة يطبع فيها أكثر مما يطبع في فرنسا من التاريخ وكتب الأسفار والرحلات . ومع هذا فليس هناك بلد أقل من فرنسا معرفة بخصائص الشعوب الأخرى وأخلاقها . فان تلك الكتب تجعلنا نهمل كتاب الدنيا الكبير ، وحتى حين نقرأ ذلك الكتاب ، يتمسك كل واحد منا بالصفحة التي يقف عندها ولا يتجاوزها .

ان الباريسى يعتقد أنه يعرف البشر عموما . مع أنه لا يعرف الا الفرنسيين . وهو في مدينته الحافلة بالأجانب ينظر الى الأجنبى كأنه ظاهرة خارقة لا نظير لها في الدنيا . ومن رأى أهالى الطبقة الوسطى في تلك المدينة الكبيرة وعاشرهم سيدرك مدى ما هم عليه رغم ذكائهم من غباوة وقلة فطنة . والغريب أن كل واحد منهم قرأ عشر مرات على الأقل وصف بلد ذلك الأجنبى الذى يدهشه كل تلك الدهشة .

وانها لمهمة شاقة أن يقاوم الانسان المزاعم التى يوردها المؤلفون ، ومزاعمه الشخصية ، كى يصل الى الحقيقة . وقد قضيت عمري أطالع كتب الأسفار . ولم أجد من بينها كتابين يعطيان فكرة واحدة عن شعب

بعينه . وحينما أقارن القليل الذى أمكننى ملاحظته بنفسى بما قرأته فى تلك الكتب ، أجدنى نادما على ما أضعته من وقتى فى مطالعة كتب الرحالين . ويزداد اقتناعى بأن تلك الموضوعات لا يجمّل تحصيلها بالقراءة ، بل بالمشاهدة .

ولو أن جميع الرحالين أخلصوا وصدقوا ، لما قالوا الا ما رأوا وما اعتقدوا . ولم يوهوا الحقيقة الا بالألوان الخادعة التى تتراءى بها لعيونهم .

فلنترك إذن الكتب ومطالعتها لأولئك الذين يقنعون باستقاء معلوماتهم منها . فهى لا تصلح الا لحشو أذهان وشقشقة لسان .. فأنا أو من أيماننا راسخا بأن الشخص الذى لم ير الا شعبا واحدا لا معرفة له بالبشر . فحينما يتساءل بعضهم عن جدوى الأسفار للشبان ، يجب أن يتساءلوا من باب أولى : هل يكفى للرجل الحسن التريبة أن يعرف مواطنيه فحسب ؟ أم ينبغى له أن يعرف البشر عموما ؟ .

والسؤال بهذه الصيغة لا يشير خلافا ، ولا يبعث على الريب والشقاق .

ولكى ندرس البشر . أيجب علينا أن نجوب الأرض كلها ؟ هل يجب أن نذهب الى اليابان وأن ندرس جميع أفراد السلالة ؟ .

والواقع أن هناك أناسا يتشابهون جدا . حتى انه لا لزوم لدراستهم فرادى . فمن رأى عشرة فرنسيين فكأنه رأى الفرنسيين جميعا . ولكن هذا لا يصدق تماما على الانجليز ، وعلى بضعة شعوب أخرى . وان صح أن لكل شعب طابعه الخاص المميز الذى نستخرجه بالاستقراء ، لا بملاحظة فرد واحد ، بل بملاحظة أفراد عديدين ، وليس يكفى للثقف أن نجوب الأقطار والديار . بل يجب أن نعرف كيف نسافر . فمن يلاحظ يجب أن يكون له عينان . وأن يدير عينيه نحو الموضوع الذى يريد معرفته . فهناك

أشخاص كثيرون تعلمهم الأسفار أقل مما تعلمهم قراءة الكتب . لأنهم يجهلون فن التفكير . وهم حينما يقرأون الكتب ينقادون على الأقل لعقل المؤلف . اما حين يسافرون فلا يعرفون كيف يشاهدون ويلاحظون.. لأن فطنتهم الشخصية كليلة .

وكان الأقدمون قلما يسافرون . وقلما يطالعون . وقلما يؤلفون . ولكن يتضح من القليل الذى بقى لنا من آثارهم أنهم كانوا يحسنون الملاحظة فيما بينهم خيرا مما يحسن مواطنونا ملاحظة مواطنيهم . ولا حاجة بنا للإفعال الى هوميير . الشاعر الوحيد الذى ينقلنا الى الموضع الذى يصفه بقوافيه . اذ يكفى أن نرجع الى هيرودوت . فلا يستطيع أحد أن ينكر عليه براعته فى تصوير الطباع والأخلاق فى تاريخه . مع أنها ترد على سبيل السرد لا على وجه التعليق والتأمل . وهو يجيد ذلك خيرا مما يجيده مؤرخون على كثرة حشد كتبهم بالصور والنماذج .

وتاسيتوس أحسن وصف الجرمان فى زمنه . خيرا من أى كاتب وصف الألمان فى زماننا هذا . ولا شك فى أن المتضلعين فى التاريخ القديم يعرفون الاغريق والقرطاجنيين والرومان والغال والفرس خيرا من معرفة الشعوب المعاصرة لجيرانهم .

ويجب الاعتراف بأن الخصائص الأصلية للشعوب تتلاشى يوما بعد يوم . ويصبح من العسير ادراكها والفتنة اليها . فالأجناس تختلط وتتزوج . والشعوب تتداخل ، وبهذا يختفى التباين القوى الذى كان يلفت النظر فيما مضى لأول وهلة . ففى الزمن الغابر كانت كل أمة تظل مغلقة على نفسها . لأن المواصلات كانت أقل مما هى اليوم . والأسفار أقل . والمصالح المشتركة أو المتعارضة أقل أيضا . والعلاقات السياسية والمدنية بين شعب وشعب معدومة . وكذلك المحادثات والمفاوضات الملكية المألوفة اليوم . والسفارات العادية أو المقيمة باستمرار . وأما الرحلات

الملاحية الكبيرة فكانت نادرة . وكذلك التجارة البعيدة . فالتاجر البعيدة كانت ان حدثت تحدث لحساب الأمير نفسه . والأمير يستخدم عادة الأجانب أو التافهين الذين لا يؤدون صورة صادقة للشعب . واما اليوم فالعلاقات بين آسيا وأوروبا أكثر ألف مرة مما كانت بين الغال وأسبانيا . فأوروبا وحدها كانت أكثر تشتتا من الأرض بأكملها في وقتنا الحاضر . وقد يقال ان لدينا اليوم علماء يسافرون لتحصيل الثقافة . وهذا خطأ . فالعلماء يسافرون طلبا للمصلحة مثل سائر الناس . فلم يعد اليوم وجود الأمثال افلاطون وفيثاغورث . لأن علماءنا لا يسافرون الا بأمر من البلاط الملكي الذي يرسلهم ويدفع لهم الأجر لمشاهدة كذا وكيت . وهم قوم أمناء للأجر الذي يتقاضونه . فيحصرون مشاهدتهم فيما كلفوا به .

وهناك فرق جسيم بين السفر لمشاهدة بلد ومشاهدة شعب . فمشاهدة بلد أمر يهتم به المتفكرون والمستطلعون . ولا يهمهم الشعب الا في المرتبة الثانية . اما من يسافرون طلبا للحكمة فهم عكس ذلك لأن الطفل يلاحظ الأشياء الى أن يكبر فيلاحظ الناس . أما الرجل فيجب أن يبدأ بملاحظة الناس . وان بقي من وقته شيء لاحظ الأشياء .

فمن سوء التفكير أن يقال ان الأسفار لا فائدة منها . تأسيسا على أننا نسيء السفر . ولكن متى اتفقنا على جدوى الأسفار ، هل يتبع ذلك أن الأسفار تلائم جميع الناس ؟ .

هيهات ! انها لا تلائم الا أقل القليل من الناس . لا تلائم الا ذوى الحزم والصرامة على أنفسهم بحيث يستخلصون من أخطاء الشعوب دروسا من غير أن تعويهم تلك الأخطاء . فينساقوا اليها . وبحيث يجدون العبرة من الآثام والردائل ، من غير أن ينزلقوا اليها . ذلك أن الأسفار تدفع بالفطرة الى نهايتها القصوى . فتتم على الرجل صلاحه أو فساد

الفطرى . فمن عاد من الجولان فى الأرض عاد مالكا لصورته التى سيقى عليها ما عاش . فاما صالحا واما فاسقا بصورة واضحة .

ان الشاب الذى ساءت تربيته يجد فى الأسفار مجالا فسيحا لاشباع بؤادر فسادة . فيلتقط من الشعوب التى يخالطها شر ما لديها . اما الشاب الذى حسنت تربيته فيسافر بقصد الثقيف . ويعود من أسفاره وقد تمت له الحكمة والفضيلة عن طريق ميدانها الفسيح .

وعلى هذه الصورة ستكون أسفار اميل .

ان كل ما يصنعه العقل يجب أن يخضع لقواعده . ومتى اعتبرنا الأسفار جزءا من التربية فيجب أن تكون لها قواعدها .

ان من يسافر بقصد السفر انما هو جوال آفاق . اما من يسافر بقصد الثقافة فلا بد أن يكون له موضوع معين . لأن الثقافة التى لا هدف لها بالذات ، ليست شيئا على الاطلاق . ولهذا أود أن يكون للشباب اهتمام محسوس بالثقافة . وهذا الاهتمام المختار اختيارا جيدا هو الذى يحدد طبيعة ثقافته . وهذا الاهتمام يجب أن يكون على صورة مصلحة . واثارة الاهتمام أو المصلحة هى الأسلوب الذى حاولت دائما تطبيقه فى التربية .

والآن وبعد أن عالجت العلاقات المادية بينه وبين نظرائه من الكائنات، والعلاقات الأخلاقية بينه وبين سواه من الناس . يتبقى أن نعالج علاقاته المدنية مع مواطنيه . ولهذا يجب أن يبدأ بدراسة طبيعة الحكومة على العموم . والصور المختلفة للحكومة . والحكومة المعينة التى ولد فى ظلها . كى يرى اميل هل من المناسب له أن يعيش فى ظلها أم لا . ذلك أن هناك حقا لا يمكن أن ينقض لكل انسان متى بلغ رشده وملك زمام أمره ، أن يكون حرا فى التنازل عن العقد الذى يربطه بالمجتمع المعين ، وذلك بمغادرة الاقليم الذى يستوطنه ذلك المجتمع .

وتعتبر الإقامة في ذلك الاقليم بعد بلوغ الرشد تأكيداً ضمنياً للارتباط الذي تعهد به أجداده قبل ولادته . وحق البالغ من التنازل عن وطنه مثل حقه في التنازل عن ميراث أبيه . فإن محل الميلاد هبة من الطبيعة . وكل انسان حر في رفض التقيد بمحل ميلاده الا باختياره .

سأقول لأميل اذن ، على سبيل المثال :

— انك عشت حتى الآن تحت رعايتي . لانك كنت قاصراً عن توجيه نفسك وحكم نفسك . بيد أنك تقترب الآن من السن التي تتيح لك الشريعة فيها التصرف في أموالك والتصرف في شخصك . وستجد نفسك وحيداً في المجتمع . ويجب قبل أن تتزوج أن تعرف أى رجل تريد أن تسمى . وفيه تريد أن تقضى حياتك . وما هي الوسائل التي تعزم اتخاذها لكسب معاشك ومعاش أسرته . فمع أن هذه المسألة الأخيرة ينبغي ألا تكون هي المشغلة الأولى أو الوحيدة الا أنها ينبغي أن تعالج وتسوى مرة واحدة . فهل تريد أن تعيش تابعا لقوم تبغضهم؟ أم تريد أن تمارس العلاقات المدنية التي تجعلك تحت رحمة غيرك ، وتجبرك على أن تكون لصاً كي تنجو من شر اللصوص ؟ .

وعندئذ سأوضح له وسائل توظيف ثروته سواء في التجارة أو الأعمال المالية . وسأبين له أن جميع تلك الوسائل لا تخلو من مخاطرة . ومن ارتباط وتبعية . بحيث يتقيد في اخلاقه وعواطفه وسلوكه بالآخرين . سأقول له :

— وهناك وسيلة أخرى هي دخول الخدمة العسكرية . أى تأجير شخصك بأجر طيب جداً ، كي تقتل قوما لم يتعرضوا لك بأذى من أى نوع . وهذه المهنة لها مقام كبير لدى الناس . وهم يحترمونها احتراماً فائقاً من لا يصلحون الا لذلك العمل . وسترى أن هذه المهنة لا تستلزم من أصحابها شجاعة أو بسالة أو جرأة الا لدى النساء . فأقل الناس

شرفا وكرامة سيكون أحسنهم وصولا الى الخطوة والتكريم . أما من يتعرف الى اجادة مهنته العسكرية فحسب فيمسي أضحوكة زملائه . وربما طرد من الخدمة . فميدان الجندية الأكبر ليس الخنادق بل حجرات الزينة ومخادع النساء ! .

وأنا واثق أن جميع هذه الأمور سوف لا تجد هوى من اميل . وأحسبه سيقول لى :

— وهل نسينا ألعاب طفولتى ؟ وأين ذراعاى ؟ وأين قوتى ؟ أأستأخذق أنواع الصنائع ؟ فلماذا أهتم بتلك الوظائف الوجيهة ولماذا أكثرث لآراء الناس البله . انى لا أعرف مجدا ولا جاها الا جاه عمل الطبيب والاحسان والعدل . ولا أعرف سعادة الا سعادة حياة الاستقلال مع من أحب ، أكسب كل يوم مزيدا من الصحة ومن الشهية لنهوضى بالعمل . فجميع الأعمال التى حدثتني عنها لا تغرينى . وكل مرادى من الدنيا ضيعة صغيرة فى ركن من أركان الدنيا . أصرف همى الى زراعتها وأعيش بلا هموم . بين صوفى وحقلى . وذلك حسبى من غايات الشراء .

— اجل يا صديقى . هذا كاف لسعادة رجل حكيم . ولكن الحقل والمرأة المخلصة شيان نادران . أندرمما تظن وأندرهما المرأة وقد وفقك الله اليها . بقى أمر الحقل الذى تشعر به خالصا لك وحدك . فأين عساك تجده يا عزيزى اميل وفى أى موضع تختاره ؟ فى أى ركن من الأرض تستطيع أن تقول أنا السيد هنا . سيد نفسى وسيد هذه الأرض ؟ انك قد تجد الأرض الخصبة ولكنك لم تجد الحرية فيها والاستقلال عن الناس والسلطان . أنظن أنه من اليسير أن يجد الرجل الشريف أرضا يتاح له فيها أن يظل شريفا . بمنجاة من الدسائس والقضايا والقيود التى تفرضها السلطة على الحرية ؟ أين هى الدولة التى يستطيع أن يقول فيها الانسان ان الأرض التى أزرعها لى وحدى ؟ يجب يا اميل قبل أن يقر

قرارك على اختيار الحقل أن تتأكد من ضمان حريتك وأمنك فيه .
فلا تغتصب الحكومة حريتك . ولا ترهقك سلطات الدين . ولا تكبلك
أحكام العرف السائد . يجب أن تكون بمنجاة من الضرائب الباهظة التي
تأكل ثمرة بكذك والقضايا التي تأكل رأس مالك . وموظفى الحكومة
الذين يغتصبون مالك بالرشوة ، والجيران الأقوياء الذين يكلفونك من
أمرك رهقا . انى أكثر منك خبرة يا اميل . ولهذا أدرك ما فى رغبتك
من عسر ومشقة ، على ما فيها من شرف وإخلاص وامانة . ولو تحقق لك
ذلك لمت سعادتك فيها بنا نخصص السنتين القادمتين للبحث عن الدولة
التي تسمح لك نظمها بهذه الحرية حين تختار حقلا فى أرضها لتزرعه
بيديك . سنجوب كل أوروبا بحثا عن هذا الملاذ المنشود الذى تتحصن
فيه سعادة أسرته من الظلم والجور بجميع أنواعهما .

ولست أدري هل فطن جميع قرائى الى أى مدى سيسوقنا هذا
البحث الذى اقترحته على اميل ولكنى أعلم جيدا أنه ان لم يعد من
هذه الأسفار متضلعا فى جميع شئون الحكومات والعرف العام والأخلاق
ونظم الدولة ، فمعنى ذلك حتما أن أحدها — هو أو أنا — محروم من
الذكاء أو الفطنة .

ان القانون السياسى لم يزل فى مرحلة الولادة . بل انه لم يولد
بعد . وربما طال المخاض فلم يولد اطلاقا . وجروتىوس أستاذ جميع
العلماء فى هذه الناحية ليس الا طفلا . وأسوأ من هذا أنه طفل سيىء
النية . وعندما أسمع أحدا يرفع جروتىوس الى عنان السماء — ويمطر
هوبز باللعنات ، أدرك على الفور مدى قلة ذوى الرأى الذين يقرأون
 ويفهمون حق الفهم هذين المؤلفين .

والحقيقة أن مبادئ المؤلفين واحدة تماما . ولا خلاف بينهما الا فى

التعبير . انهما مختلفان أيضا من حيث المنهج . ذلك أن هوبز يعتمد في كتابته على الأغاليط . وجروتيوس يعتمد على أقوال الشعراء . وفيما عدا ذلك فكل شيء بينها سواء .

والمحدث الوحيد الذى كان بوسع أن ينشئ هذا العلم العظيم هو مونتسكيو المجيد . بيد أنه اكتفى بإثبات القانون الذى تسير عليه الحكومات القائمة ولم يتكلم فى مبادئ القانون السياسى من حيث هو . وشتان بين هذين الموضوعين .

وان من يريد أن يحكم حكما صائبا على الحكومات كما هى كائنة، ملزم أن يجمع بين الدراستين . فيجب أن يعرف ما ينبغى أن يكون كى يحسن الحكم على ما هو كائن . والصعوبة العظمى فى اثاره اهتمام فرد بمناقشة هذين السؤالين والاجابة عنهما : ماذا يهمنى ؟ وماذا أستطيع أن أفعل فى هذا الموضوع ؟ .

وقد وضعنا اميل فى موقف يجره الى الاجابة عن هذين السؤالين معا .

والصعوبة الثانية تأتى من مزاعم الطفولة والمبادئ التى يربى عليها الشخص ومن انحياز المؤلفين الذين يتحدثون دائما عن الحقيقة من غير أن يهتموا بها اطلاقا ، وانما اهتمامهم كله بمصالحهم التى لا يتحدثون عنها ولا يجرون لها ذكرا . فالشعب لا يمنح كراسى الجامعات ولا المعاشات ولا كراسى المجامع العلمية والأكاديميات . فكيف يمكن أن يقيم هؤلاء المؤلفون حقوق الشعب السياسية ؟ .

وقد دبرت الأمر بحيث ألغى هذه الصعوبة بالنسبة لاييل فقد نشأ طفلا لا يعرف ما هى الحكومة . وكل ما يهمنه من الأمر أن يعثر الحكومة الأفضل . وليس هدفه تأليف الكتب . وان ألف يوما كتابا فلن يكون هدفه منه التغزل فى ذوى السلطان . بل اقامة حقوق البشر .

وتبقى بعد ذلك صعوبة ثالثة ، وهى وضع قواعد للملاحظة قبل
الاقدام على الملاحظة وإيجاد مقياس تقاس به الأمور التى تكون موضوع
الدرس . ومبادئ القانون السياسى هى هذا المقياس . والموضوعات
التي ندرسها هى القوانين السياسية فى كل بلد على حدة .

والمبادئ واضحة سهلة مأخوذة مباشرة من طبيعة الأشياء . وستكون
موضوع مناقشة فيما بيننا نحن الاثنين . فمثلا سنعود أولا الى حالة
القطرة وسندرس ان كان الرجال ولدوا عبيدا أو أحرارا . مجتمعين
أو مستقلين . وهل يتجمعون باختيارهم أو قسرا . وهل القوة التى
تجمعهم يمكن أن تنشئ لها حقا دائما . بمقتضاه يكون لتلك القوة حكم
الالزام حتى عندما تتغلب عليها قوة لاحقة لها . أو أن تلك القوة الأولى
حينما تتغلب عليها قوة لاحقة تسقط . وعندئذ يكون الحكم للقوة
القائمة من حيث هى . ومعنى ذلك أن من استطاع مقاومة القوة القائمة
فهو فى حل من ذلك . وذلك قانون فيما يبدو لا يزيد كثيرا على القوة
الغاشمة وليس اسمه الا تلاعبا بالألفاظ .

وسنبحث أيضا هل يمكن القول أن كل مرض يأتى من الله . وهل
يترتب على ذلك أن تكون دعوة الطبيب جريمة . سنبحث أيضا هل
نكون ملزمين أمام ضميرنا باعطاء كيس نقودنا لقاطع الطريق متى طلبه
منا ، مع أنه فى استطاعتنا أن نخفيه عنه . ذلك أن المسدس الذى
يشهره فى وجهنا قوة كذلك .

فان كانت كلمة القوة فى هذه المناسبة يجب أن تعنى شيئا آخر
غير القوة الشرعية التى تخضع لقوانين تستمد منها كيانها قوة
غاشمة لا سند لها .

ولنفرض أننا طرحنا عنا فكرة الحق القائم على القوة . واننا قبلنا
قانون الطبيعة أو السلطة الأبوية أساسا للمجتمعات فيجب أن نبحث عن

مقياس هذه السلطة . وكيف تأسست في الطبيعة . وهل لها سند سوى منفعة الطفل وضعفه والحب الفطرى الذى يكنه أبوه له . وهل عندما ينتهى ضعف الطفل وينضج عقله يصبح هذا الطفل الحكم الطبيعى الوحيد الذى يقرر ما يلائم حياتهم . فيكون بذلك سيد نفسه مستقلا عن سائر الرجال . حتى عن أبيه . فانه من الثابت أن الابن يحب نفسه . وليس بمثل هذا الثبوت حب الأب لابنه .

وعندما يموت الأب ، يلتزم الأبناء طاعة أكبرهم . أو طاعة أحد سواه لا يكن لهم التعلق الفطرى الذى يكنه الوالد . ثم ان هناك لدى بعض الشعوب رئيسا أوحد تخضع له العائلة كلها وتطيعه . وعندئذ يجب البحث في كيفية توزيع السلطة . وبأى حق يكون في العالم كله أكثر من رئيس واحد يحكم الجنس البشرى .

ولنفرض أن الشعوب تكونت باختيارها . وأن الأطفال يخضعون لآخوتهم أو أعمامهم . لا قسرا بل باختيارهم . فهل هذا النوع من المجتمع يعتبر دواما في عداد التجمعات الحرة أو الاختيارية .

وننتقل الى حق الرق . فننظر هل يستطيع رجل شرعا أن يبيع نفسه الى رجل آخر بلا قيد ولا شرط اطلاقا . بمعنى أنه يتنازل عن شخصه له ، وعن حياته وعن عقله ، وعن ابنته ، وعن كل أخلاقيات أفعاله — أى يكف عن الوجود المستقل من غير أن يموت — مع أن الطبيعة كلفته مباشرة بحفظ ذاته . ومع أن ضميره وعقله يوجبان عليه ما يفعله وما يمتنع عنه .

وإذا كان العبد لا يستطيع بيع نفسه بلا تحفظ لمولاه . فكيف يستطيع شعب أن يبيع نفسه بلا تحفظ لحاكمه أو رئيسه ؟ وإذا ظل العبد حكما في ملاحظة عقده مع مولاه بحيث لا يتجاوز المولى حدود العقد ، فكيف يحرم الشعب من مثل ذلك الحق ازاء حاكمه أو رئيسه ؟ .

وسنكون ملزمين بالنظر في معنى ذلك اللفظ الجمعى للشعب . لنرى

هل يجب لقيامه أن يكون هناك عقد ضمنى على الأقل . اذ قبل اختيار الملك يكون الشعب شعبا . وكيف يكون شعبا من غير عقد اجتماعى بين أفرادة ؟ .

ان العقد الاجتماعى هو أساس كل مجتمع مدنى . ومن طبيعة هذا العقد يجب أن نستنبط طبيعة المجتمع .

وسنبث محتوى ذلك العقد . وهل يمكن التعبير عنه بهذه الصيغة :

— ان كلامنا يجعل فى الملك المشترك أملاكه هو شخصه وحياته وكل قوته ، تحت الادارة العليا للارادة الكلية العامة . وبحيث يعتبر كل منا جزءا غير متجزىء من الكل .

ومتى فرضنا ذلك ، سنلاحظ لكى نحدد الألفاظ التى نحتاج اليها ، أن ذلك العقد الاجتماعى ينشئ كيانا معنويا جمعيًا ، ولهذا الكيان أو الهيئة أعضاء بعدد أصوات الجمعية العمومية لذلك المجتمع . وهذا الشخص العمومى المعنوى يسمى عادة باسم الكيان السياسى . ويسميه أعضاؤه باسم الدولة حين يكون سلبيا ، وباسم السلطان حين يكون ايجابيا . وباسم القوة عند مقارنته بالكائنات السياسية الماثلة له . وأما أعضاء ذلك الكيان السياسى أنفسهم ، فيطلق عليهم مجتمعين اسم الشعب . ويطلق على كل فرد منهم اسم مواطن باعتبارهم مساهمين فى سلطان الدولة . ويطلق عليهم اسم الرعايا باعتبارهم خاضعين لسلطان الدولة .

وسنلاحظ أيضا أن العقد الاجتماعى يتضمن التزاما متبادلا بين الهيئة العامة وبين الأفراد . فان كل فرد كأنه يعقد العقد مع نفسه . فهو مرتبط من جهتين . باعتباره عضوا فى سلطان الدولة بازاء الأفراد ، وباعتباره عضوا فى مجموعة الرعية بازاء سلطان الدولة .

وسنلاحظ أنه لا يلتزم أحد الا بعقد عقده بنفسه . فالمشاورات العامة التي يمكن أن تلزم جميع الرعايا ازاء سلطان الدولة ، لا يمكن أن تلزم الدولة تجاه نفسها . وعلى ذلك ينعدم وجود أساس سليم سوى العقد الاجتماعي نفسه . وهذا لا يمنع الهيئة السياسية من الارتباط مع غيرها من الهيئات الأجنبية ، وكأنها فرد عادي .

وكل من الطرفين المتعاقدين ، أعني كل فرد من جهة ، والمجتمع من جهة أخرى ، ليس لهما سلطة مشتركة أعلى فهما تحسم ما بينهما من خلافات . ولهذا يجب أن نبحث هل من حق كل من الطرفين أن يفسخ العقد متى شاء . ويتنازل بذلك عن نصيبه وحقه ازاء الطرف الآخر .

ونزيد هذه النقطة ايضاحا . فنلاحظ أن السلطان بحسب العقد الاجتماعي لا يملك أن يعمل الا بالارادة المشتركة الكلية . وأفعاله ينبغي ألا يكون لها موضوع سوى الشؤون العامة الكلية . ويترتب على ذلك أن الفرد لا يجوز أن يضار بواسطة السلطان مباشرة . ما لم يتم الضرر بصفة عامة . وهذا مستحيل لأن معناه أن المجتمع يريد الضرر لنفسه . وعلى ذلك يكون العقد الاجتماعي مستغنيا عن أى ضمان سوى القوة العامة . لأن الضرر لا يمكن أن يحدث من القوة العامة بل من الأفراد . وفي هذه الحالة لا يكون الأفراد أحرارا أو متحررين من التزاماتهم العامة ، بل يجب عقابهم لأنهم انتهكوا التزاماتهم العامة .

ولكى نفصل في جميع هذه المسائل يجب أن نتذكر على الدوام أن العقد الاجتماعي ذو طبيعة خاصة به وحده . من حيث أن الشعب لا يتعاقد الا مع نفسه . بمعنى أن الشعب من حيث هو هيئة ذات سلطان تتعاقد مع الأفراد من حيث هم رعايا . وذلك شرط يعتبر أساس الجهاز كله . وهو الذي يجعل الالتزامات شرعية معقولة مجردة من الخطر . وهي بغير هذا الأساس تكون سخيصة استبدادية جائرة .

ان الأفراد لا يخضعون الا للسلطان الاجتماعي . ذلك أن هذا

السلطان ليس شيئاً سوى الارادة العامة . وسنرى كيف أن كل شخص مطيع للسلطان الاجتماعى لا يطيع فى الواقع الا نفسه . وكيف أن الانسان أكثر حرية بالعقد الاجتماعى مما كان فى حالة الفطرة .

وبعد أن نقارن الحرية الطبيعية بالحرية المدنية فيما يختص بالأشخاص سنقارن بينهما فيما يختص بالأموال . فندرس حق الملكية من حيث علاقته بحق السلطان . وندرس الملكية الخاصة من حيث علاقتها بالملكية العامة . وسنظر هل حق الملكية هو الذى قامت عليه قوة السلطان . وفى هذه الحالة يكون ذلك الحق مقدساً غير قابل للنقض ، أما اذا اعتبرنا حق الملكية حقاً عاماً لجميع المواطنين . فسيخضع للارادة العامة . ويكون من سلطة الارادة العامة أن تلغى حق الملكية عموماً . بمعنى أن السلطان ليس له أى حق فى المساس بملكية فرد أو جملة أفراد . ولكن له الحق شرعاً فى الاستيلاء على أملاك الجميع بلا استثناء . كما حدث فى أسبرطه أيام ليكرج . فى حين كان اقدام سولسون على الغاء الديون عملاً غير مشروع .

ومن حيث ان الرعايا لا يملك الزامهم الا الارادة العامة . فسنبحث عن كيفية ظهور هذه الارادة وعن العلامات التى نتعرف بها عليها وبماذا يكون القانون قانوناً . ما هو تعريفه وما هى خصائصه . وهذا البحث ظريف للغاية . لأن تعريف القانون لم يتم بعد .

وفى اللحظة التى يقيم الشعب اعتباراً خاصاً لفرد أو جملة أفراد من أعضائه ، ينقسم ذلك الشعب على نفسه . وينشأ بين الكل والجزء علاقة كأنهما كائنان منفصلان . وأحد الكائنين هو الجزء . والكائن الآخر هو الكل ناقصاً ذلك الجزء . بيد أن الكل ناقصاً جزءاً ، لا يكون كلا . بل يكون جزءاً . وبهذا تكون العلاقة غير قائمة بين الكل والجزء . بل بين جزأين غير متكافئين .

أما عندما يشرع الشعب للشعب كله . فهو لا يعتبر الا ذاته . وتكون

العلاقة علاقة بين الكل من جهة معينة مع الكل من جهة معينة أخرى . من غير انقسام أو تجزئة . فموضوع التشريع يجب أن يكون عاما . وكذلك الارادة المشرعة يجب أن تكون عامة . وسنبحث ان كان يمكن قيام نوع آخر من التشريعات يحمل اسم القانون .

ولما كان السلطان لا يستطيع أن يتكلم الا بقوانين . ولما كان القانون لا يمكن أن يكون له موضوع سوى الموضوع العام الذى يخص بالتساوى جميع أفراد الدولة . فالسلطان لا يملك أن يشرع فى مسألة خاصة . ومع هذا قد يحتاج حفظ الدولة . الى اصدار التشريعات فى مسائل خاصة . فيجب أن نبحث عن وسيلة لذلك .

ان تصرفات السلطان لا يمكن أن تكون الا تصرفات الارادة العامة . أى أنها قوانين . ولكن يجب بعد ذلك قيام تصرفات تنفيذية لتلك القوانين . وهى أعمال الحكومة الادارية . وهذه الأعمال ليس لها موضوع سوى الشؤون الخاصة الفردية . فالتصرف التشريعى الذى يقضى بانتخاب رئيس للدولة يعتبر قانونا . والتصرف الذى به يتم اختيار ذلك الرأى تنفيذا للقانون عمل من أعمال الحكم .

وسنبحث هل من الممكن أن يتخلص الشعب من حقه فى السلطان ويخلعه على شخص أو مجموعة أشخاص . ذلك أن عملية الانتخاب ليست قانونا . والشعب حين يمارسها لا يكون هو السلطان . ولست أرى كيف يمكن للشعب أن ينقل حقا ليس له . أى كيف يمكن للشعب بما هو رعية أن يمارس نقل حق الشعب بما هو سلطان .

ان جوهر السلطان هو تقومه بالارادة العمومية . فكيف تثبت اطلاقا من مطابقة ارادة فردية (هى ارادة الرئيس) على الدوام للارادة العامة (وهى ارادة الشعب) بل من المرجح أن تكون هذه الارادة الفردية مخالفة أو مناقضة للارادة العامة . بسبب المصلحة الشخصية التى تدفع صاحبها للتجيز . فى حين أن المصلحة العامة تجنح الى المساواة . وبفرض

أن الارادة الفردية للرئيس والارادة العامة أمكن تطابقتها . فان عدم ضرورة ذلك التطابق ضرورة مطلقة تكفى لانسلاخ صفة السلطان الشرعى عن الارادة الفردية (للرئيس) .

وسنبحث هل يمكن بغير انتهاك للعقد الاجتماعى أن يكون رئيس الشعب كائنا ما كان الاسم الذى اتخذه عند انتخابه ، يمكن أن يعتبر أكثر من موظف لدى الشعب . أو خادمه الذى يتلقى من الشعب الأمر بتنفيذ القوانين التى أصدرها الشعب . وهل يمكن من غير انتهاك لحرمة العقد الاجتماعى أيضا أن يعفى هؤلاء الرؤساء من تقديم حساب للشعب عن ادارتهم لشئونه . أو من الخضوع لتلك القوانين عينها التى يطبقونها على سائر الناس .

واذا كان الشعب لا يملك نقل حقه الأعلى الى أحد . فهل يملك أن يعهد بذلك الحق الأعلى بصفة مؤقتة الى فرد أو مجموعة أفراد ؟ أى هل يملك الشعب الذى ليس من حقه أن يتخذ لنفسه سيذا ، أن يتخذ ممثلين نوابا عنه ؟ ان هذه المسألة هامة وجديرة بالمناقشة .

واذا كان الشعب لا يستطيع أولا يملك أن يتخذ لنفسه ملكا أو ممثلين نوابا عنه . فيجب إذن أن نبحت كيف يطبق قوانينه بنفسه . وهل يجب أن تكون له قوانين كثيرة يغيرها ويبدلها فى أوقات متقاربة ، وهل من اليسير أن يكون الشعب الكثير العدد هو المشرع لنفسه بنفسه .

ويسوقنا هذا للنظر فى هل يعتبر الشعب الرومانى شعبا كبيرا . وهل من الخير أن توجد شعوب كبيرة ؟ وهل يحسن أن توجد فى الدولة هيئة متوسطة بين الرعايا وبين السلطان . وهذه الهيئة المتوسطة تتولى الادارة العامة وتنفيذ القوانين وصيانة الحرية المدنية والسياسية .

وليس أعضاء هذه الهيئة ، حكاما . وتسمى مجموعتهم فى جملتها حكومة .

وحينما نعتبر أفعال هذه الهيئة مجتمعة من حيث علاقاتها بالمجتمع

كله نجد أن عضو الحكومة يخضع لأوامر الحكومة باعتباره فردا من الشعب . أى أنه يحكم نفسه . وبهذا الاعتبار يكون عضو الحكومة بمثابة فرد من المجتمع ، له صفتان . صفة المسهم في الحكم والتشريع . وصفة المسهم في الخضوع للحكم والتشريع .

ولكن يجب أن تقتصر هيئة الحكومة على تنفيذ القوانين التي يسنها الشعب . ولا تقدم الحكومة على اصدار قوانين من تلقاء نفسها . فان اقدام الحكومة على تجاوز حدود تنفيذ القوانين الى سنها وانشائها يؤدى الى حق الرعية في رفض الطاعة وتسود الفوضى . فاما أن تنحدر الدولة الى حكم استبدادى هو حكم الطاغية ، أو تنحل عقدتها وتصبح فوضى .

لنفرض أن الدولة تتكون من عشرة آلاف مواطن . في هذه الحالة لا يمكن اعتبار السلطان الا بصورة كلية . في حين أن كل فرد من العشرة آلاف له من حيث هو رعية . وجوده الفردى المستقل . فنصيب كل فرد في هذه الدولة من السلطان بنسبة واحد الى عشرة آلاف . في حين أن هذا الفرد خاضع للسلطان كلية ، بنسبة واحد صحيح .

فاذا كان الشعب مكونا من مائة ألف كان نصيب الفرد من السلطان الكلى بنسبة واحد الى مائة ألف . أى أن نفوذه ووزنه العام عشر نفوذ الفرد من الدولة السابق ذكرها . ومعنى هذا أنه كلما كبرت الدولة حجما وعددا ، قلت قيمة أفرادها . وتضاءلت حريتهم .

وكلما قل وزن الفرد بالقياس الى سلطان الدولة الكلى ، عظم سلطان الدولة ونفوذها على الأفراد . وأوشك أن يكون نفوذا استبداديا لا مقاومة له .

وعلى هذا الأساس يكون الخلاف في نسبة حرية الرعايا بين دولة ودولة . ناجما عن اختلاف أحجام الدول .

وقياسا على ذلك قد يمكننا القول ان كثرة عدد أعضاء الحكومة يؤدي الى توزيع السلطان عليهم . مما يؤدي الى ضعف تلك الحكومة وقلة نفوذها .

وتوضيحا لهذه النقطة سنميز في كل شخص من أشخاص الحاكمين بين ثلاث ارادات . ارادته كشخص . لا يبحث الا عن مصلحته الشخصية . وارادته كحاكم له نصيب من ارادة الحاكمين العامة المشتركة بينهم . وهي ارادة تستهدف مصلحة الحكومة فحسب . وارادة الشعب أو السلطان وهي أشد عموما من ارادة الحكومة . وبعبارة أخرى يكون عضو الحكومة له ثلاث صفات : صفته كفرد من الناس وصفته كعضو في الحكومة منفذ للقوانين . وصفته كعضو من الشعب صاحب السلطان المنشئ للقوانين .

وفي التشريعات الكاملة يجب أن تكون الارادة الفردية معدومة تقريبا . وأن تكون الارادة الحكومية محدودة جدا . وأن تكون الارادة الشعبية أى ارادة السلطان العام للمجتمع هي السائدة على سائر الارادات .

والمشاهد في الواقع عكس ذلك فالارادة العامة للشعب هي أضعف الجميع . وارادة الحكومة أقوى منها . والارادة الخاصة لعضو الحكومة من حيث هو شخص له مصالح مقدمة على كل شيء . فالفرد الحاكم يفكر في نفسه أولا . ثم في مصلحة الحكومة ثانيا . ولا يكاد يفكر في مصلحة الشعب . فهو يضع كونه فردا معينا في المقام الأول . وكونه حاكما في المقام الثاني . وكونه من الشعب في المقام الأخير . وذلك هو عكس ما يقتضيه النظام الاجتماعي تماما .

وبعد النظر في تلك الأمور كلها سنرى كيف تكون الحكومة بين يدي رجل واحد . بحيث تجتمع ارادته الشخصية وارادة الحكومة في مجال واحد . وتتركز غاية التركيز .

ومعنى هذا هو السلطان المطلق للحكومة . ويترتب على ذلك أن أشد الحكومات فاعلية وإيجابية هى حكومة الفرد الواحد .

* * *

وقد طال الخلاف منذ زمن بعيد حول أحسن صور الحكومة . من غير أن يفتنوا الى أن كل حكومة يمكن أن تعتبر أفضل الحكومات فى حالة معينة ، وأن تعتبر أسوأها فى سائر الحالات ..

وإذا كان ما نراه صحيحا من أن عدد الحكام فى أى دولة يجب أن يتناسب تناسبا عكسيا مع عدد المواطنين — ولست أعنى بالحكام سائر موظفى الحكومة ، بل كبار الرؤساء فى الأمة ، أما الباقون فليسوا الا أدوات لهؤلاء — فإن الحكومة الديمقراطية تلائم الدول الصغرى . والحكومة الارستقراطية توافق الدول الوسط ، والملكية أو الدكتاتورية تناسب الدول الكبرى ..

وعن طريق النظر فى هذه الأمور سنصل الى معرفة واجبات المواطنين وحقوقهم ، وهل فى الامكان فصل هذه عن تلك . وما هو الوطن ، ومم يتكون بالضبط . وبهم يعرف كل امرئ ان كان له أو ليس له وطن ..

وبعد النظر فى كل مجتمع مدنى من حيث هو ، سنقارنه بغيره من المجتمعات كى نعرف العلاقات المختلفة التى يمكن أن تنشأ بين الدول الكبيرة والصغيرة والقوية والضعيفة ، فى حال الخلاف والاتفاق والحرب والسلم ، والمخالفة وغير ذلك . ومن المعلوم أن الاستبداد والحرب هما أكبر الأوبئة التى تصاب بها البشرية .

وسنبحث أخيرا أنواع العلاج التى نشدها الناس لتلك المشكلات عن طريق عصبات الأمم أو اتحاداتها . تلك الاتحادات التى تترك رئيس كل دولة فى موضعه . وتسليح الاتحاد كتلة واحدة ضد أى عدوان غاشم من الخارج . وسنرى هل يمكن إقامة اتحاد فيدرالى طويل الأمد . والى

أى حد يمكن بسط حقوق الاتحاد العام من غير اضرار بالسلطان الذى لكل دولة من دول الاتحاد على حدة .

وسوف لا تكون أسفارنا الى المدن الكبرى . فانها لا تمثل خصائص الشعوب المميزة . بل تتشابه الحياة فى جميعها على اختلاف مواطنها . فلن تفيدنا الرحلة اليها مزيدا من علم أو خبرة بأحوال الناس وأخلاقهم وطباعهم . فلا جدوى اذن من زيارتها . بل ستكون أسفارنا الى أقاصى الأرياف . حيث تقل الحركة والتجارة والاتصالات والأسفار وزيارات الأجانب . فهناك تتبدى خاصة الشعب واضحة غير مختلطة بغيرها . فالفرنسيون لا تجدهم فى باريس على حقيقتهم . بل فى ثورين . والانجليز لا تجدهم فى لندن على حقيقتهم ، بل فى مرسى . والأسبان لا تجدهم فى مدريد على حقيقتهم ، بل فى غاليسيا .

وقد شرح مونتسكيو فى كتابه روح القوانين العلاقات الضرورية بين طباع الناس وحكوماتهم . فمن شاء فليرجع الى ذلك الكتاب ليجد أن هناك قاعدتين سهلتين بنسبتين للحكم على الصلاح النسبى للحكومات . والقاعدة الأولى هى قاعدة السكان . فحيثما يتناقص عددهم تنحدر الدولة الى الانحلال . والاقليم الذى يزداد عدده هو أفضل حكومة ولو كان أفقر مالا . ولست أعرف سوى شذوذ واحد لهذه القاعدة . وهذا الشذوذ يتمثل فى الصين .

ولكن ينبغى أن يكون ازدياد السكان نتيجة طبيعية لا طارئة . فلا يكون ذلك بالاستعمار أو الهجرة المؤقتة . ولا بضغط القانون . فحينما حمل الامبراطور أغسطس على العزوبة وأصدر قوانين ملزمة للعزاب بالزواج كان ذلك ارهاصا باضمحلال الامبراطورية الرومانية ، لأن الزواج الاجبارى بحكم القانون لا يكون نتيجة طبيعية لاخلق الأمة .

والقاعدة الثانية على الصلاح النسبى للحكومة وقوانينها لها صلة بالسكان أيضا ، لا من حيث العدد الاجمالى . بل من حيث الكثافة وتوزع السكان بالتساوى على ارجاء الدولة . فلا يتجمع السكان فى المدن الكبرى على حساب الريف . علما بأن المدن الكبرى تعيش عالة على الريف .

ولا ينبغى عند دراسة السياسة أن نغتر بشكل الحكومة . بل يجب أن نراقب أثر الحكومة فى أحوال الناس ، فالانتخابات مثلا هى التى تدل بطريقة اجرائها على مدى حرية الأمة . وطريقة معاملة الموظفين للناس دليل آخر .

ومن الأمور التى يجب أن ندرسها فى ارجاء الريف فى أهم مختلفة أثر الحب الحقيقى فى الشبان . فان الشاب اما أن يحب واما أن يفسق . ولست أتكلم عن المظاهر فى السلوك بل عن الحقائق . وانى أعترف هنا أن فكرة دفع اميل الى الحب والعشق قبل سفره ليست من ابتكارى ، وانما استوحيتها من الحادثة التى أروىها هنا .

كنت فى البندقية ذات يوم أزور رائد شاب انجليزى . وكان الوقت شتاء . وقد جلسنا حول النار . ووصل البريد فأخذ الرائد يقرأ الخطابات . ثم قرأ لتلميذه اللورد جون الصغير خطابا منها بصوت مرتفع لم أفهم منه شيئا لأنه بالانجليزية . بيد أنى لاحظت أن التلميذ الشاب كان محتقن الوجه وهو يصغى للخطاب . ويمزق الدتلا الدقيقة التى تزين كميته خلسة ويلقى بها الى النار . الى أن أتى عليها . وأدهشنى هذا التصرف الغريب . فانتظرت الى ختام تلاوة الخطاب وأظهرت الرائد على معصمى تلميذه العارفين . فانفجر ضاحكا ثم شرح لى الأمر .

— ان هذه الأكمام التى مزقها اللورد جون هدية من سيدة مقيمة فى هذا البلد . واللورد مخطوب فى انجلترا لآنسة يحبها كثيرا . وهى أهل لأكثر من هذا الحب . والخطاب من والدته الخطيبة تقول له

فيه أن ابنتها تنسج بيديها ليل نهار أكماما من الدتلا الرفيعة لخطيبها .
وزارتها بالأمس صديقة لها . وأصرت على مساعدتها في هذا النسيج
الدقيق . وفجر اليوم لاحظت الأم أن ابنتها مستيقظة . فدخلت عليها
فوجدتها منهمكة في فك جميع ما صنعه صديقتها من الغزل . لأنها لا تريد
أن يكون في هديتها لخطيبها غرزة واحدة صنعتها يد غير يدها . فأحس
اللورد جون بالتبكي لأنه قبل هدية سيدة أخرى . ومزق الأكمام
وأحرقها .

ولم تغرب عن ذهني هذه الحادثة التي استثارت ذهني وعواطفني .

والآن حان أن نعود بأميل الى صوفي وقد نمت مداركه واتسع أفقه
ونضجت عواطفه . وكنت حريصا على ارتباطه في أسفاره بذوى الفضل
في البلاد المختلفة ، كي تستمر المراسلات بينه وبينهم . وتقيه من
الانحصار الضيق في العصرية القومية . فان المراسلات مع الأجانب
الفضلاء وقاية طيبة من هذا الداء .

وقد استغرقت هذه الأسفار سنتين تقريبا في جميع الدول الكبرى
بأوروبا وبعض دولها الصغرى ، وقد تعلم في خلالها لغتين أو ثلاث لغات
أساسية . ودرس على الطبيعة كل ما وقع عليه نظره من حيث التاريخ
والأخلاق والتاريخ الطبيعي والفنى .

وأخيرا قلت له :

— والآن يا صديقى . لعلك تذكر الهدف الأساسى من رحلاتنا هذه.
وها أنت قد شاهدت ولاحظت . فما هى نتيجة ملاحظاتك ؟ وأين ستختار
إقامتك ؟ .

وما لم أكن مخطئا في تريتي له ومنهجى ، فسيكون جوابه :

— أين تريدنى أن أقيم ؟ انى لا أريد أن أضيف غلا جديدا الى

ما كبلتنى به الطبيعة والقوانين . فكلما نظرت فى أعمال الناس ونظمهم ،
وجدتهم يزدادون عبودية ورقا كلما أمعنوا فى الحرص على استقلالهم .
ويبدو لى أنه كى يصبح الانسان حرا يكفى الا يضر الرغبة فى التخلّى
عن حريته . وقد علمتنى يا أستاذى العزيز أن أكون حرا حين علمتنى كيف
أستسلم للضرورة من غير مقاومة أو ضغط . وما دمت غير راغب فى
مقاومتها فلن أصنع شيئا لمدافعتها . وقد بحثت فى أسفارنا عن موضع
من الأرض أستطيع أن أقول انه ملكى . ولكن ما من موضع بين الناس
الا وتحيط به شهواتهم وأهوائهم . لقد وجدت بعد طول بحث أن
رغبتي متناقضة . لأننى بفرض تفريطى فى كل ارتباط ، سأكون على
الأقل مرتبطا بأرضى . وستكون حياتى مشدودة الى تلك الأرض .
والسلطة والحرية تتعارضان . فلا أريد أن يكون للأرض على سلطان .
لأننى لا أستطيع أن أكون سيد كوخ الا بأن أنزل عن سيادتي على نفسى .
وانى أذكر أن ممتلكاتي كانت من أسباب أبحاثنا . وقد صورت لى وبحق
انى لا أستطيع أن أحتفظ بثروتى وحريتى فى آن واحد . ولكنك حينما
أردت أن أكون فى آن واحد حرا وبغير احتياجات ، كنت تريد أمرين
متعارضين . فانى ان نجوت من حاجتى الى الرجال دخلت فى خضوعى
للطبيعة . وماذا أصنع بالثروة التى تركها لى أبواى ؟ انى سأبدأ بأن
أقضى على تأثيرها فى نفسى . بحيث تكون تلك الثروة هينة عندى . فان
بقيت لى لم أفرح بها . وان نزع منى لم آس عليها . ولن أكلّف نفسى
لفتة للابقاء عليها . وبهذا سأكون حرا سواء كنت غنيا أو فقيرا . ولن
تكون حرّيتى مرتبطة باقليم معين ، بل سأكون حرا أينما حللت على وجه
الأرض . فان جميع قيود التعصب والانحياز محطمة عندى . ولا أعرف
الا قيود الضرورة الطبيعية . وهذه تعلمت كيف أحملها منذ مولدى .
وسأحملها حتى الممات ، لأننى رجل . ولماذا لا أعرف كيف أحملها حرا ،

ما دامت العبودية تحملنيها كذلك ، بالاضافة الى قيود العبودية ؟ وماذا
يعنيني أين أكون . وفي كل مكان يعمره البشر سأكون بين اخواني ؟
أما اذا حالت ثروتى دون حررتى فانى أتخلى عنها . وأعيش من كد
يدى . وان قطعت يدى سأعيش ما أطعمنى الناس . وأموت أن تخلوا
عنى . وسوف يزعجنى الموت لأن الموت مكتوب على الانسان سواء كان
فقيرا أو غنيا . هذا هو ما عولت عليه . مدركا أن التحرر من الشهوات
هو الحرية . وليست الحرية بنت مكان ما . فهيا يا والدى اعطنى شريكة
حياتى . وسأكون حرا . فان قيدها هو القيد الوحيد الذى أرحب به
وأفخر بحمله .

— انى فخور يابنى بأن أسمع منك كلاما جديرا بالرجال . وكنت
موقنا قبل اسفارك أنك ستصل الى هذه المرحلة . وستدرك ما وراء
المظاهر فى المجتمعات والنظم . وان الحرية ليست رهنا بشكل معين
للحكومة . وانما هى فى قلب الانسان الحر ، يحملها معه اينما كان . اما
الرجل المنحط فيحمل رقه وعبوديته أينما حل . ولكنى أحب أن أقول
لك ان لمسقط رأسك عليك حقا فمته أخذت مقومات الحياة . وان
لوالديك عليك حقا . فأنت مرتبط باقليم وبأهل . ويجب أن تكون
خدماتك لبنى وطنك وذويك قبل غيرهم من المواطنين والناس . وكل
ما أطلبك به أن تتجنب حياة المدن الكبرى والبلاط لأنها تفسد الأخلاق
وتفضى للانحلال بما فيها من بعد عن حال الطبيعة واعتماد على التكلف
الذى هو نقيض الفطرة .

وانى أتخيل اميل وصوفى وقد أقاما فى ذلك الركن البعيد من الريف
حيث أسرة صوفى . فان فى أبويها قدوة لمن يريدون حياة فاضلة تقوم
على اسداء الخير للناس وحب الأرض والتمسك بالفضيلة والبعد عن
الترف وكل ما فيه عبودية للمظاهر الخادعة . فهناك ستحيا الأرض
بجودهما . وتحيا القلوب ببرهما . وتزدهر الحياة فيهما ، وفيما حولهما .

زواج اميل وصوفى

والآن لا أريد أن أشغل الناس بالاسهاب فى لقاء صوفى واميل . فقد تكون فى ذلك لذة ومتعة . ولكن ليس فيه فائدة جدية . وحسبى أن أقول ان جبهما قائم على التقدير الذى يدوم ما دامت الحياة ، وعلى الفضائل التى لا تتلاشى حين يتلاشى الجمال وتذهب السن والألفة بصر الطرافة والفتنة .

أخير رأيت أجمل أيام اميل ، فكان أسعد أيامى . فيه توجت جهودى بالفلاح وبدأت أذوق ثمرة كدى الطويل فى تربيته . انه يوم اقتران الزوجين بعقدة لا تنفصم ، عقدها القلب قبل أن يعقدها اللسان ! .

وقل بين الناس من يعرفون كيف يتحدثون الى عروسين فى يوم الزفاف . فان اليوم رهيب لا يستحب فيه المزاح الماجن كما يفعل الكثيرون . وهو حبيب الى النفس لا يستحب فيه العبوس الذى يشيع الكآبة فى النفوس . وانى سأقول لهما على انفراد شيئا كهذا :

— لو استطاع الناس أن يستبقوا فى ظل الزواج حب «الخطوبة» لأقاموا لهم فردوسا أرضيا ، ولم أر أحدا أفلح من قبل فى هذا . ولكنى موقن أنه ان كتب لبشر شيء من ذلك التوفيق ، فأنتما أحرى الناس به . فهل تريدان أن أدلكما على وسيلة ناجعة تضمنان بها ذلك التوفيق ؟ انها سهلة يسيرة . تناسيا عقد الزواج لتظلا عاشقين . وهى خطة قد تبدو سهلة للرجل فى جدة العرس وطرافته . ولكنها تزداد صعوبة كلما ذهبت طرافة الرباط الزوجى والامتلاك . وانى أحذركما من الضغط والاكراه

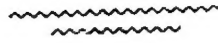
على الحب والملازمة . فان الحب عاطفة يقتلها الاكراه . والمتعة شئ لا ينال بالأمر ولا يخضع للقهر فأحذر كأيها الشاب من أن تجعل أقدس المداعبات وأجملها ضربا من الواجب تخضع له المرأة عن غير رغبة قياما بتعهداتها الزوجية . ان الرغبة المتبادلة هي أساس الحق الزوجي . والطبيعة لا تعرف أساسا للوفاء الزوجي الا الرغبة المتبادلة بين الزوجين . يجب أن يكون الزواج بالقلب لا بالجسد . وأن يكون تنفيذه بالرغبة لا بالقانون . فضع نصب عينيك يا اميل أن تكون عشيق زوجتك ولتضع هي نصب عينها أن تكون عشيقتك . ولكن يجب أن تكون عاشقا يحترم عشيقته . فهي ترتفع في مجال الفضيلة وهي تبذل لك نفسها ، ولا تحط بمقدار ذلك البذل . ولست أطلبها أن تبدى لك رغبتها صراحة في وصالك ، فاني أعلم ما هي كرامة الأثني وما هو خفرها . ولكن يكفي أن تظن يا أميل الى رغبتها الكامنة ورضاها المستور ، وتذكر أنه حتى في الزواج لا تكون لذة الجسد شرعية الا حينما تكون متبادلة بين الزوجين وهيئات أن يكون الزواج مبررا للاغتصاب . فليس الا اغتصابا أن ينال الرجل لذته من زوجته وهي عنه راغبة . ولا تظنا أن هذا المبدأ سياعد بينكما . بل سيجعل كلا منكما يتحرى رضى صاحبه ليحظى باعجابه ويصل الى اشباعه . وهكذا يقرب الحب بينكما دائما .

وفي المساء . وقد تأهبت لفراقهما سأقول لهما :

— تذكر ا كلاكما أنكما كائنات حران . وأن المسألة بينكما ليست مسألة واجبات زوجية . ومجاملات زائفة .

وأختفى عن ناظريهما ردحا . وعند عودتي بعد بضعة أشهر ، يهمس اميل في أذني وهو يقبلني :

— هنىء تلميذك يا أستاذى . فانى سأغدو أبا عما قريب . وحاشا
لله أن ألقى اليك أعباء تربية الابن بعد عناء تربية الوالد ! حاشا لله أن
ينهض بهذا الواجب المقدس أحد سواى . ولكنك ستبقى أستاذا
لأستاذية : أبيه وأمه . وأرشدنا ووجهنا . أما نحن فيجب أن نقوم بالعبء
بأنفسنا . وانى أشعر أنى الآن أحوج من أى وقت مضى الى ارشادك .
وقد بدأت واجباتى كرجل كامل . لقد أديت واجبك نحوى والآن سدد
خطاى كى أحذو حذوك . وأستريح فقد آن للمدليج أن يحمد السرى
وأن يستريح .



محتويات الكتاب

| صفحة | |
|------|---|
| ٥ | تقديم : للأستاذ أحمد زكى محمد |
| ١٢ | التربية : عند جان جاك روسو |
| ١٧ | مقدمة المؤلف |
| | الكتاب الأول : |
| ٢٣ | الطفولة الأولى وما تقتضيه من عناية |
| | الكتاب الثانى : |
| ٧٥ | الطفل : تربيته الأخلاقية |
| | الكتاب الثالث : |
| ١٥١ | الغلام فى الثانية عشرة الى الخامسة عشرة : التربية الذهنية |
| | الكتاب الرابع : |
| ١٧٧ | المراهقة والتعليم الدينى |
| | الكتاب الخامس : |
| ٢٣٣ | صوفى أو المرأة |

